

323.2

L 44rAz

٧

٢

ميد صانع الدفتر
تلفون ٢٢٩٧٧

一

روح الثورات

والسورة لفرناوية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

ترجمته من ألف الفرساوية

محمد عادل زعيم

مترجم من معهد الحقوق في جامعة باريس

59011

عفي بنشره

عبد الجواد

أستاذ بالكلية العربية في دمشق



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله صاحب
العزم المتين وعلى آله وصحبه الاتقياء الطاهرين .

اما بعد فان علم الاجتماع هو احد العلوم التي غني بها العلماء في
الوقت الحاضر وسعوا في استجلاء ما غمض من قواعدها . ونعد من
اكابر هؤلاء العلماء الدكتور غوستاف لوبون مؤلف « حضارة
العرب » .

وضع هذا العلامة اثناء سياحاته العلمية الكثيرة في اقطار
الارض كتباً قيمة في مدنيات بعض الامم ثم استخرج منها المبر
فوضع ثلاثة كتب شرح فيها ما ظهر له من سنن الاجتماع وهي :
« سر تطور الامم » و « روح الجماعات » و « الآراء والمعتقدات » .
ثم طبق ما جاء في هذه الكتب من الآراء في مؤلفات اخرى اهمها
« روح الاشتراكية » و « الثورة الفرنسية وروح الثورات » وقد
عربت هذين المؤلفين فقدمت طبع الثاني لصفر حجةه وسأطبع الاول
بعده ان شاء الله تعالى .

ترجم المرحوم فتحى باشا زغلول كتاب « سر تطور الامم »
وكتاب « روح الجماعات » وسوف لا يضي زمن قصير حتى
اعرض على القراء ترجمة لكتاب « الآراء والمعتقدات » فتكون قد
اجتمعت عندهم كتب غوستاف لوبون الثلاثة الاساسية وكتابان
من كتبه التطبيقية .

وليس من الضروري ان اشير الى ما في مؤلفات الكاتب
المشار اليه ولا سيما « الثورة الفرنساوية وروح الثورات » من
الفوائد العلمية والحقائق التاريخية لان الامر اصبح مشهورا لا يحتاج
الى بيان وانما اكتفي على سبيل التذكير بنقل العبارات الآتية :
كتب النقادة الشهير [إميل فاكيه] احد اعضاء المجمع
العلمي الفرنسي :

« قد اثرت افكار غوستاف لوبون السياسية في نفسي تأثيراً جعاني في
الوقت الحاضر ان ارجع اليها مستحسناً ايها . فالفصل الذي بحث فيه عن اوهام
رجال الثورة الفرنساوية حسن من جميع الوجوه وهذه الاوهام هي الاعتماد
بطيبة الانسان وبأن من الممكنات فصل الامم عن ماضيها وتحويل المجتمع بوضع
القوانين . والكل يعلم بما أدت اليه هذه الاغلاط الكبيرة من النتائج .
انني اشارك غوستاف لوبون فيما ذكره عن عالم تجاح نابليون بونابارت فلم
يكن النصر وحده هو الذي جعله عام ١٧٩٩ معبود فرنسا — إذ النصر لم يفعل
سوى الدلالة عليه — وانما الذي سهل أمر نجاحه هو نفور الناس من الظلم
والاضطهاد والارتباك المالي وحبيهم للاملاك الوطنية وخوفهم من استردادها .
اعجب بغوستاف لوبون كخفهم « للقدر التاريخي » الذي شب على الاعتقاد

به أبناء حيلي لان هذا القدر هو من شبه الحقائق الخافلة بالاغلاط »

وجاء في مجلة العالمين :

« ان ما أتى به غوستاف لوبون منذ اعوام كثيرة من البحث العميق في مؤلفاته الفلسفية والحياتية والتاريخية قد اوصله الى اوضح بعض الحوادث العظيمة التي طدامرها غامضاً حتى الان ، وقد استطاع ان يبين اوصاف الحركات الثورية في كتاب مبتكر جديد بحث فيه عن الثورة الفرنسية وروح الثورات . »
بين في هذا الكتاب وجه الشبه بين السنن النفسية السائدة على ما يحول مصير الامم من الحوادث الكبيرة كثورة الاصلاح الديني والثورة الفرنسية ما انه اوضح شأن الامم الضعيف في الحركات الثورية ومناقضة عزائم اعضاء المجالس وهم منفردون لعزائمهم وهم مجتمعون وتأثير العناصر العاطفية والدينية العظيم في سير ابطال الثورة الفرنسية . »

محمد عادل زعيم

باريس في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٤

مقدمة الطبعة الأخيرة للمؤلف

— فيما يدور حول الثورة الفرنسية من الآراء في الوقت الحاضر —

لم اضع هذا الكتاب الذي أعيد طبعه الآن لأمدح الثورة الفرنسية أولاً ذمها بل لأفهرها بما ذكرته من السنن النفسية في كتاب آخر سميت « الآراء والمعتقدات »

ومع ان الغاية التي توخيتها تجمعاني ان لأبلى بالآراء التي قيلت في الماضي فأنتي رأيت ان الاطلاع عليها مفيد ، ولذلك خصصت فصلاً لبيان ما أتى به المؤرخون من الافكار المتباينة في الثورة المذكورة لا تعبر الكتب الا عن آراء أصبحت قديمة ، وهي وان أمكن من تمهيد الافكار المستقبلية فانها قلما تعرب عن الافكار الحاضرة ، والمجلات والجرائد وحدها هي التي تعبر عن مشاعر الوقت الحاضر تعبيراً صادقاً ، ولهذا فان ما يجيء فيها من الانتقاد مفيد جداً

يمكن ان نستخرج من المقالات التي كتبت لتحليل هذا المصنف ثلاثة آراء دالة دلالة تامة على ما يدور الان حول الثورة الفرنسية من الافكار .

فالرأي الأول يعد الثورة المذكورة كعقيدة يجب قبولها أو رفضها برمتها، والرأي الثاني يعتبرها كحادث حافل بالأسرار لا يزال مستغلقاً، والرأي الثالث يعدها كحادثة لا يجوز الحكم فيها قبل نشر كثير من الوثائق الرسمية التي لم تطبع بعد . ولا يخالو البحث بإيجاز عن قيمة هذه الآراء الثلاثة من فائدة .

تنظر الاكثرية في فرنسا الى الثورة الفرنسية بعين المتقد ولذلك فانها تتراعى هذه الاكثرية كحادث ميمون قد اخرجها من طور الهمجية وحررها من ظلم الاشراف ، ولا يزال يعتد كثير من رجال السياسة بأنه لو انشوب الثورة الفرنسية لكانوا الآن أجراء عند الامراء الاقطاعيين .

وقد ظهرت هذه الحالة الروحية في بحث هام خصصه السياسي الشهير الموسيو [إميل اوليفيه] لمناهضة ما جاء في كتابي . فبعد ان ذكر هذا العضو الفاضل في الجمع العلمي النظرية التي تعد الثورة الفرنسية حادثة غير نافعة قال :

« تناول غوستاف لوبون هذا الموضوع فجاء في كتاب حديث بحث فيه عن روح الثورة الفرنسية وتجلت فيه قوة أليفه وبيان « ان النتيجة التي اقتطفت بعد القيام بكثير من اعمال التخريب لا بد من نيلها في نهاية الامر مع سير الحضارة بلا عناء »
لم يرض الموسيو اوليفيه بهذا الرأي فالثورة الفرنسية عنده أمر ضروري وقد ختم كلامه بالكلمات الآتية :

«هل بأسف لوقوع الثورة الفرنسية من يريدان لا يكون مسخرأ لصيد الضفادع في القدران كي لا تخلق الامير الاقطاعي في نومه ، وهل ينوح لحدوثها من يريدان لا يرى كلاب شاب عاتٍ تخرب حقلة ، وهل يحزن لنشوبها من يريدان لا يسجن في البستيل لولوع رجل من بطانة الملك زوجته او لتفوهه بكلمة ضد رجل نافذ او لغير ذلك ، وهل يغتم لاشتغالها من يريدان لا يبغى عليه وزير او موظف او وكيل وان لا يكون تحت رحمة احد من الناس وان لا يؤخذ منه اكثر مما يفرض عليه وان لا يهينه ويشتمه من يدعي بانه فاتح ؟ ولذلك فاني بصفي من الطبقة المتوسطة اشكر اولئك الذين اتقذوني بعد عناء شديد من هذه الاينار التي لولاها لم لقيت رازحاً تحت أثقالها ، وبارك لهم رغم زلاتهم»

ان المعتقد الذي تجل في مثل هذه السطور ساعد مع قصة نابليون على جعل الثورة الفرنسية أمراً مرضياً في فرنسا ، ومصدر هذا الوهم الشائع — حتى بين كثير من اقطاب السياسة — هو المبدأ القائل بان طرق الحياة عند الامة تكون بحسب نظاماتها ، والواقع ان الطرق المذكورة تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصادية فتأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة ، ولا ريب في نيلنا منذ زمن طويل ما بلغنا اليه وما بلغت اليه أمم كثيرة قبل الثورة الفرنسية من المساواة والحرية سواء أشتعلت هذه الثورة ام لم تشتعل .

ويؤدي الرأي الثاني القائل بان الثورة الفرنسية سر مستعلق الى محافظة هذه الثورة على نفوذها ايضاً . واليك ما جاء في مقالة

خصصها الموسيو (دورمون) مدير إحدى الجرائد الكبيرة في باريس
لفحص كتابي :

« لاتزال الحوادث المدهشة التي زعزعت أركان العالم القديم لغزاً من
الالغاز ولم تكشف ابحت علم النفس سر تلك الازمة العجيبة التي سبق
معدودة من حوادث التاريخ الحارقة للعادة »

وينشأ عن تلقي الثورة الفرنسية على مثل هذه الصورة
ظن الناس بأنها سلسلة وقائع غامضة أحدثتها صدفة سرية ، وتدل
الكلمات التي أوردناها على درجة الشكوك والريب التي تزيد
البحث عن الثورة المذكورة إبهاماً وتبرر حكمة العلماء الذين يقتصرون
على نشر الوثائق فقط .

إذاً فالنصف الذي يود أن يكون ذا رأي صائب في الثورة
الفرنساوية يرى نفسه الآن إما إزاء عقائد عمياء أو مزاعم يصرح بها
أن هذا الحادث العظيم يتعذر إيضاحه بالوثائق الحاضرة .

وقد وقع هذا المعجز في نفسي عند ما شرعت في درس الثورة
الفرنساوية لأطبق عليها طريقتي في علم النفس فلاح لي أن شكوك
المؤرخين في هذه الازمة الكبيرة ناشئة عن شرحهم بالمعقول ما صدر
عن روح التدين والعاطفة والجماعات من الحوادث

يوجد في كل صحيفة من صحائف الثورة بهان على ذلك ،
فمنطق الجماعات - لا المنطق العقلي - هو الذي يكشف لنا سبب

تصويت المجالس الثورية دائماً الى تدابير مخالفة لرأي كل عضو من اعضائها ، ولا يوضح لنا العقل لماذا تنزل نواب الاشراف في ليلة شهيرة عن امتيازات كانوا شديدي التمسك بها مع انهم لو اقلعوا عنها في وقت مناسب لاجتنبت الثورة الفرنسية على ما يحتمل وكيف يمكننا ان ندرك علة كون الاذكياء المسلمين من ابناء الطبقة الوسطى الذين كانوا وهم في بعض اللجن يضعون المقياس المتري ويأمرون بانشاء المدارس الكبيرة قد صوتوا في مكان آخر الى افعال وحشية كاعدام (لافوازية) واعدام الشاعر (شينيه) وهدم قبور (سان ديني) الفخيمة اذا لم نكن عالمين بتقلبات الذات حسب اختلاف الظروف ؟ ثم كيف يمكننا ادراك السبب في انتشار الحركات الثورية اذا لم نكن عارفين بسنن الاقناع الحقيقية التي تختلف عما تدل عليه الكتب من الطرق اختلافاً تاماً ؟

تأصلت المبادئ العقلية في فرنسا تأصلاً جعل الناس لا يتصورون ان حوادث التاريخ قد تقع بعيدة عن العقل او ضد العقل ، ومع ذلك فيجب علينا تفهم ما يميز العقل عن ايضاحه من الحوادث ان نغير ما نوضح به وقائع التاريخ من الطريق .

أرى ان الافكار التي ينتهيا في هذا المؤلف ستشيع سريعاً وما نشر من المقالات الكثيرة يثبت لنا انها أثرت في كثير من

العلماء المدققين ، وأني اكتفي على سبيل المثال باقتطاف العبارة
الآتية من جريدة التاجس التي هي أهم صحف انكلترا :

« يجب على جميع رجال السياسة ان يطالعوا كتاب غوستاف لوبون . فلم
يبال هذا المؤلف بما قيل في تفسير الثورة الفرنسية من النظريات المدرسية
ولذلك أدت شروحه النفسية الى نتائج جديدة جداً فوضح ما للشعب من الشأن
الضئيل في الحركات الثورية وما في عزائم اعضاء المجالس وهم مجتمعون من
المنافسة المطلقة لعزائمهم وهم منفردون وما سيرا بطل الثورة المذكورة من
الروح الدينية وما للعقل من التأثير القليل فيهم ، فلو لا هذه الثورة لصعب اثبات
كون العقل لا يحول الرجل وكون المجتمعات لا تتجدد كما يريد المشرعون
مهما كان سلطانهم عظيماً . »

ان تاريخ الثورة الفرنسية عبارة عن سلسلة من الحوادث
المتآزية وكثيراً ما وقعت هذه الحوادث مستقلاً بعضها عن بعض كقصة
النظام الملكي البالي الذي انقضى لعدم وجود من يدافع عنه وقصة
المجالس الثورية وقصة الفتن الشعبية وزعمائها وقصة الجيوش وقصة
النظامات الجديدة وغير ذلك من القصص الدالة في الغالب على
قوى نفسية متصادمة يجب درسها على الطرق المستعارة من علم النفس .
نعم قد يجادل في قيمة ما أتينا به من الشروح ولكنني اعتقد
بأنه سيصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسية من غير
ان ينظر الى تلك الشروح .

مقدمة المؤلف

— إعادة النظر في التاريخ —

لم يكن الدور الحاضر دور مكتشفات فقط بل دوراً يبحث فيه ثانية عن اجزاء المعرفة فبعد ان أقر العالم بأنه لا يوجد اى حادث يسهل الاطلاع على علته الاولى في الوقت الحاضر اخذ يفحص مرة أخرى عما قال بصحته من القواعد سابقاً فرأى انها سريعة العطب ، وهو يشاهد الآن دخول مبادئه القديمة واحدة بعد الاخرى في خبر كان ، فعلم الآلات تخسر قواعده واخذ الناس يرون ان المادة التي كانت معدودة في الماضي جوهر الكائنات الازلي هي عبارة عن قوى فانية تكاثفت لاجل قصير .

ولم يشذ التاريخ عن مثل ذلك رغم ما فيه من الحدس الذي ينقذه من النقد الشديد ، فلا يستطيع احد ان يقول الآن بأنه يعرف صحيفة من صحائفه معرفة تامة وما كان يلوح انه علم يقينا من الاحداث فقد أعيد ليبحث فيه ثانية .

ونعد الثورة الفرنسية من بين الوقائع التي كان يظهر ان

درسها قد تم ، وبعد ان بحثت عنها أجيال عديدة من المؤلفين عم
الاعتقاد بانها أوضحت ايضاحاً كاملاً ، وماذا بقي ليقال عنها سوى
تعديل بعض التفاصيل ؟

ومع ذلك فان أشد المدافعين عنها اخذوا يترددون في احكامهم
فاصبح كثير من الحقائق القديمة موضعاً للاخذ والرد وصار الايمان
بعدد كبير من المذاهب المقدسة زرعاً وما كتب أخيراً عن الثورة
الفرنساوية قد كشف القناع عن تلك الشكوك والريب ، فتدرج
الكتاب بعد روايتها الى العدول عن استخراج النتائج منها .

ولم يكتف العلماء بالممارة في أبطال تلك الفاجعة العظيمة
فقط بل اخذوا يتساءلون عما إذا كانت دعائم النظام الحديث الذي
حل مكان النظام القديم تتوطد من غير عنف بتأثير مبتكرات الحضارة
وهامهم قد رأوا ان عواقبها لا تساوي ما كلفت من الاعباء .

يوجد اسباب عديدة او جبت إعادة النظر في ذلك التاريخ
المحزن ، ومنها ان الزمان سكن مافي النفوس من الانفعالات وان
كثيراً من الوثائق اخذت تخرج من بطون الخزائن وان الناس
صاروا يعلمون كيف يشرحونها بحرية تامة .

ولربما كان علم النفس الحديث هو الذي سيؤثر اكثر من
كل شيء في افكارنا معيناً ايانا على العلم بروح الرجال وبعوامل

سيرهم ، ونخصص من بين مكتشفاته التي يمكن تطبيقها منذ الآن على التاريخ معرفة المؤثرات الأثرية والنواميس المسيرة للجماعات والتجارب الدالة على انحلال الذاتيات والعدوى النفسية وتكوين المعتقدات تكويناً لا تنهياً والتمييز بين انواع المنطق المختلفة .

والحق يقال ان هذه التطبيقات العلمية التي طبقناها على هذا المؤلف لم ينتفع بها حتى الآن فلا يزال المؤرخون مكتفين بدرس الوثائق ، على ان ذلك يكفي لاقاء ماشرت اليه من الشكوك والشبهات في نفوسهم .

* *

قد يكون ايضاح الحوادث العظيمة التي تحول مصير الأمم أحياناً من الصعوبة بحيث يضطر الانسان الى الاقتصار على ملاحظاتها فقط .

وتدأثر في نفسي منذ الحائي التاريخية الأولى تعذر ادراك بعض الحوادث الجوهرية ولا سيما تكوين المعتقدات فشعرت بان أموراً أساسية ضرورية لأيضاحها تقوتنا وبانه يجب ان لا ننتظر شيئاً من العقل الذي قال جميع ما أمكنه و بانه يتحتم ان نبحث عن وسائل أخرى للوقوف على ما عجز عن تفسيره .

بقي أمر هذه المسائل الكبيرة غامضاً في نظري وما أثبت به من

السياحات البعيدة للبحث عن انقراض المدينيات المنقرضة لم يقلل من هذا الغموض شيئاً يذكر .

الا أن كثرة التأمل والتفكير ساقطني الى الأقرار بأن هذه المشكلة مركبة من مشا كل أخرى يجب البحث عن كل واحدة منها على حدة ، وهذا ما فعلته في عشرين سنة فأوردت نتائج البحث في سلسلة من المؤلفات .

بحثت في أحد مؤلفاتي الأولى عن سبر تطور الامم فبعد ان بينت فيه ان الامم التاريخية اى الامم التي تكونت حسب صدف التاريخ تنال في آخر الأمر صفات نفسية ثابتة كصفات اوصانها التشريحية اوضحت الكيفية التي تحول بها اناظيمها ولغاتها وفنونها ، ثم شرحت فيه لماذا يحتمل ان تنفك عرى الذاتيات الفردية عند تبدل البيئة فجأة

ولكن يوجد عدا هذه المجتمعات البشرية المكونة من الامم مجتمعات بشرية متقلبة مسماة بالجماعات ، وهذه الجماعات التي تمت على يدها اكبر القتن التاريخية صفات تختلف عن صفات الأفراد الذين تتركب منهم اختلافاً تاماً . وقد بحثت عن هذه الصفات وعن كيفية تطورها في كتاب سميت به بروح الجماعات .

وبعد هذه الأبحاث أبصرت انه يوجد بعض مؤثرات قد

غابت غني .

لم يكن الامر مقصراً على ذلك فقط بل يوجد بين عوامل التاريخ الهامة عامل قوي اي المعتقدات وقد بحثت عن هذه المسئلة الصعبة في مؤلفي الاخير الذي سميته بالآراء والمعتقدات فينت في هذا الكتاب كيفية تولد المعتقدات وهل هي عقلية ارادية كما عرفت ام هي على خلاف ذلك لا شعورية مستقلة عن كل عقل .

يبقى ايضاح المعتقدات امرأ متعذراً اذا اعتبرت ارادية عقلية وقد تمكنت بعد ان اثبت انها غير عقلية غالباً وغير ارادية دائماً من حل المشكلة العظيمة وهي كيف ان ارباب العقول النيرة في كل حييل يستصوبون من غير عناء معتقدات لا يبررها العقل .

سيظهر حل المشاكل التاريخية التي بحثت عنها منذ كثير من السنين ظهوراً واضحاً بعد الآن فقد توصلت الى نتيجة دالة على انه يوجد بجانب المنطق العقلي الذي يربط الافكار بعضها ببعض منطق الجماعات والمنطق الديني اللذان يستحوذان في الغالب على العقل ويولدان عوامل السير فيها .

وبعد ان حققت ذلك علمت انه يظل ادراك كثير من الحوادث التاريخية ممتنعاً اذا اريد ايضاحها بنور منطق قليل التأثير في تكوينها .

اقتضى الوصول الى جميع هذه الابحاث التي لخصناها هنا في
بضعة سطور سعي اعوام كثيرة ، وقد يأت من إتمامها فرجت
أكثر من مرة الى الجدل في المختبرات التي يثق الانسان بانه يقرب
فيها من الحقيقة دائماً وينال شيئاً من العلم اليقين .

ان سبر غور الرجال مفيد كالتيقّب في الحوادث المادية وهذا
ما جعلني ارجع الى علم النفس على الدوام .

ولما ظهر لي ان بعض النتائج التي استنبطتها من ابحاثي واسعة
المدى نويت ان اطبقها على بعض الحوادث ، وهكذا تناولت درس
روح الثورات ولا سيما الثورة الفرنسية .

وكما كنت اتوغل في تحليل هذه الثورة العظيمة كانت أكثر
الآراء التي نشأت عن مطالعة الكتب وكنت أظن أنها متينة
لا تترزع عن تنهار انهاراً متتابعاً .

يجب لايضاح هذا الدور أن لا يعد حادثاً واحداً كما فعل كثير
من المؤرخين فهو مركب من حوادث مستقلة وقعت في آن واحد
وقد تفرعت عن كل واحدة من هذه الحوادث أمور وقعت حسبما
تقتضيه سنن النفس ، ويظهر لنا ان ممثلي تلك الفاجعة الكبيرة قد
ساروا كمثلي الروايات التي وضعت قبلاً فقال كل واحد منهم ما يجب
ان يقول وعمل ما يجب ان يعمل .

لا شك في ان اولئك الممثلين الثوريين يختلفون عن ممثلي الرواية المكتوبة لكونهم لم يدرسوا ادوارهم ولكن قوى خفية كانت تقلبها عليهم فكانوا يأتون بها كأنهم من الحافظين لها . وقد اوجب اتباعهم لمنطق لم يدركوا من أمره شيئاً اتباعاً مقدرّاً تعجبهم مثلنا من الحوادث التي كانوا ابطاها لأن القوى الخفية المسيرة اياهم لم تخطر ببالهم أبداً ، وما كان أمر شدتهم وضعفهم يدهم فهم وان كانوا يتكلمون باسم العقل ويدعون بأنهم مسيرون به فهو لم يكن رائدهم في الحقيقة . قال بيوفارين :

« كئنا لا نريد ان نأتي بما نلام عليه من الافعال ولكن الازمة كانت تدفعنا الى احداث ذلك . »

ولا يستدلن القاري من هذا الكلام على ان الحوادث الثورية خاضعة لمقادير مهيمنة فالمطلع على ما وضعناه من الكتب يعلم اننا نعترف بما لا ريب التاثير من القدرة على ابطال عمل المقادير ، غير انهم لا يقدرّون إلا على ابطال عدد قليل منها وكثيراً ما يعجزون عن ايقاف الحوادث التي لم يتسلطوا على سيرها عند البداية . فالعالم يقدر على استئصال المكروبات قبل تأثيرها ولكنه يعترف بعجزه عند استفحال المرض .

يمكن القول بان المسئلة التي يؤدي البحث عنها الى آراء متناقضة
لمسئلة معدودة من فصيلة المعتقدات وليست من فصيلة المعارف .
وقد بينا في مؤلف سابق ان الأدلة والبراهين لا تؤثر في المعتقدات
الناشئة عن اللا شعور الذي لاعلاقة له بأي عقل .

واقترح المعتقدون الذين أتوا بأحكام في الثورة الفرنسية
التي هي من عمل المعتقدين ايضاً على فرقتين احديهما تلعن الثورة
المذكورة والأخرى تعجب بها ولذلك فإن الثورة المذكورة بقيت
من جنس المعتقدات التي تقبل او ترفض جملة من غير ان يتدخل
اي منطق عقلي في هذا الاختيار . فالثورة الدينية او السياسية وان
جاز ان تستند الى عناصر العقل في بدايتها فانها لا تنتشر الا متمددة
على عناصر الدين والعاطفة التي لاصلة بينها وبين العقل مطلقاً .

لم يستطع المؤرخون الذين بحثوا عن حداث الثورة الفرنسية
باسم المنطق العقلي ان يدركوا سرها لان هذا المنطق لم يكن بمحدث
لها وبما ان القائمين بها أنفسهم غير مطلعين على كنهها فاننا لانخطئ
اذا قلنا ان تلك الثورة هي أمر لم يفقهه من أتى به ومن قصه ، ولم
يكن في دور من ادوار التاريخ ان أدرك الحال ادراكاً قليلاً وجعل
الماضي جهلاً تاماً وكشف المستقبل كشفاً ناقصاً نظير ذلك
الدور .

لم تتم سطوة الثورة الفرنسية على ما كانت تربي الى نشره
من المبادئ ولا على ما كانت تود ان تضعه من الأنظمة إذ الأمم
لا تبالي بالمبادئ والأنظمة الا قليلا ، فالسبب في قوة هذه الثورة
وفي ارضاء فرنسا بما أتت به من المظالم والمذابح والهدم والاهول وفي
مدافعتها ظاهرة إزاء اوروبا المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة
جديدة لا نظاماً حديداً . ولقد اثبت التاريخ والمعتقد القوي من
القوة التي لا تقاوم فخرت دولة الرومان المنيعه لجيوش من رعاة
البدو الذين أضاء قلوبهم ماجاء به محمد (صلم) من الايمان ، واثبت
هذه العلة لم تقدر ملوك اوروبا على مقاومة جنود العهد الرثة الثياب
فكان هؤلاء الجنود مستعدين لجميع الدعاة لتضحية أنفسهم في سبيل
نشر عقائدهم التي كانوا يتخيلون انها ستجدد العالم .

*

* *

اننا نعد الثورة الفرنسية كما ظن دعايتها انها قطعت كل علاقة
مع التاريخ وان أوجد هؤلاء لاظهار مقصدهم تقوياً جديداً وزعموا
انهم قضوا على الروابط التي تربطهم ببقايا الماضي ، فالماضي لا يموت
ابداً وهو متأصل في النفوس اكثر من كل شيء . كان المصاحون ايام
الثورة المذكورة مشبعين به من غير ان يشعروا وهم لم يفعلوا سوى
مواصلة التقاليد الملوكية — بأسماء اخرى — مفرطين بالاستبداد

والسير على نحو مركزية العهد السابق ، وما وجد (توكفيل)
عناء بآثاره ان هذه الثورة لم تهدم سوى ما كان متصدعاً .

والثورة الفرنسية وان لم تنقض في الحقيقة غير شيء يسير
فانها أعانت على انكشاف بعض المبادئ التي استمرت على النمو
نعم إن مبدئي الأخوة والحرية اللذين نشرتهما لم يغرا الأمم كثيراً
ولكن مبدأ المساواة أصبح انجيلاً لها اي صار قطباً للاشتراكية
ولتطور المبادئ الديمقراطية في الوقت الحاضر . ولهذا يجوز
لنا ان نقول بأن تلك الثورة لم تنته بظهور الدور الإمبراطوري ولا
بالأنظمة التي ظهرت بعده فهي قد انتشرت رويداً رويداً مع
الزمان ولا تزال ذات سلطان على النفوس .

* *

ربما ينزع البحث عن الثورة الفرنسية الذي خصصناه له قسماً
عظيماً من هذا الكتاب كثيراً من أوهام القاريء لأنه سيرى ان
المصنفات التي حدثت عنها تحتوي كثيراً من الاقاصيص البعيدة عن
الحقيقة . لا ريب في ان هذه الاقاصيص ستبقى مسطورة في كتب
التاريخ ولا نأسف لذلك لان الاطلاع على الحقيقة وان كان يفيد
بعض الفلاسفة فان تغلب الأوهام على الشعوب انفع ، فمن مجموع
تلك الأوهام تتكون منية الشعوب الباعثة لسيورها . قال (فوتيل)

« لولا الافكار الباطلة لضاعت الشجاعة »

حقاً ان قصص جان دارك وغيلان العهد والامبراطورية تولد
آمالاً في النفوس بعد الهزيمة وان لهذا الميراث الوهمي الذي تركه
لنا الاباء سلطاناً اشد من سلطان الحقائق في بعض الاحيان ، فالاوهام
والخيالات والاساطير هي التي تقود التاريخ .



الثورة الفرنسية

و

روح الثورات

الجزء الاول

(العناصر النفسية للحركات الثورية)

الباب الاول

= صفات الثورات =

[الفصل الاول]

الثورات العلمية والثورات السياسية

١- تقسيم الثورات

يعبرون عادة عن الانقلابات السياسية بالثورة مع انه يقتضي
اطلاق هذه الكلمة على جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والافكار
والمذاهب .

بحسبنا في مكان آخر عما لعناصر المعقولات والمشاعر والتدين
من الشأن في تكوين الافكار والمعتقدات التي يتوقف عليها سير
الانسان ولا فائدة في الرجوع اليها مرة أخرى .

قد يمكن ان ينتج عن الثورة في نهاية الامر معتقد ولكنها
تنشأ في الغالب عن عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح او استبداد
ممنوت او ملك يبغضه الشعب . نعم ان المعقولات هي اصل الثورة
احياناً ولكن ينبغي ان نعلم ان الاسباب التي هيأت الثورة لا تؤثر
في الجماعات الا بعد ان تتحول الى مشاعر، فاذا أمكن بالمعقولات
اظهار ما يجب هدمه من المظالم فيجب في تحريك الجموع افعام
قلوبها بالامال ، وهذا امر لا ينال الا اذا استعين بعناصر المشاعر
والتدين التي تجعل الانسان قادراً على السير، خذ الثورة الفرنسية
مثلاً ترى ان المنطق العقلي الذي تدرع به فلاسفة ذلك العصر اظهر
للملأ مساويء النظام القديم وأوجد في القلوب ميلاً الى تبديله
وان المنطق الديني ألقى في النفوس اعتقاداً بفضائل مجتمع قائم على
بعض المبادئ وان المنطق العاطفي فك النفوس من عقائدها القديم
وجعلها قاسية وان منطق الجماعات استحوذ على الاندية والمجالس
ودفع اعضائها الى الاتيان باعمال لا يدفعهم المنطق العقلي والمنطق
العاطفي والمنطق الديني الى اقتراف مثلها .

ان الثورة مهما كان مصدرها لا تكون ذات نتائج الا بعد
هبوطها الى روح الجماعات اذ يكون للحوادث حينئذ خاصة ناشئة
عن تلك الروح

إذا فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها ولا تقدر على شيء
أولا تريد أي شيء إذا لم يكن عليها رئيس يقودها ، وهي لا تلبث
أن تتجاوز الحد الذي حرضت عليه وإن كان التحريض لا ينشأ
عنها أبداً

أن الثورات السياسية الفجائية التي يعجب لها المؤرخون هي أقل
أهمية من غيرها في بعض المرات فالثورات الكبيرة هي ثورات
الطبائع والأفكار .

وتم الثورات الحقيقة التي يتوقف عليها مصير الأمم في الغالب
دويداً دويداً وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب في تعيين
مبداً ، ولذلك فإن كلمة التطور اصح في التعبير عن المتصود من
كلمة الثورة .

لا تصح العناصر المختلفة التي ذكرنا أنها داخلية في تكوين أكثر
الثورات أن تكون أصلاً لتقسيم الثورات ولكننا إذا اعتبرنا الثورة
من حيث غايتها فقط امكننا أن نقسمها إلى ثورات عالمية وثورات
سياسية وثورات دينية .

٢ — الثورات العالمية

أن الثورات العالمية لن أكثر الثورات أهمية ، ومع أنها لا تلفت
النظر الا قليلاً فهي في الغالب ذات نتائج بعيدة لا تأتي بثملها الثورات

السياسية ولهذا ذكرناها على رأس الثورات وان كنا لا نبحت عنها في هذا الكتاب .

فالسفر في تحول الصورة التي تنظر بها الى الكون منذ عصر النهضة هو ان المكتشفات الفلكية وتطبيق الطرق التجريبية قد اورثت نفوسنا ثورة باثباتها لنا ان الحوادث لا تصدر عن أهواء الآلهة بل عن سنن ثابتة لا تتبدل .

والأجدد بمثل هذه الثورات ان تدعى بالتطورات لبطء وقوعها ، إلا أنه يوجد من نوعها ثورات أخرى تقع بسرعة وتستحق ان تدعى بالثورات ، مثال ذلك نظريات داروين التي قلبت علم الحياة في بضع سنين رأساً على عقب ومكتشفات باستور التي حولت علم الطب في أيام صاحبها ونظرية انحلال المادة التي أثبتت ان الذرة لا تشد عن السنن القاضية على جميع عناصر الكون بالزوال والفناء خلافاً لما كان يظن .

وبما ان مرتع هذه الثورات هو عالم الأفكار فليس للمشاعر والمعتقدات سلطان عليها وعلى المرء ان يعانيتها من غير ان يجادل فيها ، لأنه لما كانت التجربة هي الباحثة عن نتائجها اصبحت لا تنالها يد النقد .

٣ - الثورات السياسية

ان الثورات الدينية والسياسية تلي هذه الثورات العلمية الموجبة لكل تقدم في الحضارة وان كانت بعيدة عنها ولا تربطها بها رابطة، فالثورة العلمية لا تستق الا من عناصر العقل مع أن دعائم المعتقدات السياسية والدينية هي المشاعر والعواطف وليس للعقل سوى شأن ضئيل في تكوينها .

لقد اطنبت في كتابي المسمى بالآراء والمعتقدات في بيان منشأ المعتقدات العاطفي والديني واثبت ان المعتقد السياسي والديني هو ايمان ائيع في عالم اللاشعور وليس للعقل سلطان عليه رغم ظواهر الأمور وبنيت ان المعتقد قد يكون احياناً من القوة بحيث لا يستطيع ان يقوم في وجهه أي شيء فيصبح المرء الذي استحوذ عليه ايمانه حينئذ رسولاً مستعداً لتضحية منفعه وسعادته وحياته في سبيل نصره ، ولا أهمية لمخالفة هذا الايمان للعقل والصواب بعد ان يكون حقيقة ناصعة في نظر صاحبه ، فالمعتقد الدينية قوة عجيبة في تغلبها على الأفكار وفي كونها لا تتغير الا مع الزمان .

ان اعتبار المعتقد حقيقة مطلقة يجعله عديم التسامح بحكم الضرورة وهذا يوضح لنا سر القسوة والأحقاد والمظالم التي اقترفت ايام الثورات السياسية والدينية الكبيرة ولا سيما ايام الاصلاح الديني

والثورة الفرنسية •

تظل بعض أدوار تاريخنا سراً من الأسرار الخفية اذا غاب
عن بالنا منشأ المعتقدات العاطفي والديني وعدم تسامحها الضروري
واستحالة التوفيق بينها عند المواجهة ثم ما تنعم به المعتقدات الدينية
على المشاعر المسخرة لخدمتها من القوة •

ان المباديء المذكورة حديثة العهد بعيدة عن تغير نفسية
المؤرخين الذين سوف يستمرون على القول بأن كثيراً من الحوادث
صادر عن المنطق العقلي، ومع ان الاصلاح الديني الذي قلب فرنسا
مدة خمسين سنة وما اشبهه من الجوادث لم يكن ناشئاً عن عوامل
عقلية فان اكثر المؤلفات حدثاً لا تزال تغزو هذه الوقائع الى العقل
ومن هذا القبيل الايضاح الآتي الذي اوضح به الموسيولا فيس
والموسيويو رامبو الاصلاح الديني في كتابهما المسمى بالتاريخ
العام :

« انه لحركة غريزية تولدت في نفس القوم من مطالعة الانجيل
ومن تأملات ذاتية اورثها قلوب البسطاء شعور تلقى وعقل مقدم »
والحقيقة هي غير ما زعم هذان المؤرخان فمثل هذه الحركات
ليست غريزية أبداً وليس للعقل اي تأثير في نضوجها، ولم تخرج
المعتقدات السياسية والدينية التي قلبت العالم الا من عناصر المشاعر

والتدين وليس العقل بموجد لها ولا بمحول ايها .

ان مصدر المعتقدات سياسية كانت ام دينية لمشترك وتخضع الى قوانين واحدة ولم يتم تكوينها بالعقل وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل ، فالبودية والاسلام والاصلاح الديني واليعقوبية والاشتراكية وان ظهرت بشكل فكري بارز فهي في الحقيقة قائمة على عواطف وتدينلت متماثلة وتخضع لأحكام منطق لا قرابة بينه وبين المنطق العقلي .

تنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت في النفوس ولكنها قد تنشأ عن اسباب كثيرة أخرى تجمعها كلمة الاستياء ، فمتى يعم هذا الاستياء يتألف حزب قادر على مكافحة الحكومة .

يقتضي ان يتراكم الاستياء ليكون ذا نتائج ، ولهذا فان الثورة ليست في كل وقت عبارة عن حادثة لا تلبث ان تنتهي حتى تعقبها ثورة أخرى بل هي حادثة مستمرة اسرعت في تطورها قليلا ، على ان جميع الثورات الحديثة وقعت بغتة وواجبت فجأة انقلاب الحكومات كالثورة البرازيلية والبرتغالية والتركية والصينية .

وعندنا ان الأمم كثيرة المحافظة هي التي تأتي بأشد الثورات خلافاً لما يظن البعض ، لأنها لما كانت محافظة غير متطورة ببطء
X لتلتأم مع تقلبات البيئات فأنها ترغم على الانسجام معها بغتة عند ما تصبح

الشقة بين الطرفين عظيمة جداً ومن هذا التطور الفجائي تتألف الثورة •

لا تفر كل حين الأمم التي تلتأم بالتدريج مع تقلبات البيئات من الوقوع في الثورات ، فلم ينجح الانكليز عام ١٦٨٨ في إنهاء النزاع الذي استمر عصباً كاملاً بين العرش الذي ودان يكون طاقاً وبين الشعب الذي سعى ان يكون محكوماً لنوابه الا بالثورة وخوفاً الأمة لاعوامها هم الذين يبدأون بالثورات في الغالب ولكن الثورات تستمد قوتها من الشعب عند ما يهيج • ومن الأمور الظاهرة ان الثورات لا تتم الا إذا دعمها فريق كبير من الجيش ، فلم تأفل الملكية في فرنسا يوم قطع رأس لويس السادس عشر بل يوم امتنع جنده الجموح عن الدفاع عنه •

وتزول المحبة عادة بالعدوى النفسية من قلب الجيوش التي لا تكترث لسير الأمور الا قليلاً فعند ما استطاع بضعة ضباط ان يقلبوا الحكومة التركية فكر الضباط اليونانيون في تقليد هم بتغيير الحكومة مع انه لا يوجد اى شبه بين النظامين •

قد يمكن تغيير الحكومة بحركة عسكرية — وذلك كما يقع في الجمهر ريات الاسبانية — ولكن مثل هذه الثورات لا تكون ذات نتائج عظيمة الا إذا صدرت عن استياء عام وآمال كبيرة ،

والاستياء اذا لم يكن عاماً شديداً فانه لا يكفي لا أحداث الثورات
فمن الأمور السهلة ان تحرض شرذمة من الناس على النهب والهدم
والقتل ولكنه يجب في تحريك جميع الأمة او أكثريتها ان
يبالغ الزعماء في تهويل الاستياء وان يقنعوا الساخطين بأن الحكومة
هي سبب جميع الحوادث المكدره ولا سيما العوز والغلاء وان عصر
السعادة سينبثق من خلال النظام الجديد الذي يقترحونه تتأصل
هذه الأفكار في النفوس وتنتشر بالتلقين والعدوى فيحل الوقت
الذي تنضج فيه الثورة .

على هذه الصورة تهيأت الثورة المسيحية والثورة الفرنسية
وإذا كانت الأخيرة وقعت في اعوام قليلة وتطلب وقوع الأولى
اعواماً كثيرة فذلك لأن الثورة الفرنسية لم تلبث ان دعمها
الجيش مع ان الثورة المسيحية لم تنل قوة مادية الا بعد زمن طويل،
والاصغر والسفلة والعبدان هم الذين كانوا في البداية أنصارها ، وهنا
سمرت العدوى من العوام الى الخواص ثم أنتشر هذا المذهب بين
علية القوم ، وبعد أن مضى زمن طويل رأى احد الأمبراطرة ان
الوقت الذي يتخذ فيه الايمان الجديد ديناً رسمياً قد حان .

٤ - نتائج الثورات السياسية

عندما يتغلب حزب من الاحزاب يسعى في تنظيم المجتمع كما

تتضمنه مصالحه ، ويختلف هذا التنظيم باختلاف القائلين بالثورة
فيكون إما عسكرياً أو محافظاً أو متطرفاً ، وتسن القوانين والأنظمة
الجديدة بحسب منافع الحزب الغالب والطبقات التي تساعد على
الزلية كطبقة الكليروس مثلاً . وبعد ان يتم النصر للغالبين بعد
مصارعات عنيفة — وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنسية — فإنهم
يقوضون بنيان الحقوق القديمة دفعة واحدة ويضطهدون انصار
النظام الساقط ويخرجونهم من ديارهم ويبيدوهم .

ويبلغ التعذيب منهياً اذا كان الحزب الغالب يدافع عن معتقد
عدا دفاعه عن منافعه المادية فلا تشمل المغلوب حينئذ رحمة وهذا هو
سر إجلاء العرب من الاندلس وقضاء محكمة التفتيش على الخوارج
بالحرق وكثرة الحكم بالقتل في دور العهد ومن القوانين الحديثة
ضد اليسوعيين .

تسوق هذه القوة المطلقة الغالب أحياناً الى القيام باعمال جائرة
فيأمر ان يقوم الورق مقام الذهب وان تباع السلع بأثمان يحددها
حسب ما يرى ، إلا أنه لا يلبث ان يصطدم بحسن الضرورات المقدر
الذي يحول الراى العام ضد استبداده ويجعله أعزل أمام الغارات
وذلك كما حدث في أواخر الثورة الفرنسية وكما حصل لوزارة
اشتراكية أسترالية مركبة من العمال . وضعت هذه الوزارة قوانين

عقيدة ومنحت المنتسبين الى النقابات امتيازات اوجبت قيام الرأي العام ضدها فسقطت في ثلاثة اشهر .

والأحوال المذكورة استثنائية فأكثر الثورات وقعت ليجلس على العرش ملك جديد . يعلم هذا الملك ان استمرار حكمه لا يكون بتقديمه طبقة على الأخرى بل يتوقف على اجتذاب جميع الطبقات ولا ينال ذلك إلا إذا وازن بينها لكيلا تتغلب عليه إحداها فإذا ساعد على تفوق طبقة دون الأخرى فإن هذه الطبقة لا تلبث ان تصبح سيدة عليه ، وهذه سنة من أصح سنن روح السياسة ، وقد علم بها ملوك فرنسا عندما كانوا يكافون تطاول الأشراف في البداية ثم الأكليروس من بعدهم ، ولولا ذلك لكان نصيبهم كنصيب امبراطرة الألمان في القرون الوسطى الذين كانوا يضطرون ، كما فعل الامبراطور هنري الرابع ، الى زيارة البوابات ليطالبوا العفو والمغفرة بتدلل وقمنا كانوا يحرمونهم .

وقد ثبتت صحة هذه السنة في جميع ادوار التاريخ فعندما تفوقت طبقة الجند في اواخر الدولة الرومانية أصبح الامبراطرة X تحت إمرة جنودهم فصار هؤلاء يرفعونهم على العرش او ينزلونهم حسبما يريدون .

إذا فمن حفظ فرنسا الحسن ان ظل على رأسها زمناً طويلاً ملوك

مطلقون مدعون أن سلطانهم مستمد من الله ، ولولا هذا السلطان
لما استطاعوا ان يقبضوا على زمام الأشراف والأكليروس والبرلمان
ولو كان على رأس بولونيا في أواخر القرن السادس عشر ملوك
مطلقون محترمون مثل ملوك فرنسا لما هبطت الى منحدر الانقراض
الذي اوجد غيابها عن خارطة اوروبا .

بينما في هذا الفصل ان من الممكنات ان ينشأ عن الثورات
السياسية انقلابات اجتماعية عظيمة الشأن وسرى عما قليل ان هذه
الانقلابات ضعيفة إذا قيس بينها وبين ما ينشأ عن الثورات الدينية
من الانقلابات



الفصل الثاني

— الثورات الدينية —

١ — في أن البحث عن الثورات الدينية ينفع
في الوقوف على الثورات السياسية الكبيرة

سنخصص جزءاً من هذا الكتاب للبحث عن الثورة الفرنسية
الحافلة بمظالم ناشئة عن اسباب نفسية .

ان هذه الحوادث المستثناة تفعم القلوب حيرة وتلوح للناظر
أنها غامضة غير ممكن ايضاحها ، على أن ادراكها يكون ممكناً إذا
اعتبرنا الثورة الفرنسية ديناً جديداً تابعاً لنواميس انتشار جميع
المعتقدات ، إذ يسهل وقتئذ الوقوف على سر ما اقترف فيها من القسوة
والذبح .

سوف نرى عندما نبحث عن ثورة الاصلاح الديني الكبرى
ان ماشوهد في أيامها من الاحوال النفسية شوهد مثله في أيام الثورة
الفرنساوية فقد لوحظ في هاتين الثورتين أن شأن العقل ضئيل في
انتشار المعتقد وأن الاضطهادات عديمة التأثير وأن التسامح بين
المعتقدات المتباينة مستحيل وان اشد القساوات والملاحم تصدر عن
تصادم العقائد المختلفة وانه يستحيل تحويل الناس عن عقيدتهم قبل

تحويل كيانههم •

وبعد ان يثبت عندنا جميع ذلك ندرك علة انتشار انجيل الثورة
الفرنساوية على الطرق التي انتشرت بها جميع الاناجيل الدينية
الاخري ولا سيما انجيل (كالفان) •

واذا وجد شبه شديد بين تكوين الثورات الدينية كثورة
الاصلاح الديني وبين تكوين الثورات السياسية كالثورة الفرنسية
فانه يوجد فرق ظاهر بين نتائجهما، وهذا يوضح لنا السرفي تفاوت
دوامها • لا يوجد في الثورات الدينية اية تجربة تثبت للمؤمنين
انهم ضالون لأن ذلك يستدعي اطلاعهم على مافي اللوح المحفوظ
واما الثورات السياسية فان التجربة لا تلبث ان تثبت مافي المذاهب
السياسية من الخطأ والضلال فيضطر الناس حينئذ الى تركها • على
هذه الصورة اضطر اشد اليعاقة تعصباً الى العدول عن طريقهم
عند مارأوا في أواخر عهد (الديركتوار) ان تطبيق المعتقدات
اليعقوبية اوجب اشراف فرنسا على الخراب والشقاء والقنوط ولم
يدم من نظرياتهم سوى بضعة مبادئ يصعب تحقيق أمرها بالتجربة
كمبدأ السعادة العامة القائل بأن المساواة هي أساس السعادة بين
الناس •

٢ - أوائل الإصلاح الديني وانصاره الاؤلون

انتهت ثورة الإصلاح الديني بعد تأثيرها كثيراً في عواطف الناس ومبادئهم الأدبية وهذه الثورة الصغيرة الشأن في بدايتها كانت عبارة عن توجيه سهام النقد ضد سوء تصرف الأكليروس وعن دعوة الناس للعودة الى العمل بما تقتضيه نصوص الانجيل لا كما يدعون بأنها رمت الى حرية الفكر ، فكان كالفان عديم التسامح كرويسبير وكان النظر يون وقتئذ يقولون بأنه يجب على الرعية أن تتدين بدين ملوكها ، وهذا ما وقع فعلاً في جميع الممالك التي عموها الإصلاح الديني حل الملوك مكان البابا حقواً وسلطاناً.

انتشر الايمان الجديد ببطء في فرنسا بادى الأمر لعدم علانيته ووقدان وسائل إذاعته فلم ينضم الى لوثر حوالى عام ١٥٢٠ سوى بضعة اشخاص ولكن لما كثر انصاره حوالى عام ١٥٣٥ رؤي أن احراقهم امر ضرورى .

سهل الاضطهاد انتشار الإصلاح الديني تبعاً للسنة النفسية المعروفة وكان أول المؤمنين به القساوسة والقضاة واهل الحرف وقد تم اهداء جميعهم بالعدوى النفسية والتلقين .

ومن الشهود أنه عندما يشيع معتقد جديد بين الناس يلتفت حوله رجال لا يهمهم من أمره سوى أنهم يزول فيه وسيلة لارضاء

شهواتهم ورغائبهم ، وقد لوحظ ذلك أيام الإصلاح الديني في بلدان كثيرة ولا سيما في ألمانيا وانكلترا ، فلما قال لوثر ان لا حاجة للاكليروس في المال وجد امراء ألمانيا ان ديناً يعدهم بالاستيلاء على أموال الكنيسة لدين طيب نافع ، وعلى مثل هذه الطريقة اغتنى هنري الثامن .

وفي الغالب لا ينظر الملوك — الذين سئموا من البابوات — الى مذهب يجمع في قبضتهم السلطة الدينية والسلطة السياسية معاً الا بعين الرضى ، ولهذا فان الإصلاح الديني لم يقلل من استبداد الرؤساء بل زاده .

٣ — فيما لمذاهب الإصلاح الديني من القيمة العقلية

قلب الإصلاح الديني اوروبا وكاد يدمر فرنسا بتحويله اياها مدة خمسين عاماً الى ساحة حرب ، وما أتى به من النتائج العظيمة لم يأت بمثلاً اي حادث يعادله من حيث قلة قيمته العقلية .
ان الأدلة الدالة على ان المعتقدات تنتشر مستقلة عن العقل كثيرة وما أقام النفوس واقعدها من المذاهب اللاهوتية أيام الإصلاح الديني ولا سيما مذهب كالفان لا يستحق ان يبحث عنه من جهة المنطق العقلي .

فلوثر الذي غني بأمر سعادته الابدية وخاف من الشيطان

خوفاً لم يقدر كاهنه المعرف على إزالته كان يبحث عن انجع الوسائل
التي يسترضي بها الله ليتقي جحيمه ، وبعد ان شرع بانكار حق البابا
في بيع المغفرة رفض ماله ولكنيسة من السلطان رفضاً تاماً وأحجى
على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين باللائمة وصرح
بأنه لا يجوز للنصارى ان يتبعوا غير ما جاء في التوراة من التواعد
وعدا ذلك فقد اعتبر أن النجاة الأبدية لا تكون الا بفضل الله
وكرمه . ولم يحدد لوثر هذه النظرية الأخيرة المسماة بنظرية
المشيئة الأزلية تحديداً تاماً وقد عرفها كالفان أكثر منه فجعلها أساساً
لمذهب لايزال أكثر البروتستانت تابعين له ، وعنده « ان الله اختار
من الأزل اناساً للاحراق وآخرين للنجاة » وكان جوابه وقته
سئل عن علة هذا الظلم الفادح « ان الله اراد ذلك » . وهكذا
رأى كالفان — الذي لم يفعل سوى ايضاح مزاعم القديس
اوغوستان — ان الله القادر على كل شيء يلتهى بخلق اناس ليكونوا
خالدين في النار غير مبال بافعالهم وفضائلهم . ومما يوجب العجب
ان تستولي هذه الغباوة الفكرية على النفوس زماناً طويلاً وان تظل
مستحوذة على كثير من الناس حتى الآن .

يوجد شبه بين نفسية كالفان وروبيشير فكان الأول كالثاني
استاذاً غير متردد في قتل من لم يكن على مذهبه ، وكان يقول

« ان الله يريد ان تطرح الرافقة والانسانية جانباً عند الجهاد في سبيله »
 ونستدل من حالة كالفان وانصاره ان اكثر الامور تناقضاً تلتام في
 ادمغة المسحورين بمعتقد ، فيستحيل من حيث المنطق العقلي ان تثبت
 اخلاق على مبدأ « المشيئة الازلية » لان الناس حسبما تقتضيه هذه
 النظرية إما ناجون او معذبون مهما كانت افعالهم ، ومع ذلك فان
 كالفان لم يلق صعوبة في ابداع اخلاق قوية قائمة على اساس غير
 منطقي ، ولما عدا اشباعه انفسهم من الاصفياء المختارين عند الله بلغت
 فيهم العجرفة والكبرياء مبلغاً جعلهم يرون انفسهم قدوة صالحة .

٤ - انتشار الاصلاح الديني

لم ينتشر هذا الايمان بالخطب والبراهين العقلية بل بالعناصر
 التي بحشنا عنها في كتابنا السابق اى بالتوكيد والتكرار والعدوى
النفسية والنفوذ وقد انتشرت الافكار الثورية بعد ذلك في فرنسا
 على هذه الطريقة ايضاً .

ساعد الاضطهاد على هذا الانتشار إذ تسبب عن كل قتل اعتناق
 للمذهب الجديد فسار اندنبرغ القاضي المحكوم عليه بالاحراق الى
 الموقد وهو يحث الجماعة على الاهتداء ، وقد قال احد الرواة ان
 جلده وصبره اوجب ازدياد عدد البروتستانت بين طلاب المدارس
 اكثر من كتب كالفان .

كانت تقطع السنة المحكوم عليهم بالحرق خوفاً من مخاطبة القوم
وقد زاد التعذيب هولاً تقييد الضحايا بسلاسل من حديد لادخالهم
في الموقد واخراجهم منه مرات عديدة

وكل ذلك لم يثن البروتستان عن مذهبيهم الجديد مع انهم كانوا
يوعدون بالعفو بعد ان تمسهم النار .

ولما عدل فرنسوا الأول عن تسامحه عام ١٥٣٥ أسر باضرام
سته موقد في باريس وقد اكتفى رجال العهد بمقصلة واحدة في
هذه المدينة كما هو معلوم ، ويحتمل ان العذاب ليس عند المؤمنين
اليماً إذ شوهد عدم شعور شهداء المسيحية به لتنويمه اياهم ، ومن
المسائل المعروفة في الوقت الحاضر ان بعض طرق التنويم تبطل
الاحساس تماماً .

كان انتشار ذلك الايمان سريعاً فأصلحت عام ١٥٦٠ في فرنسا
٢٠٠٠ كنيسة واعتنقه كثير من الأمراء الذين كانوا في بادئ الامر
لا يبالون به الا قليلاً .

• - في تصادم المعتقدات الدينية

وفي استحالة التسامح

ذكرت مراراً ان عدم التسامح يلزم المعتقدات القوية
والثورات الدينية والسياسية الدالة على ذلك كثيرة . اثبتت هذه

الثورات ان عدم التسامح بين انصار المعتقدات المتقاربة يكون اشد منه بين انصار المعتقدات المتباعدة كالاسلام والنصرانية مثلاً ، فإذا نظرنا الى المعتقدات التي شطرت فرنسا زمناً طويلاً نرى انها لا يختلف بعضها عن بعض الا في الأمور الثانوية ، فآله الكاثوليكي والبروتستاني واحد ولا يختلفان الا في كيفية عبادته ، ولو كان للعقل شأن ولو ضئيل في صوغ معتقدهما لاراهما ان الله لا يبالى بالصورة التي يعبد بها .

ولما كان العقل غير مؤثر في دماغ المؤمنين استمر البروتستان والكاثوليك على الاقتتال بقسوة وما أتى به الملوك من السعي في التآليف بينهما ذهب ادراج الرياح ، وقد ذهب عن بال (كاترينا دوميسيس) ان التسامح وان امكن بين الافراد فانه لا يكون بين الجموع ، فعند ما جمعت علماء الكلام خاضوا غمار النصوص والمشاتم من دون ان يزعج احد منهم عن عقيدته ، ثم رأت عام ١٥٦٢ ان نشرها مرسومًا تمنح البروتستان فيه حق الاجتماع والعبادة جهرًا اقرب الى النجاح .

لم يأت هذا التسامح الحسن فلسفيًا والسعي سياسيًا بغير ايغار صدر الحزبين فاضطهد البروتستان الاقوياء في جنوب فرنسا الكاثوليك وسعوا في تحويلهم عن عقيدتهم قهراً وكانوا يذبجونهم

في فرنسا هو أمر لم يصبر عليه كهنة الكاثوليك اخذوا في اضطهادهم
فاعتمد لويس الرابع عشر عام ١٦٨٥ على فرسانه في قتل كثير منهم
والالم يجد ذلك نفعاً ضغط عليه الاكليروس ولا سيما (بوسويه)
فألغى مرسوم (نانت) وارغم البروتستان إما على تبديل مذهبهم او على
ترك بلاد فرنسا

استمرت هذه الهجرة طويلاً وخسرت فرنسا من أجليها
اربعمئة ألف رجل كريم اصغوا الى نداء ضميرهم اكثر من إصغائهم
الى منافعهم الذاتية •

٦ - نتائج الثورات الدينية

يعتبر المرء الثورات الدينية أمراً سيئاً إذا ظن أن تاريخها يشبه
تاريخ ثورة الاصلاح الديني ، والواقع ان شأنها كلها ليس كذلك فقد
كان تأثير الكثير منها في تهذيب الناس وتقويم نفوسهم عظيماً
جداً ، إذ هي بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد في قوته المادية كثيراً
وقد شوهد ذلك لما حول محمد (صلى الله عليه وسلم) بما أتى به من
الايان قبائل العرب الضعيفة الى أمة محيضة •

وليس أمر المعتقد الديني الجديد مقتصراً على جعل الأمة
متجانسة بل يأتي بما يتعذر على أي فيلسوف او قانون ان يأتي بمثله
اي أنه يغير عواطف الأمة الثابتة •

لقد لوحظ ذلك وقتما قضت أكبر ثورة تاريخية على الوثنية
وأقامت مكانها عبادة إله جاء من سهول بلاد الجليل • دعى هذا
الخيال الجديد الناس الى العدول عن كل نعيم في هذه الحياة ليكونوا
خالدين في ملكوت السموات ، نعم انه لما يقبله بسهولة الارقاء
والبائسون والمحرومون من طيب العيش لوعده إياهم بمستقبل جاذب
بدلاً عن حياة بلا أمل ، إلا ان حياة الزهد والتقشف التي هانت
على الفقراء هانت أيضاً على الأغنياء ، وهذا يثبت لنا ما لا يؤمن
الجديد من السلطان على النفوس •

لم تقتصر الثورة النصرانية على تحويل العادات بل أثرت تأثيراً
عظيماً في سير الحضارة مدة التي سنة ، إذ متى يتم النصر المعتقد ديني
تلتأم معه جميع عناصر الحضارة التآما ينشأ عنه تحويلها ولا يفعل
الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذٍ غير الإشارة الى
ذلك المعتقد الجديد في تأليفهم •

وعند ما ينتصر الأيمان سواء اكان دينياً ام سياسياً فإن العقل
لا يؤثر فيه ويجد دائماً عللاً لتركه بها ، ولربما كان ايام (مولوخ)
خطباء وعلماء كلام يثبتون ما في القرايين البشرية من الفوائد كعدد
من ظهر في الأزمنة الأخرى من الخطباء وعلماء الكلام ليمجدوا
محاكم التفتيش وملحمة السان بارتلمي ومذابح دور العهد

لايسود التسامح عند الأمم ذات المعتقدات القوية فالأمم
المشركة هي التي كانت متساهلة في القرون القديمة وكذلك نرى في
العصور الأخيرة ان الأمم المتسامحة هي التي يمكن نعتها بأمم ذات
ارباب متعددة، فهي كالانكليز والاميركيين مقسومة الى فرق دينية
كثيرة وتعبد آلهة مختلفة مسماة بأسماء واحدة. إلا أن تعدد المعتقدات
الموجب لتسامحها ينتهي أمره باضعافها، وهنا نرى أنفسنا أزاء مسألة
نفسية لم تحل حتى الآن وهي: حيازة معتقد قوي ومتسامح معاً.

ظهر لنا من البيان الوجيز السابق ما للثورات الدينية من الشأن
العظيم وما للمعتقدات من السلطان الكبير على النفوس فهي التي
تقود التاريخ رغم قلة قيمتها العقلية وهي التي تقي الأمم من أن
تكون اشخاصاً ضعفاء لا تربطهم اية رابطة وقد احتاج الانسان اليها
في كل جيل ليوجه افكاره نحو مطلب وما استطاعت اية فلسفة ان
تحل مكانها حتى الآن.



الفصل الثالث

شأن الحكومات في الثورات

١ - ضعف مقاومة الحكومات في الثورات

عانى كثير من الأمم الحديثة كفرنسا واسبانيا وبلجيكا وإيطاليا والنمسا وبولونيا واليابان وتركيا والبرتغال أمر الثورات • وتوصف هذه الثورات في الغالب بحدوثها فجأة وبسهولة قلبها الحكومات التي قامت ضدها •

وسبب حدوثها فجأة هو سرعة العدوى النفسية الناشئة عن طرق النشر والاذاعة في الوقت الحاضر، ومما يستوجب العجب ضعف مقاومة الحكومات إذ يدل على عجزها التام عن الاطلاع على دخائل الأمور وكشف عواقبها •

لم يكن اسقاط الحكومات بسهولة أمراً حديثاً فقد شوهد أكثر من مرة ان حكومات قلبت بسهولة منذ زمن بعيد ومنها ما هي استبدادية اسقطتها موآرات البلاط الملكي ومنها ما هي مطمعة على الرأي العام بواسطة الصحافة وبواسطة موظفيها •

ومن الأمثلة البارزة على هذا السقوط الفجائي ما وقع بعد

نشر مراسيم شارل العاشر الذي خلع في اربعة أيام كما هو معلوم . لم يتخذ وزيره (بولينياك) اية وسيلة للدفاع عنه وقد بلغ اعتقاد الملك بهدؤ باريس مبلغاً جعله يذهب للصيد ، ولم يكن الجيش غير راضٍ عنه كما في أيام لويس السادس عشر إلا أن قيادته كانت سيئة ولذلك تشتت أمام غارات عصاة قليلين .

واسقاط ثورة صغيرة للويس فيليب ادعى للعجب لأنه لم ينشأ عن استبداد قام به . عزى المؤرخون — الذين لا يقولون بان من الممكنات ان يتم سقوط حكومة منظمة يدعمها جيش كبير على يد نفر من العصاة — سقوط لويس فيليب الى اسباب عميقة ، وعندنا ان عجز قواده عن الدفاع عنه قد أوجد سقوطه .

وان هذا الحادث لمن اكبر الأمثلة فائدة ، إذ وجد في باريس جيش مركب من ٣٦.٠٠٠ مقاتل اوجب عجز القادة وضعفهم عدم الاتفاع به ، فلما اكثروا من الأوامر المتناقضة ونهوا الجيش عن ضرب القوم اختلطت الجموع بالجنود قتم النصر للثورة من غير كفاح واضطر الملك الى التنزل عن العرش .

اشار الجنرال بونال — بتطبيقه الجائنا في روح الجماعات على الحادث المذكور — الى انه كان من الممكن اخماد الفتنة التي اوجبت سقوط لويس فيليب فيمن انه لو بقي شيء في رؤوس القواد من

العقل لاستطاعت ثلثة من الجيش ان تردع العصاة عن الاستيلاء على مجلس النواب ولنادى هؤلاء النواب الذين كانوا من انصار الملكية بـ (كونت دوباري) ملكاً ولجعلوا أمه نائبة عنه .

يثبت لنا ذلك ما للعوارض الصغيرة الثانوية من الشأن في تكوين الحوادث العظيمة ويجعلنا ان لا نطلب في بيان سنن التاريخ العامة ، فلولا الفتنة الصغيرة التي اسقطت لويس فيليب لما قامت الجمهورية عام ١٨٤٨ ولا الامبراطورية الثانية ولما حدثت واقعة (سيدان) ولما أغار الاجنبي ولما أضغنا الأزراس على ما يحتمل .

لم يمد الجيش في الثورات التي ذكرتها يد المعونة للحكومات ولم يقم بوجهها ، وربما وقع خلاف ذلك فالجيش هو الذي قام بالثورات في البرتغال وتركيا وعلى يده تتم الثورات العديدة في الجمهوريات اللاتينية الأميركية .

وإذا أتى الجيش بالثورة يقع القائمون بأمور الدولة تحت إمرته وقد وقع ذلك في أواخر الدولة الرومانية عند ما كان الجنود هم الذين يسقطون الامبراطرة .

لا تتم الثورة بغير معاضدة الجيش او بمحايدته على القليل غير أنها تبدأ في الغالب من غير ان يكون له دخل فيها ، فهكذا اشتملت ثورة عام ١٨٣٠ و ثورة عام ١٨٤٨ ثم ثورة عام ١٨٧٠ التي قلبت

الامبراطورية عند ما أحسّ الناس في فرنسا بالعمار الذي لحقهم من
جلاء تسليم مدينة (سيدان) .

تقع أكثر الثورات في العواصم ومنها تنتشر بالعدوى في جميع
البلاد ولكن ذلك ليس بقاعدة ثابتة فمن الأمور المعلوم أن أهل
(فانده) و [بريتانيا] والقسم الجنوبي قد ثأروا بغريزتهم باريش
أيام الثورة الفرنسية الكبرى .

٢ - كيف تؤدي مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات

ظهر لنا من أكثر الثورات التي ذكرناها سابقاً ان الحكومات
تتدهور لضعفها عند ماتس ، غير أن الثورة الروسية السابقة اثبتت
لنا إمكان تمام النصر للحكومة إذا دافعت عن نفسها بصرامة .

لم توجد ثورة أكثر خطراً على أية حكومة من هذه الثورة
فبعد ما كسرت روسيا في الشرق الأقصى واحس الناس بشدة
النظام الاستبدادي تمردت جميع الطبقات الاجتماعية ومنها جزؤ من
الجيش والاسطول واعتصب موظفوا الخطوط الحديدية والبريد
والبرق فانقطعت وسائل النقل والمراسلة بين اجزاء تلك
الامبراطورية العظيمة .

ثم اخذت الدعوة الثورية تشيع بين طبقة الفلاحين الذين هم
أكثرية الأمة الروسية ، كان هؤلاء يعيشون عيشة بؤس وشقاء

لأكرههم — كما يقتضيه نظام (مير) — على الفلاحة من غير ان تكون الغاة لهم فغزمت الحكومة على إرضائهم بتحويلهم الى ملاك فوضت توانين أرغمت بهاسادتهم على بيعهم جزءاً من اطيانهم وانشأت مصارف لتقرضهم مالاً يؤدون به ثمن مايشترونه من الاطيان على ان تؤدى المبالغ المقرضة اقساطاً سنوية من المحاصيل .

استطاعت الحكومة الروسية بعد ان حصلت بهذه الطريقة على محايدة الفلاحين ان تقاتل بلا رحمة العصاة المتعصبين الذين كانوا يحرقون المدن ويلقون القبائل بين الجماعات فأبادت من قبضت عليه سائرة على السنة المتبعة منذ القديم لحفظ المجتمع من الثائرين الذين يودون نقضه .

ثم شرعت الحكومة الروسية التي خرجت من هذه المعامع ظافرة بضرورة إجابة فريق الأمة المذهب الى مطالبه المشروعة فلوجدت مجلساً تشريعياً يسن القوانين ويراقب النفقات

يثبت لنا تاريخ الثورة الروسية كيف أن حكومة تداعت جميع اركانها الطبيعية قد استطاعت بثباتها ودرايتها ان تغلب على اشد المضاعب ، ولذلك اصاب من قال : « ان الحكومات لا تُقلب بل هي تتحجر » .

*

* *

٣ - ثورات الحكومات

مثال تركيا والصين . . . الخ

تقاتل الحكومات الثورات عادة ولا تأتي بها غير ان بعض الحكومات حاولت ان تقوم باصلاحات فجائية جديدة بان تدعى بالثورات وما اتصفت به الروح القومية من الثبات او التقلب يوضح لنا سبب نجاح هذه الحكومات او فشلها في مساعيها .

تنجح الحكومة عندما تكون الأمة التي تود ان تلزمها بنظمات جديدة عبارة عن قبائل متوحشة ليس عندها قوانين ثابتة وتاليد راسخة اي خالية من روح قومية قوية ، مثال ذلك روسيا في عصر بطرس الأكبر الذي حاول ان يفرنح الروس المشابهين للآسيويين .

واليابان مثال آخر للثورات التي قامت بها الحكومات ولكن

طريقها الفنية هي التي تغيرت لا روحها القومية .

ويتطلب النجاح في تلك المساعي وجود ملك مستبد قوي ذي دهاء مضاعف ، لان الملك المصلح يرى جميع الامم قامت في وجهه فيكون وقتئذ هو الثوري وهي المحافظة خلافاً لما يقع عادة . ان الفشل في تلك الثورات هو القاعدة سواء كان القائمون بها من علية القوم او من سفلتهم ، فروح الأمة الراسخة منذ زمن

طويل لا يتبدل وانما التي تتحول هي أمور ابلاها الزمان واصبحت
على اهبة السقوط .

قامت الصين في الوقت الحاضر بتجربة دلتنا على انه من
المستحيل ان تجدد حكومة نظمات الامة فجأة ، فالثورة التي اشتعلت
فيها واسقطت العائلة المالكة هي نتيجة استياء الشعب من الاصلاحات
التي ارادت الحكومة الصينية ان تلزمه بها لتحسن حالة البلاد ، وقد
اوجب تحريم الافيون ولعب القمار واصلاح الجيش وفتح المدارس
فيها ان زيدت الضرائب تريداً اقلق الراي العام كالاصلاحات
ذاتها .

فاستفاد من هذا السخط بضعة صينيين درسوا في المدارس
الاوروبية فخرضوا الشعب على الثورة ليعلم النظام الجمهوري الذي
لا يفقه اي صيني من أمره شيئاً .

ولا يستطيع ان يدوم طويلاً لان الباعث الذي اوجده لم
يكن باعث تقدم بل باعثار جعياً ، فكلمة جمهورية عند الصينيين الذي
تخرج على الطريقة الاوروبية هي مرادفة لكلمة التحرير من
المنوع للقوانين والانظمة ومن سلطان التقاليد ، وهو يظن
بقصه ضيقه وبوضعه خوزة على رأسه وبمبادئه بالجمهورية انه
يستطيع ان يرخي لشهوات نفسه أعنتها .

وسترى الصين قريباً ماذا يكون أسر بنيانها الجديد الذي لم
يقم على أساسات الماضي، ولما كان العلم لم يكتشف بعد عصا السحر
القادر على إبقاء مجتمع بلا نظام فستضطر الصين بعد أن تفوض
بضع سنين في بحار الفوضى الدامية إلى الاعتصام بسلطة مستبدة
أشد من السلطة التي قلبتها، إذ لا حاجة لألزام الناس بالنظام إذا
كان إرثياً وأما إذا هدمت الشهوات الأنظمة التي أقامها الأجداد
فلا يتجدد بناؤها إلا باستبداد صارم.

وقامت تركيا أخيراً كالصين بتجربة يمكن أن تكون دليلاً على
صحة ما بيناه، فقد استطاع منذ بضعة أعوام شبان درسوا في مدارس
أوروبية أن يخلعوا السلطان الذي أصبح استبداده لا يطاق وأعانهم
على ذلك كثير من الضباط ظانين بأنهم قادرون على تأسيس نظام
نيابي في بلاد متأخرة ذات أديان مختلفة مثل بلادهم.

لم يقوموا حتى الآن بعمل مشكور فقد رأوا — رغم تمذهبهم
بالحرية — أنهم مضطرون إلى حكم البلاد بأساليب قديمة من أساليب
العهد الذي قضوا عليه.

ولا يجوز أن يلاموا على ذلك، فإذا يفعلون في تحويل أمة
ذات تقاليد قديمة راسخة وذات عواطف دينية قوية؟ وكيف يمكن
أن لا يبقى الإسلام دين الدولة الرسمي في بلاد اتحد فيها الشرع

المدني مع الشرع الديني وقام فيها المبدأ الوطني على الايمان بالقرآن؟
انه ليسعبد هدم ذلك ، ولهذا رجعت تركيا الى نظام استبدادي
ذو مسحة دستورية كنظامها السابق .

ومن مثل هذه التجارب يتكون مثال بارز يستشهد به في
القول بانه يستحيل على الامة ان تختار نظاماتها قبل ان تغير
روحها .

٤ - في مايقى من العناصر الاجتماعية بعد أن

نقلب الثورات الحكومات

ان ماسنقوله عن رسوخ الروح القومية يطلعنا على ما للنظامات
التي تأسست منذ زمن بعيد من القوة كنظام الملكية السابق ، يسهل
على المتأمرين ان يخلعوا الملك ولكنهم يعجزون عن فعل شيء
إزاء المبادئ التي يمثلها الملك ، فلما سقط نابليون لم يحل مكانه وارثه
الطبيعي الممثل لمبادئ غير ثابتة في النفوس بل ورثه ابن الملوك
الممثل لمبدأ قديم .

ولمثل هذا السبب نرى ان الوزير مهما كان ماهراً ومهما خدم
بلاده لا يستطيع ان يخلع ملكه الا نادراً ، ولو أراد بسمارك فعل
ذلك لما استطاع ، مع انه كفى لاسقاط هذا الوزير الكبير الذي صنع
الوحدة الألمانية وحده اشارة صغيرة من سيده .

على أننا إذا فرضنا أنه يوجد اسباب مختلفة اوجبت تلاشي الحكومة مع تلاشي المبدأ الذي تمثله — وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنسية — فان جميع العناصر التي يتكون منها نظام المجتمع لا تزول في الوقت ذاته ، فلو اقتصر مانعلمه عن فرنسا على ما وقع فيها من الانقلابات منذ عصر لقلنا انها عائشة في فوضى عميقة ، والواقع انها تبدو للناظر ذات حياة اقتصادية وصناعية وسياسية مستمرة مستقلة عن جميع الانقلابات وجميع الأنظمة .

يوجد بجانب الحوادث العظيمة التي يهتم لها التاريخ امور صغيرة خاصة بالحياة اليومية ولا تعبأ الكتب بذكرها وهي تابعة لضرورات مهيمنة لا تقف أبداً ويتكون من مجموعها لحمة حياة الأمة فمع ان درس الحوادث العظيمة يرينا ان حكومة فرنسا الاسمية تبدلت كثيراً منذ قرن فان البحث عن الحوادث اليومية الصغيرة يثبت لنا بالعكس ان حكومتها الحقيقية تحولت قليلاً .

إذاً فمن هم قادة الأمة الحقيقيون ؟ لا ريب انهم الملوك والوزراء في الظروف العظيمة ولكن لاشأن هؤلاء في الأمور الصغيرة المكونة للحياة اليومية ، فالقوى الحقيقية التي تسير البلاد هي عناصر الادارة غير الشخصية التي لا يؤثر فيها ما ينال نظام الحكم من التحولات ، ولما كانت هذه الادارة ذات تقاليد محافظة فانها تتصف

بالديمومة والحفاء، وهي بهذه التقاليد ذات قوة تنحني امامها جميع
القوى الاخرى، وقد بلغ تأثيرها مبلغاً اوشكت ان تشكل به دولة
خفية اقوى من الدولة الرسمية وسنوضح ذلك في هذا الكتاب



الفصل الرابع شأن الأمة في الثورات

١ - متانة روح الأمة ورويتها

يستلزم الاطلاع على احوال احدى الأمم الوقوف على بيئة تلك الأمة ولا سيما على ماضيها ، نعم يمكن نظرياً إنكار هذا الماضي ، — وذلك كما فعل رجال الثورة الفرنسية وكثير من المشتغلين بالسياسة في الوقت الحاضر — ولكن تأثيره لا يفتنى .

تتكون في الماضي الذي هو كناية عن تعاقب الأجيال عناصر روح الأمة من افكار ومشاعر وتقاليد واوهام ولا رقي بغيرها إذ لولاها لأضطر كل جيل الى استئناف العمل .

ولا ترسخ العناصر التي تتكون منها روح الأمة الا إذا كانت حاضرة على شيء من المتانة على ان لا تتجاوز هذه المتانة حداً تصبح به مرونة تلك الروح مستحيلة ، فالروح الارثية بلا متانة تكون مذبذبة غير مستقرة وبلا مرونة تكون عاجزة عن الالتام مع تقلبات البيئة الناشئة عن تقدم الحضارة .

شدة المرونة في روح الأمة تسوقها الى القيام بثورات متوالية

وشدة المتانة تقودها الى الاقراض ، فدوات الحياة ومنها الاجناس البشرية تضمحل اذا ظلت متينة رغم تعاقب الزمان عاجزة عن الالتام مع ما يطرأ على الحياة من الاحوال الجديدة .

والامم التي وازنت بين هاتين الصفتين المتناقضتين — اي المتانة والرونة — قليل عددها ونذكر من بينها الرومان في القرون القديمة والانكا في الوقت الحاضر .

وفي الغالب تأتي الامم التي رسخت روحها كثيراً بأشد الثورات لانها لما كانت عاجزة عن التطور التدريجي وعن الالتام مع تقلبات البيئة فإما تضطر الى الالتام معها بعنف عندما يصبح هذا الالتام امراً ضرورياً .

ان ثبات روح الامة لا ينال الا ببطء عظيم وما تاريخ الامم إلا أنباء مجيهراتها الطويلة في سبيل توطيد روحها . وتظل هذه الامم متبربرة لا رابطة تصل بين اجزائها ولا قوة تدعمها مادامت غير ناجحة بذلك ، وقد سمعت فرنسا بعد ان أغار البرابرة على الدولة الرومانية في أواخر عهدها عضوراً كثيرة اتتال روحاً قومية .

نعم إنها حصلت عليها في آخر الأمر ولكن رسوخها لم يلبث ان صار مفرطاً ، ولو اتصفت بقليل من الرونة لتطور نظام الملكية القديم رويداً رويداً كما وقع في بلاد اخرى ولتخلصنا من ثورتنا

الكبرى ومن نتائجها ومن سعيها هظ لتجديد روحنا القومية .
ثبتت لنا الملاحظات السابقة شأن العنصر في تكوين الانقلابات
وتوضح لنا لماذا تأتي الثورة الواحدة بنتائج تختلف باختلاف الأمم
كما توضح لنا سبب إقبال بعض الأمم بحماس على مبادئ الثورة
الفرنساوية ومقاومة الأمم الأخرى لها .

لا ريب ان انكسار المحافظة قد عانت أمر ثورتين وتضت على
أحد ملوكها ولكن قالب مزاجها النفسي كان ثابتاً ثابتاً يكفي لحفظ
تراث الماضي ومرناً مرونة تكفي لتطور هذا المزاج حسبما تقتضيه
الضرورة . وهي لم تفكر قط كما فعل رجال الثورة الفرنسية في
تقويض تراث الاجداد لتقيم مجتمعاً جديداً باسم العقل .

قال البيروني : « بينما كان الفرنسي يحتقر حكومته
ويتنت اكايروسه ويحقد اشراف امته ويتجرد على قوانين بلاده كان
الانكليزي يفتخر بدينه وبقانونه الاساسي وبا كبر امته وبتجاس
لورداته فكانه كان يحكم اوروبا ويستخف بها وهو معتصم تحت
الراية البريطانية بأبراج ذلك الحصون الخيف ، وهو وان جازعده
ان يتنازع الناس القيادة في داخل بلاده فلا يرضى بان يقرب
الاجنبى منها » .

ويتجلى لنا ايضا شأن العنصر في مصير الأمم عند البحث عن

تاريخ الثورات الأميركية الاسبانية الدائمة • إن الأمم الأميركية الاسبانية موحدة اي عبارة عن أناس تفككت عرى اخلاقهم بتأثير الوراثة المتباينة وقد حرّمهم ذلك روحاً قومية ثابتة وجعل أسر حكمهم متعذراً •

ومن يرد ان يطلع بزيادة على التباين بين قابليات الامم السياسية الناشئة عن اختلاف العنصر فليبحث عن أمة واحدة حكمها جنسان •

ليس ذلك نادراً في التاريخ فقد تجلّى حديثاً في قطري كربا والفلبين اللذين وقعا تحت حكم الولايات المتحدة بعد الحكم الاسباني فتعلم درجة ماوصلت اليه كوبا تحت الحكم الاسباني من الفوضى والشقاء كما تعلم درجة ماوصلت اليه من العمران في بضع سنين تحت حكم الولايات المتحدة •

ووقع مثل ذلك في الفلبين التي حكمها ملوك اسبانيا عصوراً طويلة • كانت عاقبة ذلك الحكم ان اصبحت الفلبين كناية عن مستنقع واسع حافل بأنواع الاوبئة تعيش فيه أمة بأئسة ليس عندها تجارة ولا صناعة ، ولكن لم يمض على هذا القطر بعد وقوعه تحت الحكم الأميركي بضع سنين حتى تحول تحولاً تاماً فغابت عنه العفونة والحمى والطاعون والهواء الاصفر وجففت فيه البطائح ووصلت

بين اجزائه الخطوط الحديدية وأسست فيه المصانع والمدارس وتقص
عدد وفياته في ثلاث عشرة سنة الى ثلث ما كانت عليه .
الى مثل هذه الأمثلة يجب رد النظر بين الذين لم يدركوا
ما في كلمة العنصر من المعاني ولم يعقلوا ان روح الامة الموروثة هي
المسيطرة على مصيرها .

٢ - كيف تتلقى الامة الثورة

ان شأن الشعوب واحد في جميع الثورات فهي لا تدرك مغزاها
ولا تدبر اسرارها وإنما الزعماء هم المحركون لها .
ولا يخلع الطاعة فريق من الامة بغريزته الا إذا مس الضر
منافعه الصريحة وذلك كما وقع في (شامانيا) حديثاً وتدعى هذه
الحركة الموضعية بالعصيان البسيط .

يسهل وقوع الثورة إذا كان زعماءها من أرباب النفوذ العظيم
وأما مبادئ الثورة فلا تدخل في قلب الامة الا رويداً رويداً ،
فالامة ترضى بالثورة من غير ان تكون عالمة بسببها ومتى ساقها الحظ
الى إدراك هذا السبب فان الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل
وتقوم الامة بالثورة لدفع الزعماء ايها وهي وان لم تدرك
شيئاً يستحق الذكر من أفكارهم فانها تفسرها على شكلها وان
خالف ذلك مبادئهم ، مثال ذلك الثورة الفرنسية . كانت غاية

هذه الثورة التي وقعت عام ١٧٨٩ ان يقبض على زمام الامور ابناء الطبقة الوسطى بدلاً من الأشراف أي أن يحل مكان نخبة قديمة أصبحت عاجزة ؛ نخبة جديدة قادرة •

ولم ينظر إلى أمر الأمة في بداية الثورة المذكورة إلا قليلاً وهي وإن أعلنت سيادتها فإن هذه السيادة كانت تفسر بحقها في انتخاب نوابها فقط •

ولما كانت الأمة جاهلة غير طامحة كبناء الطبقة الوسطى إلى الارتقاء في السلم الاجتماعي وشاعرة بأنها بعيدة عن درجة الأشراف وغير طامعة في مساواتهم فإن أغراضها ومنافعها كانت تختلف كثيراً عن أغراض عليّة القوم ومنافعهم •

وما وقع بين المجلس النيابي والملك من المنازعات اوجب مداخلة الشعب فيها مقداراً ففقداراً فأصبحت ثورة الطبقة الوسطى ثورة شعبية ، وبما أن المبدأ لا يكون قوياً مؤثراً إلا إذا استند إلى العاطفة وخلق التدين وجب على مباني، الطبقة الوسطى النظرية لتؤثر في الشعب ان تتحول إلى إيمان جديد واضح مشتق من المنافع العملية الظاهرة •

تم هذا التحول بسرعة عندما سمع الشعب الرجال الذين هم الحكومة في نظره يؤكّدون له أنه مساوٍ لسيادته السابقين فاعتبر

نفسه انه كان ضحية وشرع يتهب ويحرق ويقتل ظاناً انه يتصرف
في حق له .

وهكذا صارت قوة المبادئ الثورية كساية عن منح ارباب
+ الغرائز الفطرية الضارة التي ردها البيئة والتقاليد والقوانين منذ
القديم حرية السير والعمل .

ولما أخذت جميع الزواجر الاجتماعية التي كانت ترجع عوام
× الأمة تتداعى يوماً فيوماً تصور هؤلاء أن قوتهم غير محدودة فصاروا
يتلهون بمطاردة سادتهم القدماء وبسلبهم ، وهل لا تحجز الأمة ان
تفعل كل شيء بعد ان تصبح حاكمة ؟

لم تلبث الفاظ الحرية والمساواة والأخوة التي كانت عنواناً
+ للامان الجديد والآمال الجديدة عند بداية الثورة ان اخذت
تبرر غرائز الطمع والحسد والحقد على الافضليات تلك الغرائز
المحركة للجموع والتي لا يزجرها اي نظام ، وهذا ما جعل النظام
يحتل والظلم يسود والفوضى تعم في وقت قصير .

وبعد ان هيضت الثورة الفرنسية من الطبقة الوسطى الى
العوام تقلص ظل العقال وتعلبت عليه الغرائز . ان انتصار الغرائز
+ الارثية لأمر مخيف وما ادت المجهودات التي قامت بها المجتمعات
لأجل بقائها إلا الى زجر بعض الغرائز الحيوانية الموروثة ، نعم يمكن

ردع هذه الغرائز؛ وكلما تقدمت الامة في ميدان الحضارة يكون هذا
الردع أتم وأكمل إلا انه يستحيل القضاء عليها، ولهذا فان تحرير
الغرائز العامة مخطر كثيراً فتمت يفيض السيل لا يرجع الى مجراه
قبل ان يخرّب ما يصل اليه .

٣ - شأن الشعب في الثورات

ثبتت لنا سنن روح الجماعات أن الامة لا تسير بلا زعماء وان
عملها وإن كان عظيماً في الثورات لا ندفعها فيما تحرّض اليه فانما لا
تقود ما تنجزه من الحركات ابداً .

وللزعماء في كل ثورة سياسية تأثير ومع انهم لا يتدعون
المبادئ التي تستند اليها فانهم يتخذونها واسطة للعمل ، فالمثل من
المبادئ والزعماء والجيوش والجموع شأن خاص في جميع الثورات
تسير الجماعة التي هيجهها الزعماء معثرة بمددها ومثل تأثيرها مثل
تأثير القبلة التي تحترق الدرع مستمدة من قوة لم توجد لها، وقلما
تدرك الجماعة شيئاً من الثورات التي تقوم بها فهي تتبع الزعماء طائفة
من غير ان تبحث عن شهواتهم فقد خاضت شارل العاشر من اجل
مراسيمه وهي لا تعلم شيئاً عما جاء فيها ولو سئلت عن سبب خلعها
لويس فليب لعجزت عن الجواب

ولقد خدعت الطواغر كثير من المؤلفين كيشاييه وأولادهم فظنوا

ان الامة هي التي قامت بالثورة الفرنسية الكبرى . قال ميشليه :
 « ان الفاعل الاصلي للثورة الفرنسية هو الشعب » وقال اولار :
 « ان القول بأن الذين اتوا بالثورة الفرنسية هم شرذمة من الوجءاء
 والابطال خطأ ، إذ ثبت عندي بعد الاطلاع على ما وقع بين عامي
 ١٧٨٩ و ١٧٩٩ أنه لم يسير الحوادث اى شخص سواء اكان لويس
 السادس عشر ام ميرابو ام دانطون ام روبنبيير ، وانما الصحيح ان
 الامة هي بطل تلك الثورة ، وقد قامت بها لاعلى شكل جماعة بل
 على شكل احزاب منظمة » .

ووضع الموسيو كوشان كتابا حديثا غالى فيه بما كان للشعب
 من التأثير في الثورة المذكورة ، قال هذا المؤلف : « ومن الخوارق
 ان حكمت هذه الجماعة وامرت وقالت وسارت مدة خمس سنين
 باتقان متناسق وليس عندها رؤساء ولا قوانين فقد كانت تعمل بغريزتها
 وهي (٢٥) مليون نسمة على مساحة ٣٠٠٠٠٠ فرسخ مربع كانها
 رجل واحد » .

نعم لو كان سير الامة غريزيا كما يزعم هذا المؤلف لعد من
 الخوارق ، وقد فطن الموسيو اولار الى استحالة ذلك فكان عندما
 يتكلم عن الامة يقول بأنها مركبة من احزاب قد يكون لها رؤساء .
 قال هذا المؤلف : من وطء الوحدة القومية ؟ ومن انقد الامة التي

هاجمها الملك ومزقتها الحرب الاهلية؟ أدانطون ام روبسبير ام كارنو؟ نعم قد خدم هؤلاء الاشخاص ولكن الذي أيد الوحدة والاستقلال هو تجمع الافرنسيين على شكل بلديات وجمعيات شعبية ، على ان من ينعم النظر يجد انه كان في كل حزب شخصان او ثلاثة اشخاص من المهرة ينفذون الاحكام . وهم وان جاز وصفهم بالرؤساء فان ما يظهر لنا من مطالعة محاضر الجمعيات الشعبية هو انهم استمدوا قوتهم من حزمهم اكثر منها من انفسهم .»

ان خطأ المسيو اولار هو اعتقاده ان جميع هذه الاحزاب تولدت من حركة غريزية نحو مبدأي الحق والاخوة مع انه لا يوجد ما هو غريزي في هذه الحركة ، فقد وجد وقتئذ في فرنسا ألوف من الاندية الصغيرة يحرضها النادي العقوبي الكبير في باريس وهي تطيعه اطاعة عمياء .

٤ - الامة وعناصرها الاساسية

يقال في الرد على بعض الافكار ان الامة ذات كيان لاهوتي حائز جميع ما يعجده المشتغلون بالسياسة ويظنون في مدحه من القوى والفضائل وسنبدى رأينا في ذلك عند بحثنا الآن عن شأن الامة في الثورة الفرنسية .

١ ان الامة عند العاقبة في الماضي والحاضر شخصية سامية لا

تَسأل — كالألهة — عما تفعل ولا تخطيء ابداً ، فالكل مجبور على إطاعتها وإن جاز لها ان تقتل وتهب وتحرق وتأتي بأقسى المظالم وإن تطرح غداً في الدرك الأسفل من رفعة اليوم الى مصاف الأبطال ، ولا يعدل المشتغلون بالسياسة عن السجود امام جميع احكامها مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية ^(١) .

فما هي حقيقة الأمة اي المعبود الذي يقده الثوريون منذ عصر ؟

يمكن تقسيمها الى قسمين مختلفين : فالقسم الاول يشتمل على الفلاحين والتجار وجميع انواع العمال اي على من يحتاجون الى السكنى والنظام ليقوموا بمهنتهم ، وهذا الفريق وان كان اكثريّة الأمة فانه لا يقوم بالثورات ابداً ، وبما ان عيشه عيش وسكوت فان المؤرخين يغفلون أمره .

واما القسم الآخر الذي له شأن مهم في جميع الفتن القومية فهو ثمالة اجتماعية هادمة ذات نفسية أثيمة اي كناية عن أناس يتكون من مجموعهم جيوش متمرّدة حوّّلتها البؤس وتعاطي الكحول الى لصوص

(١) اخذ بظهر بطلان ذلك عند متطري الحزب الجمهوري فقد كتب الموسيو كليانصو « ان غاية الاشتراكيين هو ان يمنحوا العوام جميع الفضائل التي يقول بها العقل مع ان عقولهم لا تكون سامية دائماً » ولو قال هذا السياسي الشهير بعدم عقلم بدلاً من قوله ان عقولهم لا تكون سامية لكان كلامه اصح .

وصحاليك واشقياء وعمال سفلة ذوى بطالة

يردع الخوف من العقاب كثيراً من هؤلاء عن اقتراف الجرائم
في الأوقات الاعتيادية ولكنهم لا يتأخرون عن ارتكابها عندما تستطيع
غرائزهم السيئة ان تسير بدون خطر، فهؤلاء الاخلاط المشائيم هم
الذين يسفكون الدماء في جميع الثورات وهم الذين كانوا يستولون
- مدفوعين بتأثير زعمائهم - على مجالسنا الثورية الكبيرة، وليس لهم
غاية سوى القتل والنهب والحرق ولا يعباؤون بالنظريات والمبادئ
أبدأ

وينضم الى هذه الطبقة السافلة بتأثير العدوى جماعة من البطالين
والاخلياء فيصرخون مع كل ناعق ويتمردون بجانب كل متمرّد دون
ان يفقهوا شيئاً من المسألة التي يصرخ ويتمرد من اجلها، والتلقين هو
الذي يتغلب عليهم ويدفعهم للعمل.

ولا يعرف الخطباء غير هذه الجموع المشاغبة المضارة التي هي
جرثومة كل عصيان منذ القديم حتى اليوم وهم يرون الامة مكوّنة
من هذه الجموع وان كانت مؤلفة من الرعايا الذين قال عنهم تيار:
«انهم لم يتغير منهم شيء، منذ الازمنة التي راى فيها تاسيت يصفقون
لجرائم القياديرة وانهم يتأهبون لتدنيس المجتمعات باقترافهم جميع الجرائم
مليين نداء كل سلطة او ضم اي مبدأ».

لم يمتد شأن السوق في دور من أدوار التاريخ كامتداده أيام
الثورة الفرنسية، وقد ابتدأ الذبح فيها منذ تقلت الرعاع من قديم
عام ١٧٨٩ أي قبل دور العهد بقليل . كان هؤلاء يذبحون بقساوة
عظيمة فيشرحون المسجونين أيام مذابح ايلول بالسيف رويداً
رويداً ليمتد آلامهم ويتسلى الحضور الذين كان يطير فؤادهم من
الفرح أزاء اضطراب الضحايا ونواحهم من شدة الوجع .
رأى الناس مثل هذه المشاهد في جميع نواحي فرنسا منذ بداية
الثورة الفرنسية حيث لاحت مع الأجني ولاعة أخرى تبررها،
وما وقع منذ شهر مارس حتى شهر ايلول من الحرق والقتل والنهب
فقد ضرج فرنسا بالدماء ووقعت روان وليون وستراسبورغ الخ
بأيدي الرعاع ، وقتل رئيس بلدية تروا بعد أن فقئت عيناه بالمقص
وعذب ساعات كثيرة وشرح قائد فرسان (بلزانس) حياً ، وكثيراً
ما كانت تلمع قلوب الضحايا ليظاف بها في المدينة على رؤوس
الخراب .

هكذا يسير رعاع الأمة عندما تقضي الأيدي الغافلة على الزواجر
الرادعة لغرائهم المتوحشة المنتقلة اليهم بالارث ، ولما كانت المنفعة
تقضي على المشتغلين بالسياسة ان يتملقوا لهم فأنه يغمض عنهم ، ولنفرض
ان سفلة الأمة تكاثفوا برهة فتكون من مجموعهم وجود واحد فان

هذا الوجود يظهر بمظهر غول طاغ قليل العقل يسبق في اغتياله
اشد الجبارة سفكا للدماء .

على أنه يسهل التغلب على هؤلاء السفلة المندفعين عند ما تقوم
في وجههم قوة قوية فاذا اتصفوا بعنف لاجد له فان دناءتهم لاجد
لها ايضاً فقد اعانوا كل استبداد وأيقن القياصرة انهم يهللون لهم
مساءً أكان اسمهم (كاليفولا) ام (نيرون) ام (روبسبير) ام
(بولانجيه) .

ويوجد بجانب هذه الزمر المخربة ذات الشأن الكبير في
الثورات جماعة الشعب الحقيقي التي لا تصبو الا الى الشغل كما بينا
ذلك سابقاً وهي وان كانت تستفيد أحياناً من الثورات فانها لا تفكر
في القيام بها ولا يعلم رجال الثورة من أمرها الا قليلاً ، ولما كانوا
يخشون انها محافظة متمسكة بالتقاليد فانهم يرتابون منها .

إنها لنواة الأمة الثابتة وهي مدار بقائها وقوتها ، نعم ان الخوف
يجعلها مطيعة فيقودها الزعماء بنفوذهم الى القيام بجميع المظالم ولكن
خصائص الأمة الأثرية لا تلبث ان يثقل ميزانها فضحجر هذه الجماعة
من الثورات سريعاً فتدفعها روحها التقليدية الى الوقوف أمام الفوضى
عند ما تستفحل باحثة عن رئيس قادر على إعادة النظام .

ليس لهذا الفريق الهاديء المسلم أمره مبادئ سياسية سامية

او معقدة ألبته فغاياته ان يسود الحكم المطلق ولذلك قام هذا الحكم
بعد الفوضى دائماً فلقد عقب الحكم المطلق الثورة الأولى عندما
هتف لنا بليون وعقب الثورة الثانية عند رفع التصويت العام لويس
نابليون الى رئاسة الجمهورية وأقره على استئثاره بالحكم ثم جعله
امبراطوراً ثم استعوب نظامه عام ١٨٧٠ اي قبل الحرب الفرنسية
البروسية .

لا ريب ان الشعب قد خدع في هذه الأحوال الأخيرة ولكنه
لولا الدسائس الثورية التي أفسدت النظام لما اضطر الى البحث عن
وسيلة ليتخلص بها منها .

يجب ان لا تغيب الحوادث التي نبهنا اليها في هذا الفصل عن
بالنا إذا أردنا الاطلاع على شأن الأمة في الثورات فلامّة شأن
كبير فيها ولكنه يختلف كثيراً عما جاء في كتب الاقاصيص .



الباب الثاني

مظاهر النفسية السائدة أيام الثورات

الفصل الأول

تقلبات الخلق أيام الثورات

١ - تحولات الذاتية

اوضحت مفصلاً في مؤلف آخر نظرية الاخلاق التي يستحيل بدونها ادراك تحول الانسان أيام الثورات واليك نقاطها الاساسية يوجد عند كل امرئ - ماعدا نفسيته الثابتة مادامت البيئة لا تتحول - شؤون خلقية متحولة قد تظهرها الحوادث .

وتكون الذاتية الخاصة من اجتماع ذاتيات ارثية عديدة وينشأ عن اختلاط هذه الذاتيات موازنات تبقى ثابتة مادامت البيئة لا تتقلب ، فتقلبت هذه البيئة كثيراً - وذلك كما يقع أيام الفتن - فان هذه الموازنات تتداعى ويتكون من انضمام العناصر المنحلة ذاتية جديدة ذات افكار وعواطف ومناهج تختلف جداً عما كان مشهوراً عند الاشخاص انفسهم؛ ألم تران كثيراً من ارباب الصلاح ورجال القضاء المسالمين الذين كانوا موصوفين بالحكم اصبحوا أيام

الهول الا كبر اناساً متعصبين سفاكين للدماء .
 إذا يجوز ان يضحى الرؤى بتأثير البيئة امراً آخر ، وانه وان لاح لنا
 احياناً ان القائمين بالازمات الدينية والسياسية العظيمة هم من جوهر
 يختلف هذا السبب عن جوهر نالهم في الحقيقة مثلنا من تكرار الحوادث
 نفسها يظهر الاشخاص انفسهم .

كيف تتشكل ذاتية جديدة عند ما تنحل الذاتية الاعتيادية بتأثير
 بعض الحوادث ؟ انها تتشكل بوسائل كثيرة أهمها حيازة معتقد قوي
 فيوجه هذا المعتقد جميع عناصر العقل والتمييز كما يحول الحجر المغناطيسي
 ذرات المعدن المغناطيسي الى منحنيات منظمة .

هكذا تكونت الذاتيات التي شوهدت عند الازمات العظيمة
 كالحروب الصليبية والاصلاح الديني ولا سيما الثورة الفرنسية
 ولما كانت البيئة لا تحول في الاوقات الاعتيادية الا قليلاً فاننا
 لا نشاهد سوى ذاتية واحدة عند من يحيط بنا من الاشخاص ، وقد
 يكون لهم احياناً ذاتيات متعددة قادرة على ان يقوم بعضها مقام بعض
 في ظروف استثنائية .

لر بما تصبح هذه الذاتيات متناقضة متشاكسة ويكون هذا
 الحادث الاستثنائي بارزاً في بعض الاحوال الناشئة عن مرض ، وقد
 أتى علم الامراض بأمثلة كثيرة على هذه الذاتيات الموجودة في

شخص واحد كالتي اوردتها (مورطون برنس) و (بطرس جاني)
وليس الذكاء هو الذي يتغير عند تحول الذاتيات بل المشاعر
التي يتكون الخلق من انضمام بعضها الى بعض .

٢ - عناصر الخلق السائد ايام الثورات

نشاهد في أيام الثورات ان المشاعر المكبوحة عادة تنمو
وتسير حرة عند هدم الزواجر الاجتماعية ولا تسقط جميع هذه
الزواجر القائمة على القوانين والتهديب والتقاليد بل يبقى بعضها
رغم الانقلابات وينفع هذا البعض في إيقاف ثوران المشاعر
المشتملة على الخطر .

ان روح الجنس هي أقوى هذه الزواجر إذ لما كانت سبباً
لا تصاف أكثرية افراد الامة بأدراك وشعور وعزم متماثل فانها
تؤسس عادة إرثية ، ولا أقوى من رابطة العادة .

ويحدد تأثير الجنس تقاليد الامة ويسير مقاديرها رغم
تحولاتها السطحية ، فلو نظرنا ما قصه التاريخ علينا لظهر لنا مثلاً
ان النفسية الفرنسية تبدلت كثيراً في عصر واحد إذ مرت في
اعوام قليلة من نظام الثورة الى النظام الامبراطوري فالى النظام
الملكي فالى نظام الثورة فالى النظام الامبراطوري ، والواقع ان
ظواهر الامور هي التي تغيرت وحدها .

لا نطلب في بيان حدود قلب الامة اكثر مما فعلنا وسنبحث
الآن عن بعض العناصر العاطفية التي يساعد نموها ايام الثورات على
تغيير ذاتيات الافراد والجماعات ، وسأذكر من هذه العناصر خاصة
الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماسة ، فقد لوحظ
تأثير هذه العناصر في جميع انقلابات التاريخ ولاسيما ايام الثورة
الفرنساوية الكبرى التي نستشهد بهادئاً .

الحقد . — ان الحقد الذي اشتعل في قلوب رجال الثورة
الفرنساوية ضد الناس والنظامات والاشياء هو أحد عناصرهم
العاطفية التي تبدو للعين عند البحث عن نفسياتهم ، فلم يكن هؤلاء
الرجال بمقت اعدائهم بل مقتوا أعضاء حزبهم الخاص ، قل احد
الكتاب حديثاً : « إذا نظرنا الى ما كان بعضهم يربي البعض الآخر
من الأقوال فلا نرى بينهم سوى الخونة والعاجزين والكذبة
وبائعي الضمائر والقتلة والظلمة » ، وما كان مجهولاً ذلك الحقد
الذي غلى في صدور الجيرونديين والدانطونيين والهيبريين
والروبسييريين ايام كانوا يتطاردون ، فلم يهدأ تأثير هذا الحقد إلا
بقتل كل امرئ يخالفه .

وسبب ذلك ان هؤلاء الهاجسين لما اعتقدوا بجهازتهم على الحقيقة
المطابقة صاروا كجميع المؤمنين لا يطيقون التسامح مع من لم يكن

على مذهبهم ، وبما ان صاحب الايمان الديني او العاطفي يميل دائماً الى إلزام الناس به فانه لا يتأخر عن القتل إذا قدر عليه .

ولو كان العقل مصدر الاحتاد التي فرقت بين رجال الثورة الفرنسية لما استمرت هذه الأحقاد طويلاً ، ولكن صدورها عن خلق التيدين والعاطفة جعل اصحابها عاجزين عن الصفح ، وبما ان مصدرها واحد عند جميع الاحزاب فانها ظهرت بشدة واحدة عند الكل ، ولقد اثبتت الوثائق المضبوطة ان الجيرونديين لم يكونوا أقل من حزب الموتانيار سفكاً للدماء ، فكانوا أول من صرح مع بليسيون انه يجب على الأحزاب المغلوبة ان تبعد ، وقد بين الموسيو اولار انهم حاولوا تبرير مذابح شهر ايلول ، وعليه وجب ان لا يعد (الهول الاكبر) وسيلة دفاع بل أن يعد نوعاً من طرق الابادة التي يتخذها المؤمنون الغالبون ضد أعدائهم المقهورين فالانسان إذا تحمل ما يبين افكاره فانه لا يتساهل مع معتقد مخالف لمعتقده أبداً .

لاسلام للمغلوب في المنازعات السياسية والدينية ، هذه سنة لم تتبدل منذ قطع سيللار قاب مثني عضو من مجلس الشيوخ ورقاب خمسة الى ستة آلاف روماني حتى رجال الكومون الغالبين الذين قتلوا رمياً بالرصاص بعد ان انتصروا اكثر من عشرين ألف مغلوب

ولا ريب في أن هذه السنة ستجري حكمها في المستقبل كما فعلت
في الماضي .

لم يكن اختلاف المعتقدات وحده سبباً للاحقاد التي سارت
ايام الثورة الفرنسية بل صدرت ايضاً عن المشاعر الاخرى كالخسدة
والحرص والعجب ، وقد ادّت هذه المشاعر الى المغالاة في الحق
بين رجال الاحزاب المختلفة فكان مايقع بين الاشخاص من المزاومة
للقبض على زمام الامور يسوق رؤساء الاحزاب بالتتابع الى المقصلة
ونرى ان من عناصر الروح اللاتيني الاساسية الميل الى
الانقسام وما ينشأ عنه من الاحقاد ، فيه اضاع اجدادنا الغولوييون
استقلالهم وقد اتبته الى ذلك يوليوس قيصر فقال : « لا يوجد في
بلاد الغول مدينة غير منقسمة الى حزبين كما انه لا يوجد فيها كورة
ولا قرية ولا بيت خال من روح الحزب وقلما تمضي سنة من
غير ان تهاجم مدينة جاراتها بالسلاح . »

وبما أن الانسان لم يدخل في دور المعرفة الا منذ زمن قليل
وكان مسيراً بالمشاعر والمعتقدات فان ذلك يدلنا على ما للحقد من
الشان العظيم في التاريخ . ولقد أشار القائد (كولان) احد اساتذة
المدرسة الحربية الى أهمية هذه العاطفة في بعض الحروب حيث قال :
« لا يوجد داع للشجاعة في الحرب اكثر من الحق فهو الذي نصر

(بلوخر) على نابليون وإذا بحثنا عن أحسن الحركات العسكرية واحزمها
فاننا نرى انها صادرة عن البغض والنفور اكثر من العدد اللهم اذالم
يكن منشأها نابغة كفرديك اونايليون ، وماذا تكون حرب ١٨٧٠
لولا الحق الذي كان يحمله الايمان في صدورهم ضدنا؟

ويمكن لهذا المؤلف ان يقول بان الحق الشديد الذي غلى في
قلوب اليابان ضد الروس المزددين اياهم هو احد الأسباب التي نصرت
اولئك على هؤلاء ، واما الروس فلما كانوا لا يعلمون غير شيء يسير
عن اليابان فانهم كانوا لا يحملون شيئاً من الضغينة نحوهم فزاد ذلك
في ضعفهم .

نعم لاكت الأفواه لفظ الأخوة ايام الثورة الفرنسية كثيراً
ولا يزال الناس يرددونها فصارت ألفاظ السلام والانسانية والتضامن
قواعد للأحزاب ولكن عمق الأحقاد المستترة تحت هذه الكلمات
والأخطار المحدقة بالمجتمع الحاضر ليس بالشيء الخفي .

الخوف . — إن للخوف في أيام الثورات شأناً عظيماً يقرب
من شأن الحق ، وقد شوهد أيام الثورة الفرنسية شجاعات فردية
ومخافات جموعية كثيرة ، فكان رجال العهد أمام المقصلة كثيري
الشجاعة ولكنهم كانوا أزاء وعيد مثيري الفتن المتسلطين على المجلس
النيابي شديدي الجبن يطيعون اكثر الأوامر المخالفة للعقل والصواب

وسنرى ذلك عند ما نلخص تاريخ مجالسنا الثورية .

شاهد الخوف بجميع مظاهره في ذلك الزمن وكان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافونه فقد سبق أعضاء المجالس وموظفو الاتهام وقضاة المحاكم خصومهم الى التطرف اي إلى اقتراف الجرائم ، ولو ان معجزة أزلت الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر ولكانت للثورة الفرنسية وجهة أخرى

الحرص والحسد والزهو . — تتبع هذه العناصر العاطفية في الاوقات الاعتيادية مقتضيات الاجتماع فيكون الحرص مثلاً محدوداً بحكم الضرورة في مجتمع قائم على نظام المراتب ، فاذا صار جندي فيه قائداً فذلك لا يقع الا بعد انتظار كبير وليس عليه ان ينتظر في أيام الثورات ، فلما جاز لكل امرئ ان يصعد فيها الى أعلى المراتب فان خلق الحرص يبيع عند الناس فيظن احقرهم أنه كفوء لها فيبلغ الزهو عنده منتهاه .

قد يتغلب المرؤ على شهواته على ما فيه من حرص وزهو ولكن الحسد لا يلبث ان تتقد نيرانه في قلب صاحبه على الذين تم لهم النجاح قبل الآخرين .

للحسد شأن عظيم في الأدوار الثورية ولا سيما الثورة الفرنسية فكان الحسد للاشراف سبباً من اسبابها المهمة ولما ازدادت الطبقة

الوسطى بها مالاً وعظمت سطوةً ونيفت على الأشراف وكثر
اختلاطها بهم شعرت رغم ذلك ببعدها عنهم فأحست في نفسها ألماً
شديداً ، وهذه الحالة الروحية جعلتها تميل غير شاعرة الى المذاهب
الفلسفية القائلة بالمساواة .

إذا كانت عزلة النفس المجروحة والحسد سببين لما لم ندرك
مغزاه اليوم من الأحقاد . فكان كثير من رجال العهد كقارييا ، ومارا
وغيرهما يتذكرون والغضب آخذ مأخذه منهم انهم تقلدوا وظائف
ثانوية عند الأمراء الاقزاميين وما استطاعت (مدام رولان) ان
تنسى انها لما دعيت في الدور السابق مع والدتها للعشاء عند سيدة
كبيرة تناولته مع خدمة المائدة .

ولقد أجاد الفيلسوف (ريفارول) بيانه - في العبارة الآتية
التي استشهد بها تان - تأثير عزلة النفس المجروحة في الأحقاد
الثورية ، قال هذا الفيلسوف « لم تكن الضرائب وأوامر الملك
وتصرف السلطة السيء وجور الولاة وتواني القضاء المهلك هي
التي أثاربت وحدها ساكن الأمة بل ان الأمة اظهرت من الحقد
لطبقة الأشراف ما لم تظهره لشيء آخر وقد هيج أبناء الطبقة الوسطى
ورجال القلم والماليون اي جميع الحاسدين لها سكان القرى والمدن
ضدها »

وهذه الملاحظات الصحيحة تؤيد كلمة نابليون القائلة « بان
الزهو كان سبباً للثورة الفرنسية وليس السعي للحرية سوى حجة
باطلة . »

الحماسة - ان حماسة مؤسسي الثورة الفرنسية تعادل حماسة
ناشري دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، إذ كانت ديانة اعتقد رجال
الطبقة الوسطي في المجلس التشريعي الاول أنهم اسسوها . تخيل
هؤلاء الرجال انهم تضاوا الى المجتمع القديم وأقاموا على أنقاضه
حضارة اخرى ، وما وجدوهم فتن اضرم قلب الانسان اكثر من
هذا الوهم فكانوا يقولون بان مبدأي الاخوة والمساواة اللذين نادوا
بهما سيمنحان الامم سعادة ابدية وبأنه لما قطعت جميع العلائق مع
الماضي المظالم المتوحش فان المجتمع الجديد سيستنير باشعة العقل
المطلق ، ولذلك حيي الفجر الذي لاح جانبه بأبهى الصيغ الخطائية
وإذا قام العنف حالاً مقام هذه الحماسة فذلك لان الاتباه
كان سريعاً ويسهل ، علينا ادراك السر في كون رسل الثورة الفرنسية
قاموا اشداء غاضبين في وجه العوائق اليومية المانعة لتحقيق احلامهم
فهم لما ارادوا نبذ الماضي ونسيان التقاليد وتجديد البشر و كان
الماضي يظهر بلا انقطاع والبشر يأتون ان يتغير اضطروا الى التوقف
عن سيرهم غير سر يدين الخضوع فأخذوا يرغمون الناس على الاتقياد

لأوامرهم بضغط أعدوا به في النهاية النظام السابق المقضي عليه
الذي لم يلبث ان أسف الناس عليه .

ومما يستحق الذكر ان حماسة الايام الاولى التي لم تدم في
المجالس الثورية استمرت اكثر من ذلك عند الجيوش فكانت
مرفقتها ، حقاً ان جيوش الثورة الفرنسية اصبحت ذات نزوع
جمهوري قبل ان تصبح فرنسا جمهورية واستمرت على ذلك زمناً
طويلاً بعد ان صارت فرنسا غير جمهورية .

تتبع تقلبات الخلق التي بحثنا عنها في هذا الفصل لبعض الاماني
ولتحولات البيئة ويمكن ردها الى أربع نفسيات وهي النفسية العنصرية
والنفسية الدينية والنفسية الثورية والنفسية المجرمة .

الفصل الثاني

النفسية الدينية والنفسية العقوبية

١ - تقسيم النفسيات السائدة أيام الثورة

تلجئُ التقسيمات — التي يستحيل البحث العالمي بدونها — الى قطع ما هو متصل وتظل لهذا السبب صنعية ، على انها ضرورية إذ لا يدرك المتصل الا بعد تحويله الى اجزاء متقطعة .

ان التفريق بين النفسيات المختلفة المشاهدة أيام الثورة لم يكن سوى فصل عناصر متغلبة او متداخلة او مترابطة ، ويتقضي ترك قليل من الضبط والصحة لنيل ما يقابل ذلك من الوضوح . والوجوه الاساسية التي عددناها في آخر الفصل السابق — ومنشرحها الآن — هي أقسام لا يمكن تفسيرها اذا بحث عنها مشتبكة الاجزاء .

بينما ان الانسان مسير بانواع كثيرة من المنطق متقاربة لا يؤثر بعضها في بعض في الاوقات الاعتيادية وتتنازع هذه الانواع بتاثير الحوادث فتبدو الفروق الفارقة بينها للعيان فيؤدى ذلك الى انقلابات فردية واجتماعية عظيمة .

والمنطق الديني الذي سنبحث عنه بعد حين في الروح
اليقينية شأن كبير واما الانواع الاخرى اي المنطق العاطفي ومنطق
الجماعات والمنطق العقلي فقد تكون لها الغلبة بحسب الظروف .

٢ = النفسية الدينية

الآن نمسك عن بيان تأثير المنطق العاطفي والمنطق العقلي
ومنطق الجماعات باحثين عن عناصر الدين التي تغلبت على كثير من
الثورات ولا سيما الثورة الفرنسية .

ان روح الدين تتصف باسنادها قدرة عظيمة الى موجودات
وقوى علوية تمثلت بشكل اصنام وانصاب والفاظ وصيغ ، والروح
المذكورة هي اساس لجميع المعتقدات الدينية وكثير من المعتقدات
السياسية ، وكثيراً ما تتلاشى المعتقدات السياسية إذا جردت عن
عناصر الدين التي هي اركانها الحقيقية .

ولما كان المنطق الديني مشرباً بالمشاعر والدوافع العاطفية
فان الفتن الشعبية الكبيرة تستمد قوتها منه ، وإذا كان الناس
لا يبذلون حياتهم في سبيل المعتقدات الاقليلا فانهم يقدونها طوعاً
في سبيل خيال ديني اصبح معبوداً .

لهم تلبث مبادي الثورة الفرنسية أن القت في قلوب الناس
حمة دينية مشابهة للحمة التي القتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم

تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفسية الموروثة المتكاثفة بتعاقب
الصور .

إذاً فلا عجب لحمة رجال العهد القاسية وما شبه نفسياتهم الدينية
بنفسية البروتستان في دور الإصلاح الديني . كان إبطال (أهول
الأكبر) كقوطون وسان جوست وروبسيير وغيرهم رسلاً
مشابهاً لبوليوقت الذي ظن أنه يهدمه هياكل الآلهة الباطلة
في سبيل نشر إيمانه يجعل الكون مسيحياً فاما اعتقدوا أن صيغهم
السحرية تكفي لذلك العروش فانهم لم يترددوا في إعلان الحرب على
الملوك ، وبما أن الإيمان القوي يعاود على الإيمان المزعزع دائماً
فقد حاربوا أوروبا باظافرين .

وكان يظهر ما عند زعماء الثورة الفرنسية من الروح الدينية
في أدق أعمالهم العامة فقد أكد روبسيير في إحدى خطبه وهو
يعتقد بأنه محفوف بمون الله « أن الله تعالى أمر بالحكم الجمهوري
منذ البداية » وجعل — بصفته المبرر الأعظم لدين الحكومة —
مجلس العهد يضع مرسوماً مصرحاً فيه « بأن الأمة الفرنسية تعترف
بوجود الله تعالى وبحلود الروح » والقي وهو جالس على مرش
يوم عيد الرب موعظة طويلة .

أخذ النادي يعقوبني الذي يديره روبسيير في نهاية الأمر

شكل مجمع ديني وقد قال (ما كسيميليان) « بوجود قادر عظيم يحافظ على البرىء المظلوم ويجازى المجرم الظافر » وكان جميع الحوارج الذين يطعنون في المذهب يعقوبي يرمون اي يرسلون الى المحكمة الثورية التي لا يخرج منها المتهم الا لقطع رأسه .

ولم تمت النفسية الدينية بموت روبسبير الذي هو أشهر ممثل لها إذ يوجد الآن بين المشتغلين بالسياسة رجال ذوو نفسية مشابهة لنفسيته ، نعم لاسطان للمعتقدات الدينية القديمة عليهم ولكنهم يخضعون لتعاليم سياسية لا يتأخرون ساعة عن الزام الناس بها إذا قدروا على ذلك ، فطريقة الارشاد في كل جيل عند المتدينين الذين يبدلون حياتهم في سبيل نشر معتقدهم واحدة عندما يصيرون سادة .

إذا فن الطبيعي ان يكون عدد المعجبين بروبسبير كثيراً وتعد النفوس التي سكبت في قالب نفسه بالألوف وهو وان قطع رأسه بالمقصلة فان مداركه لم تقطع ولا تزول هذه المدارك التي نشأت مع الانسان الازوال آخر المعتقدين .

لم ينتبه اكثر المؤرخين الى وجه الثورات الديني وسوف يستمر ون على عزوهم كثيراً من الحوادث الى المنطق العقلي البعيد عنه ، وقد اوردت في فصل سابق عبارة للموسيو لافيس والموسيو

رامبو يقولان فيها ان ثورة الاصلاح الديني « نتيجة تأملات ذاتية
اورثها في قلوب بسطاء الناس شعور تقى وعقل مقدم » .

لا يمكن ادراك هذه الثورات اذا ظن ان مصدرها العقل
فالمعتقدات التي أقامت العالم واقعدته - سواء أ كانت دينية ام
سياسية - مصدر واحد وكلها تسير على سنة واحدة وهي انها لم
تم بالعقل وكثيراً ما تمت خلافا لكل عقل . نعم يظهر ان البوذية
والنصرانية والاسلام والاصلاح الديني والسحر واليعقوبية
والاشتراكية والمذهب الروحاني معتقدات متباينة ولكنني اكرر
قولي بأن لها دعائم عاطفية ودينية واحدة وتتبع منطقاً لا قرابة
بينه وبين المنطق العقلي وقوتها ناشئة عن الملعقل من التأثير الضئيل
في تكوينها وتحويلها .

ولقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينية في الوقت الحاضر
مقالة نشرت في احدى الجرائد الكبيرة ولها مساس بأحد وزرائنا
السابقين ، جاء في هذه المقالة : « يتساءلون عن الفرقة التي ينسب
اليها الموسيو فلان ، أ يظن انه من فرقة الملحدين ؟ فيا للسخرية !
نسمع مع عدم اختياره اي ايمان وضعي ولعنه روما وجنيف انه
يحجد جميع العقائد التقليدية ويرفض جميع الكنائس المعروفة ، الا
انه وان جعل الصفيحة هكذا ملساء فذلك ليقم عليها كنيسة

الخاصة التي هي ذات بدع أكثر من اية كنيسة اخرى وسوف لا
تقل محكمته التفتيشية في شدة تعصبها وعدم تسامحها عن اشهر
محاكم توركمادا .»

«صرح بأنه لا يرضى بالمحايدة المدرسية وبأنه يطلب ان يكون
التعليم زمنياً بكل معنى الكلمة اى انه يخالف حرية التعليم ، وهو
وان لم يقل بالاحراق فذلك لاضطراره الى مداراة تطور العادات
والطبائع وبما انه عاجز عن قتل الناس فانه يستمد بالقوة الزمنية
للحكم على جميع المذاهب بالموت ، هذه هي غاية جميع رجال محاكم
التفتيش الذين يريدون في كل وقت ان يضطهدوا الفكر ، وقد
بلغت حرية الفكر عند هذا المفكر الحر مبلغاً جعله لا يكتفي بان
يقول ان كل فلسفة لا يرضى بها موجبة للجزء والسخرية بل يقول
انها اثيمة مجرمة ، نعم انه حصل على الحقيقة المطلقة وأوجب اعتقاده
التمام بذلك ان ينظر الى كل من يخالفه كغول شنيع وعدو عام
ولم يخطر بباله لحظة واحدة ان اراءه الشخصية لم تكن سوى
فرضيات يضحك فيها ، ادعاؤها بانها ذات امتياز إلهي منزل في وقت
ترفض فيه كل الوهية ، وهي وان جحدت الألوهية ، فانها
تعترف بها على شكل آخر لا يلبث ان يجعل الانسان يأسف على
الألوهية السابقة فالمسيو فلان هو من أشياع آلهة العقل المشابهة

عنده للأله (مولوخ) الظالم المتعطش الى القرايين البشرية وما
فكر الموسيوفلان الحر الاعداء حرية الفكر عند اي انسان كان
مستثنياً ذاته واصحابه ، إلا ان الأماني خلافة وكم من اصنام حطمت
منذ بضعة عصور ليسجد امام صنم حديث . . .
اننا نلجوا باسم الحرية ان لا يصبح هؤلاء المتصبون سادة
علينا في نهاية الامر .

ولما كان سلطان العقل ضئيلاً على المعتقدات الدينية فان
من اللغو أن نجادل كما يفعل البعض فيما للمبادئ الثورية والسياسية
من القيمة العقلية ، وتأثيرها وحده هو الذي يهمنا سواء اكدبت
المشاهدة والتجربة نظرية المساواة بين الناس ونظرية الصلاح
الفطري والنظرية القائلة بإمكان تجديد المجتمع بالقوانين ام لم
تكذباً فهذه الاوهام الباطلة من اكثر العوامل التي عرفها البشر
تأثيراً .

٣ - النفسية يعقوبية

اصطلح على تعبير « النفسية يعقوبية » مع انه لم يصطلح
عليه في اي تقسيم وذلك لانه يدل على جملة معينة يتكون منها نوع
نفسى حقيقي .

سادت هذه النفسية على رجال الثورة الفرنسية ولكنها

ليست مختصة بهم فهي لا تزال كبيرة التأثير في سياستنا الحاضرة
ومع ان النفسية الدينية التي بحسنا عنها سابقاً هي عامل جوهري
في الروح اليقوية فانها لا تكفي لتكوينها ولا مندوحة في ذلك عن
عناصر أخرى سنبحث عنها الآن .

يزعم اليعاقبة بقاء تدنيهم وبان العقل النظري مسيرهم وقد
كانوا يستشهدون به ايام الثورة الفرنسية ويتخذونه دليلاً
لسيرهم .

قال اكثر المؤرخين بنزوع الروح اليقوية الى المعقول
وشاطرهم تان في هذا الرأي الفاسد فعزا كثيراً من اعمال اليعاقبة
الى مغالاتهم في المعقولات ، على انه يوجد في الصحائف التي بحث
فيها عنهم كثير من الحقائق وبما انها تستحق النظر والاعتبار فاني
اقتطف اهم ما جاء فيها .

قال هذا المؤلف ، « لم تكن غيرة النفس المفرطة والعقل
النظري بالشيء النادر عند البشر في اى بلد نرى ان مصدرى
الروح اليقوية المذكورين ازلان لا تناههما يد القناء ، ومتى ، يبلغ
المرء العشرين سنة من عمره فيدخل في معتك الحياة يستحوذ الغم
على عقله وزهو ، ففي البداية يكون المجتمع الذى نبت فيه عثرة في
سبيل عقله النظري لان المجتمع لم يكونه شارح فيلسوف حسب

مبدأ بسيط بل اوجدته الاجيال المتعاقبة حسب حوائجها الكثيرة
 المتحولة اى انه ليس من صنع المنطق بل من صنع التاريخ ، ثم يهز
 المتعقل المبتدأ كتمفيه هزواً ازاء هذا البناء الهرم ذى الدعائم
 التي لم تقم على نظام وذى العمارة التي لا رابطة بين اجزائها والتي
 يبدو عليها الرق والترقيق . لا يكون اكثر الشبان — ولا سيما من
 عليهم ان يخوضوا غمار الحياة — عند خروجهم من المدرسة الامن
 اليعاقة في الغالب ولا يثبت هؤلاء الا في بيئة اجتماعية منحلة الاجزاء
 كما يثبت الفطر في ارض متخمرة ، فانظروا الى احسن ما انتجته
 قرائهم اى الى خطب روبسيير وسان جوست والى مباحثات
 المجلس التشريعي الاول ومجلس العهد واقوال الجيرونديين
 والموتانيارين مع منشوراتهم وتقاريرهم تروا انه اتي فيها باكثر
 الكلام للتعبير عن ما يتطلب اقله وان كل حقيقة كانت تترق في
 بحر ممل من كلماتها المقعرة والفاظها المفخمة ، ويحترم اليقيني ما
 يدور في دماغه المتعقل من الاوهام والخيالات التي هي حقيقة عنده
 اكبر من غيرها ولا يعبا الا بما توحى اليه فهو يسير مخلصاً في موكب
 بصورة الخيال في نفسه وما يتكون في مخيلته من ملايين الزائهم
 النظرية تعاضده معاضدة تامة فيصرخ بين الناس بصدى صوته
 الخاص كما تهلل النوبة ايام النصر»

واني وان كنت اعجب لبيان تايين فاني لا اعتقد بانه فهم نفسه
اليقوبي تماماً •

تركب روح اليقوبي الحقيقي — سواء في ايام الثورة
الفرنساوية أم في أيامنا — من عناصر يجب تحليلها لادراك شأنها •
ويدلنا هذا التحليل أولاً ان اليقوبي معتقد غير عقلي وانه
فضلاً عن كونه لا يؤسس معتقده على العقل فانه يسكب العقل في
قالب معتقده وان خطبه وان كانت مشبعة بالعقليات فانه لا يستخدمها
في خواطره وسيره الا قليلاً ، ولو كان اليقوبي يتعقل بنسبة ما يلام
عليه من التعقل للبي نداء العقل في بعض المرات ، الا أن المشاهدة
دلتنا منذ الثورة الفرنسية حتى الآن على أن العقل مهما كان
سديداً لم يؤثر فيه قط وهذا هو سر قوته ومنعته ، وسبب عدم
تأثير العقل فيه هو ان قصر نظره في سير الأمور لا يسمح له بمقاومة
اندفاعاته العاطفية المسيرة اياه •

ولا يكتفي هذان العنصران اى العقل الضعيف والعواطف
القوية في تكوين النفسية اليقوبية بل يوجد ايضاً عنصر آخر •
تدعم العاطفة العقائد ولا تكونها أبداً . وبما ان اليقوبي
الحقيقي ذو عقائد راسخة فما هو ركن هذه العقائد؟ هنا يبدو لنا تأثير
عناصر الدين التي يحثنا عنها سابقاً ، فاليقوبي متدين أقام مقام آلهته

القديمة آلهة جديدة ، ولما كان اللا لفاظ والصيغ سلطان قوي على نفسه فانه يعزو اليها قوة إلهية ولا يتأخر في سبيل خدمة هذه الآلهة الكثيرة الطاب عن الاتيان بأقصى الأعمال ، والدليل على ذلك ماسنه اليعاقبة في الوقت الحاضر من القوانين .

وتوجد النفسية اليعقوبية خاصة عند ذوى الاخلاق المتحمسة الضيقة وتتضمن هذه النفسية فكراً قاصراً عنيداً يجعل النقد وكل شيء خارج عن الايمان غير مؤثراً فيها ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من عناصر التدين والعناصر العاطفية يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . ولما كان بهذا لا يدرك من الامور الا علاقتها الظاهرية فانه يظن بان ما يتولد في روحه من الصور الوهمية عبارة عن حقائق ويفوته ارتباط الحوادث بعضها ببعض وما ينشأ عن ذلك من النتائج فلا يحول بصره عن خياله أبداً .

إذا فاليعقوبى لا يقترب الآثام لتقدم منطقته العقلي إذ لا يملك منه الا قليلاً وانما يسير متيقناً وعقله الضعيف يخدم اندفاعاته حيث يتردد الرجل ذو المصارف السامية فيقف . واذ قيل ان اليعقوبى متعقل كبير فذلك لا يدل على انه مسير بالعقل وهو وان تخيل ان العقل قائده فان تدينه وعواطفه هي التي تسيره في الحقيقة فهو - كجميع المعتقدين المقذوفين الى ميدان المعتقد - عاجز عن

الخروج من ذلك .

ويشبه بصفته اللاهوتية المكافحة انصار كالفان الذين بحثنا
عندهم في فصل سابق قائلين بانه لم يشتهم عن ايمانهم الذي نومهم
شيء وبأنهم رأوا كل من يخالفهم في معتقدهم جديراً بالموت . كان
هؤلاء ايضاً من المتعقلين فلما جهلوا كاليعاقبة ما يسيروهم من القوي
الخفية ظنوا بأن رائدهم هو العقل وحده مع ان الذي قادهم هو خلق
التدين والحماسة

يتعذر استكناه العقوي إذا قيل عنه انه متعقل ولا ينفعا حينئذ
الاف في القنوط من العقل واما إذا قيل عنه انه متحمس متدين فان معرفة
أمره تكون على خلاف ذلك سهلة

وهذه العناصر الثلاثة - اي العقل الضعيف والحماسة الشديدة
والتدين القوي - هي المكونة للروح العقوبية



الفصل الثالث

النفسية الثورية والنفسية المجرمة

١ - النفسية الثورية

بيننا ان عناصر الدين هي احدى المركبات للروح اليعقوبية
وسنرى انها تدخل في تركيب نفسية أخرى بارزة وهي النفسية
الثورية .

ان المجتمعات في كل زمان تحتوى عدداً من النفوس المضطربة
المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد على اي نظام ، تشور هذه النفوس
راغبة في الفتنة ذاتها ولو ان قوة سحرية حققت جميع رغائبها بلا
قيد ولا شرط لما كفت عن التمرد .

وتنشأ هذه النفسية في الغالب عن عدم التمام المرء مع بيئته او
عن مغالاة في الدين وقد تنشأ ايضاً عن المزاج او عن مرض
للتمرد درجات مختلفة تتراوح بين الاستياء الطفيف الذي
ينحصر في كلام المرء على الناس والاشياء وبين الميل الى التخريب ،
وقد يصوب المرء صولته الثورية احياناً نحو نفسه إذا عجز عن
التصرف بها على طريقة أخرى فلقد كثرت في روسيا عدد المجانين

الذين لم يكتفوا بما يضرهمونه من الحريق وبما يقذفونه بين الجموع من القنابل بلا تبصر فأخذوا يقتلون انفسهم .

ويسهل إغواء هؤلاء العصاة الذين أضلت بعض الوسوس نفوسهم الدينية فهم رغم ما تدل عليه أعمالهم من العزيمة الظاهرة ضعفاء عاجزون عن مقاومة ما يستحوذ عليهم من المحرضات وتتفع الروح الدينية الباعثة في قلوبهم حماسة في إتيانها بحجج مبررة لمظالمهم يتخيلون معها انهم من أكابر المصلحين .

تردع القوانين والبيئة وكل زاجر اجتماعي العصاة في الاوقات الاعتيادية فيظلمون لا تأثير لهم ، ولكن متى بدت أدوار الفتن فان هذه الزواجر تضعف فيقدر العصاة وقتئذٍ على اطلاق العنان لغرائزهم فيصبحون زعماء للفتن ، ولا يهمهم الباعث الحقيقي للثورة فيقتتلون سواء للحصول على الراية الحمراء او البيضاء ام لتحرير الوطن الذي لم يسمعوا عنه سوى كلام مبهم .

وقد لا تكون الروح الثورية ذات خطر ، وهي ان صدرت عن العقل بدلاً من العاطفة او خلق الدين فانها تصبح منبعاً للتقدم والرقى ، وعند ما يصير حكم التقاليد والعادة ثقيلاً على الحضارة فانها تتخلص منه بواسطة ارباب النفوس المستقلة استقلالاً يكفيها لان تكون ذات عقلية ثورية ، فهؤلاء خاصة هم الذين اوجبوا تقدم العلوم

والفنون والصناعة ولذلك 'عدّ غاليله ولا فوازيه ووداروين وباستور
من الثوريين •

وإذا لم يكن من الضروري ان يوجد في الامة كثير من هؤلاء
فانه يجب ان يكون عندها عدد منهم على كل حال إذ لولاهم لظل
الانسان عائشاً في الكهوف الأولى ، وتتطلب الجرأة الثورية التي
تظهر ما عند صاحبها من المكتشفات قابليات نادرة ولا سيما استقلالاً
ذهنياً ليتخلص به من الافكار الجارية بين الناس وحصافة ليدرك
بها ما ينطوي تحت المشابهات السطحية من الحقائق وتكون هذه
الروح الثورية مبدعة خلافاً للروح الثورية المخربة التي بحثنا عنها
سابقاً • إذا قد تكون النفسية الثورية نافعة ولكنها لا تلبث ان تصبح
مضرة عند الافراط والمغالاة •

٢ - النفسية المجرمة

قدر لجميع المجتمعات المتمدنة ان تشمل على ثمالة من المنحطين
وعديمي الالتئام وذوي النقائص المتنوعة ويتكون من هؤلاء
المتشردين والصعاليك والمذنبين والمحكوم عليهم والسارقين والقتلة
والسائلين فريق المدن الكبيرة المجرم والشرطة هي الوازة لهم في
الأزمنة الاعتيادية ولا يوجد ما يردعهم ايام الثورات فيسهل عليهم
فيها ان يقتلوا ويسلبوا ومنهم يجمع رجال الثورة جنودهم ، وبما انهم

لا يطمعون الا في القتل والنهب فانهم لا يباليون بالغاية التي يدافعون عنها ولا يتأخرون ساعة عن الالتحاق بالحزب المتفقر مبدلين رايتهم إذا كان حظهم من القتل والسلب عنده اكثر .

ويضاف الى هؤلاء المجرمين الذين هم داء المجتمعات العضال فريق شبه المجرمين فلا يتمرد هذا الفريق الذي يأتي بالمشكر عند سنوح الفرص وقما يستحوذ عليه الخوف من النظام المسنون ولكنه لا يلبث ان ينضم الى زمر العصاة حينما يعتري هذا النظام وهن . ويتكون من هذين الفريقين — اي المجرمين اعتياداً والمجرمين انتهازاً — جحفل مغل بالنظام وعليه يعتمد جميع الثوريين وجميع القاعين بالفتن الدينية والسياسية .

قلنا سابقاً ان هذه الفئة ذات النفسية المجرمة كانت عظمة النفوذ ايام الثورة الفرنسية فسابت الى ما كان يقع كل يوم من الهرج ، وقد قص علينا بعض المؤرخين — وهم خاشعون — خبر الاوامر التي كانت تحملها الجماعة الحاكمة الى مجلس العهد مستولية على بهوه مسلحة بالحرايب المزيّن رؤوس بعضها برؤوس مقطوعة ، ولو نجحنا عن العناصر التي كانت تتركب منها هذه الجماعة التي ادعت بانها وكيلة الشعب الحاكم لرأينا ان معظمها من اللصوص وان أقلها من اصحاب النفوس الساذجة الذين يسرون حسب ما يحرضهم الزعماء

والى اولئك اللصوص تعزى المذابح العديدة كهذابح شهر ايلول
وقتل الأميرة (لامبال) •

انها ارهبت جميع المجالس التي التأمت منذ المجالس التأسيسية
حتى مجلس العهد وخربت فرنسا مدة عشر سنين ولو ان معجزة
قصت على هذا الجيش المجرم لكان سير الثورة الفرنسية خلاف
ما وقع فلقد ضرجها بالدماء منذ فجرها حتى غروبها وليس للعقل
سلطان عليه وانه للعقل لمن القاهرين •



الفصل الرابع روح الجموع الثورية

١ - صفات الجموع العامة

لا تأتي الثورات مهما كان مصدرها بجميع نتائجها الا بعد دخولها في نفوس الجماعات ولهذا فانها نتيجة لروح الجموع .
ومع اني بحثت مطولاً في كتاب آخر عن روح الجماعات فان
الضرورة تقضي علي بان اذكر هنا سننها الاساسية :

ان المرء وهو جزء من الجماعة يختلف جدا عنه وهو منفرد
فذا تيته الشاعرة تفنى في ذاتية الجماعة الاشاعرة . وليس من
الضروري ان يتصل المرء بالجماعة اتصالاً مادياً ليكتسب نفسية
الجماعة بل يكفي غالباً لتكوين هذه النفسية ما ينشأ عن بعض
الحوادث من الانفعالات والمشاعر العامة .

ولروح الجماعة التي تتشكل وقتياً مركب خاص ويتصف هذا
المركب الاساسي بان تكون العناصر الاشعورية متغلبة عليه تغلباً تاماً
وهذه العناصر تخضع لأحكام منطق خاص يسمى بمنطق الجماعات
ونعد من الاوصاف الاخرى للجموع مغالاتها في سرعة

التصديق وسرعة الانفعال وعدم التبصر وعجزها عن التأثر بالمعقول
فلا يمكن اقناعها الا بالتوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ ، وليس
للحقائق والتجارب تأثير فيها ويمكن حملها على تصديق كل شيء إذ
لا يوجد ما هو مستحيل في نظرها .

وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها ذات
مشاعر مفرطة وتكون هذه المشاعر اما ضارة او نافعة . ويعظم
هذا الإفراط في ايام الثورة فأقل تحريض يدفع الجماعات وقشد
الى القيام بأقصى الأعمال . ويزداد في ايام الثورات ايضاً ما تتصف
به الجماعات في الأحوال الاعتيادية من سرعة التصديق فتعتقد بصحة
ما لا يمكن تصديقه من الأقاصيص . ذكر (ارثور يانغ) ان الشعب
قد قبض — عند ما كان يزور ايام الثورة الفرنسية المنابع القريبة
من (قلير مون) — على دليله لاعتقاده بأنه جاء لينسف المدينة كما
أمرته الملكة ثم اخذ الناس بعد ذلك يتناقلون اشنع الاحاديث
عن بيت الملك عادين اياه من الغيلان والعفاريث .

تثبت لنا هذه الصفات ان الانسان وهو جزؤ من الجماعة يهبط
كثيراً من سلم الحضارة فتصدر عنه عيوب الشراسة ومزايها اي
انواع الظلم والاستبداد وانواع الجحاسة والبطولة ، ولهذا فان
الجماعة وان كانت من الجهة العقلية أدنى من الرجل المنفرد فانها قد

تكون اسمى منه شعوراً وخلقاً، ويسهل عليها ان تقترف إثماً كما
يسهل عليها ان تبذل نفسها •

وتتلاشى الاخلاق الشخصية في الجماعات لما لها من التأثير في
افرادها فيصبح فيها البخل متلاًفاً والمرتأب معتقداً والصالح مجرماً
والنذل بطلاً وما أكثر أمثلة هذه التحولات في الثورة الفرنسية
فالإنسان يبدي وهو مجتمع سواء أكان من الخلفين أم من
اعضاء البرلمان ما لا يخطر بباله وهو منفرد من حكم في قضية أو رأي
في قانون •

ومن أهم النتائج التي تنشأ عن تأثير الجماعة في أفرادها توحيد
مشاعرهم وعزائهم ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات
قوة عظيمة، والباعث لتكوين مثل هذه الوحدة النفسية هو
انتشار المشاعر والحركات والاعمال بين الجماعة بالعدوى خاصة،
فالجماعة تستصوب على الفور اهتافاً حقداً أو غيظاً أو مودة وتردد
اصوات الهاتفين •

كيف تتولد هذه الارادة والمشاعر المشتركة ؟ انها تنتشر
بالعدوى ولكن تكون هذه العدوى يتطلب مصدراً وهذا المصدر
هو الزعيم الذي سنتكلم قريباً عن تأثيره في الحركات الثورية
والجماعة بلا زعيم تعجز عن السير والحركة •

يجب الاطلاع على نواميس روح الجماعات لتفسير حوادث الثورة الفرنسية وادراك سير المجالس الثورية وتطور اعضائها، فلما كانت القوى اللاشعورية لروح الجماعة هي الدافعة لهؤلاء، فقد كانوا يقولون ويصوتون غالباً خلاف ما يريدون.

ومع ان فريقاً من اكابر الساسة ادركوا بانفسهم سنن روح الجماعات فان اكثر الحكومات جهلت أمرها ولا تزال تجهله، وقد سهل هذا الجهل سقوط اكثرها وتوضح الاخطار الناشئة عن جهل روح الجماعات عند الاطلاع على السهولة التي اسقطت بها فتنة صغيرة بعض النظامات ولا سيما نظام لويس فليب، فقد جهل القائد الذي كان يقود عام ١٨٤٨ جنوداً كافية للدفاع عن ذلك الملك ان اختلاط الجماعة بالجند يؤدي الى شلل هؤلاء بالتلقين والعدوى وكفهم عن القيام بواجباتهم وانه لما كانت الجماعة تتأثر بالنفوذ فإنه يجب للتأثير فيها اراتها قوة قادرة على ايقاف مظاهراتها وان من الضروري تشييت الرعاع حالاً، والتجربة وان دلت على جميع هذه الامور فان حكمتها لم تدرك في ذلك الوقت واما في ايام الثورة الفرنسية الكبرى فان روح الجماعات كانت لا تخطر على البال.

*

* *

٢- كيف ان استقرار روح العرق

يضع حداً لتقلبات روح الجموع

يمكن تشبيه الشعب بالجماعة فالشعب يتصف ببعض صفات الجماعة الا ان روح العرق الذي ينتمي اليه الشعب يحدد تقلبات هذه الصفات ففي روح العرق ثبات لا عهد لروح الجماعة المتقلبة بمثله .

ومتى حصلت للشعب روح اريثية مستقرة بتعاقب الازمان فان هذه الروح تتغلب دائماً على روح الجماعة .

ويختلف الشعب عن الجماعة بتركبه من زمر ذات منافع ورغائب مختلفة وبما يوجد في الجماعة من افراد ينتمون الى طبقات اجتماعية متباينة .

يظهر الشعب احياناً كالجماعة بمظهر المتقلب ولكن لا يغيب عن بالنا انه يوجد وراء تقلبه وحماسته ومظالمه وهدمه غرائز ثابتة متصلة تدعمها روح العرق، وقد اثبت تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ العصر الذي بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب في نهاية الامر وما اكثر المرات التي جدد فيها الشعب حالاً بناء ما هدمه من الانظمة .

ولا يسهل التأثير في روح الشعب اي روح العرق كما يسهل في

روح الجماعات لأن وسائل التأثير في روح الشعب تسير معوجة
بطيئة كالجرائد والمحاضرات والخطب والكتب ويمكن رد عناصر
الاقناع في هذا الباب الى العناصر التي وصفناها سابقاً وهي التوكيد
والتكرار والنفوذ والعدوى .

قد تنال العدوى النفسية فجأة شعباً بأسره ولكنها لا تسري
في الغالب من فريق الى آخر الا رويداً رويداً فهكذا انتشر الاصلاح
الديني في فرنسا . ومع ان الشعب يهيج اقل من الجماعة فان بعض
الحوادث كشمه وتهديده بالغزو قد تثيره بغتة وقد شوهد ذلك
اكثر من مرة ايام الثورة الفرنسية ولا سيما وقتما توعد (دوك)
برونسويك) الامة الفرنسية جاهلاً بنفسيتها ، فام يضر بذلك
لويس السادس عشر وحده بل اضر نفسه اذ جرت مداخلته الى
قيام جيش اقاتلته .

ويشاهد انفجار مشاعر العرق فجأة عند جميع الادم ولم يدرك
نابليون مافي هذه المشاعر من القوة وقتما اغار على اسبانيا وروسيا
ان الفلاح الروسي كان على التحقيق خلواً خشناً سخيلاً ولكنه
لم يعلم بفكرة نابليون تطورت صفاته . ويمكن استجلاء ذلك من
العبارة الاتية التي تقتطفها من رسالة اليصابات زوجة القيصر اسكندر
الاول واليك ايها :

« لقد التهب القلوب في روسيا منذ اخترق نابليون ثغورنا ولو
أن الخبر عمّ جميع أنحاء الدولة في آن واحد لخرج صوت هائل من
السيخطيرن صدها في أقصى حدود العالم على ما اعتقد وكان كلما
اوغل نابليون في البلاد يعظم ذلك الشعور، وصار الشيوخ الذين اضاعوا
اموالهم يقولون « سنجد مانسد به خلتنا وكل شيء افضل عندنا من
صلح ميخز » واصبحت النساء اللواتي لهن ازواج في الجيش لا ينظرن
الى ما يحيق بهن من الاخطار الا كأسر ثانوي ولا يخشين الا الصلح
لان هذا الصلح الذي هو قضاء على روسيا بالموت غير ميمون ،
وكل ذلك لم يخطر ببال القيصر ولو اراده لما قدر عليه فهذا ما في
بلادنا من البطولة . »

ولقد قصت الامبراطورة المذكورة على والدتها الحادتين
الآتين اللذين يستدل بهما على درجة ما في نفوس الروس من
المقاومة :

« جذب الفرنسيون في موسكو بعض تعساء الفلاحين
ليستخدموهم في جيشهم ووسموهم في يدهم كما توسم الخيل لكيلا
يفروا الا أن احدهم سأل عن ما تدل عليه هذه السمة فأجيب بانها
تدل على كونه جندياً فرنسياً فأصرخ حينئذ قائلاً « يا عجباً أأكون
من جنود امبراطور فرنسا » ثم تناول فأساً وقطع بها يده ورمها

على ارجل الحضور قائلا : خذوا سميتكم هذه »

« وقبض الفرنسيون في موسكو على عشرين فلاحاً ليجعلوهم
عبرة يخيفون بها القرى التي كانت تحتطف الرواد الفرنسيين
مجيئة القتال كالكتائب المنظمة فصفوهم بالقرب من حائط وقرأوا
عليهم حكم القتل باللغة الروسية وكان الفرنسيون ينتظرون ان
يطلب هؤلاء العفو الا أنهم بدلاً من ذلك طلبوا اليهم ان يهلوهم
ليصلبوا ثم اطلقوا الرصاص على الاول منتظرين ان يخاف الآخرون
فيسألوا العفو واعدوا بتغير ساو كههم، ثم اطلقوا الرصاص على الثاني
والثالث وعلى من بقي من العشرين دون ان يستمطر واحد منهم
رحمة العدو . »

وتكون الروح الشعبية عند جميع الشعوب مشبعة بخلق التدين
دائماً فالشعب يعتقد بوجود كائنات علوية — كالألهة او الحكومات
او اعظم الرجال — قادرة على تحويل الامور كيفما تريد . ويورت
هذا الخلق عند الشعب ميلا شديداً الى العبادة فيحتاج الى معبود
سواء كان رجلاً ام مذهباً ويتطلب عندما تخيفه القوضى مسيحياً
منقذاً .

والشعوب تستقل كالجاعات من العبادة الى الحق الا ان اتقالتها
هذا يقع رويداً رويداً فقد تلعن اليوم من عبده في الماضي وهذا

التبدل في الآراء الشعبية يشاهد في جميع البلاد مثال ذلك تاريخ
كرومويل^(١)

٣ — شأن الزعماء في الحركات الثورية

ذكرنا ان جميع الجماعات متجانسة كانت ام متباينة وجميع المجالس
والامم والاندية تعجز عن السير اذا لم يكن عليها سيد يقودها،
وبينت في كتاب آخر — مستعينا ببعض تجارب علم وظائف الاعضاء —
ان روح الجماعة اللاشاعرة ترتبط بروح زعيمها فهو الذي يمنحها
ارادة واحدة ويلزمها بالطاعة المطلقة •

يؤثر الزعيم في الجماعة بالتلقين خاصة ويتوقف نجاحه على
طريقة تلقينه وقد اثبتت التجارب الكثيرة ان تلقين الجماعة
سهل جداً •

والجماعة تكون بحسب انواع التلقين اما هادئة او هائجة
او مجرمة او ذات بطولة وهذه الاحوال وان جاز ان تكون ذات
مظهر عقلي فانه ليس فيها من العقل سوى الظواهر ، فلما كانت
الجماعة لا تتأثر بالمقول فان الافكار المؤثرة فيها هي المشاعر التي
يؤتي بها على شكل الاخيلة •

(١) لقد دفن كرومويل كما يدفن الملوك بعد ان اسقط اسرة مملكة ورفض
تاج الملك ولكنه لم يمض عامان على موته حتى انتزع جسده من قبره وقطع الجلاد
رأسه معلناً اياه على باب البرلمان •

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على سهولة اتباع الجماعات لما يأتي به الزعماء من التحريض المتناقض ، فهي قد هتفت لفوز الجيرونديين والايبريين والدانطونيين ورجال الهول الا كبر كما هتفت لسقوطهم .

ولا يشاهد شأن الزعماء بعد تقادم العهد الابصورية ملتبسة لانهم يسيرون سرّاً ولذلك يجب لاستجلاء هذا الشأن ان يبحث عنه في الحوادث الحديثة إذ تبدو حينئذ سهولة تحريك الزعماء للناس ولا نشير هنا الى اعتصابات موظفي البريد والمعدنين التي قد يقال بان الباعث عليها هو استيائهم بل نشير الى الحوادث التي لامتفعة للجماعة فيها كالهرج الذي اوجبه بعض زعماء الاشتراكية بين سكان باريس في اليوم الثاني من اعدام الفوضوي (فيرير) في اسبانيا . لم يسمع الناس في فرنسا قبل ذلك شيئاً عنه وما شعر احد باعدامه في اسبانيا الا أن تحريض بعض الزعماء في باريس كفى لسوق جيش شعبي على السفارة الاسبانية بقصد احراقها وهذا ما أدى الى استخدام حامية حمايتها ، ولما دافع المهاجون عنها اقتصروا على تخريب بعض المخازن لانشاء بضعة متاريس .

وقد اتى الزعماء في ذلك الوقت بدليل جديد على تأثيرهم فلما أحسوا بان احراق سفارة اجنبية امر ذو خطر اشاروا الى الجماعة

في اليوم الثاني باقامة مظاهرة سلمية فاطاعتهم كما فعلت وقمنا أسروها
بالتمرد ولا يوجد ما هو احسن من هذا المثال لاثبات شأن الزعماء
وطاعة الجموع • واما المؤرخون - من ميشيليه الى الموسيو اولار -
الذين قالوا بان الجماعات الثورية تسير بدون زعماء فقد جهلوا
نفسيتها •



الفصل الخامس روح المجالس الثورية

١ - الصفات النفسية للمجالس الثورية الكبيرة

ان المجلس السيامي الكبير - كالبرلمان مثلاً - هو جماعة وقد تكون هذه الجماعة ذات فاعلية قليلة اذا تناقضت مشاعر مافيهها من الاحزاب، وقد تعتبر هذه الاحزاب المختلفة مصالحها مجلساً ذا جماعات متباينة خاضعة الى زعمائها فلا يتجلى ناموس الوحدة النفسية للجماعات حينئذ الا في كل حزب على حدته، والظروف الاستثنائية وحدها هي التي تجمع بين عزائم تلك الاحزاب .

لكل حزب من احزاب المجلس كيان يفتى فيه محدثوه فيصوتون فيه لخلاف ما يعتقدون وما يريدون . ولقد احتج (فيرنيو) ساخطاً على فكرة الحكم بالاعدام على لويس السادس عشر ولكنه صوت لها في اليوم الثاني من احتجاجه .

ويؤثر الحزب خاصة في تثبيت ما تردد من الآراء فيصبح ايمان كل شخص ضعيف قوياً عندما يصير جموعياً .

ويستطيع ذوو النفوذ من الزعماء ان يؤثروا احياناً في جميع

احزاب المجلس فيكونوا منها جماعة واحدة، ولقد أثر عدد يسير من مثل هؤلاء الزعماء على أعضاء مجلس العهد فجعلوهم يأتون بما يناقض آراءهم من الاعمال .

اذنعت الجماعات في كل زمان الى الطواغيت الاشداء فاثبت لنا تاريخ المجالس الثورية مقدار فزع هذه المجالس من زعماء الفتن مع تطاؤها باللسان على الملوك فكانت تصوت في جلسة واحدة لأكثر الامور مناقضة للمعقول خشية من إغارة فئة متخبطة يقودها زعماء جبارون .

وعند ما يحصل للمجلس ما للجماعة من الصفات فانه يصبح مثلها ذامشاعر متطرفة اي انه يصير مسرفاً في قوته كما انه قد يصير مسرفاً في جنبه ويكون عاتياً مع الضعفاء ذليلاً امام الاقوياء فالشكل يعلم ما استحوذ على البرلمان من الخوف وقما دخل عليه الشاب لويس الرابع عشر والسوط بيده ليلقي خطابه كما ان الشكل يعلم ما عامل به المجلس التأسيسي لويس السادس عشر من الوقاحة كلما كان يشعر بانه ضعيف أعزل، وما ذعر رجال العهد ايام روبسبين بأمر مجهول .

ولما كانت صفات المجالس المذكورة سنة عامة صار من الخطأ النفسي العظيم ان يدعو الملك عند ما تهن قوته مجلساً للاجتماع فقد

أدى اجتماع المجلس النيابي الى اعدام لويس السادس عشر وأضاع هنري الثالث عرشه عند ما اضطر الى مغادرة باريس وجمع المجلس النيابي في (بلوا) • إذ عند ما احس هذا المجلس بضعف الملك اخذ في الحال يتكلم كسيد فغير الضرائب وعزل الموظفين وادعى بان لقراراته ما للقانون من القوة •

شوهه الغلو في المشاعر بين جميع مجالس الثورة الفرنسية فابتلع المجلس التأسيسي الذي كان في البداية يحترم سلطة الملك وامتيازاته السيادة رويداً رويداً ثم صرح بانه هو الحاكم وشرع يعامل لويس السادس عشر كموظف بسيط وجاء مجلس العهد بعده فكان في اول الامر معتدلاً ثم دخل في الطور الاول من دور الهول فكانت احكامه مخوفة ببعض الضمانات القانونية الا انه لم يلبث ان أفرط في سطوته فسن قانوناً حرم به المتهمين من حق المدافعة وسمح بالحكم عليهم عند الشبهات، وقد أدى تدرجه في سفك الدماء الى اقتتال اعضائه فاعدم الجير ونديين ثم الايريين ثم الدانطونيين ثم الروبسييريين • راضياً

وتوضح لنا سرعة التقلب في مشاعر المجالس سبب كونها لا تتصرف بمقاديرها الا قليلاً وانها تأتي بنتائج مخالفة لمقاصدها، فقد ساق المجلس التأسيسي المؤلف من الحزب الكاثوليكي والحزب الملكي

فرنسا الى جمهورية غنيقة بدلا من الملكية الدستورية التي كان يريد ان يؤسسها كما ساقها الى اضطهاد الاكليروس بدلا من إعلاء الديانة التي كان يود ان يدافع عنها .

رأينا ان المجالس السياسية تتركب من احزاب متباينة ولكنه يوجد مجالس متجانسة كـ بعض الاندية التي كانت ذات شأن عظيم ايام الثورة الفرنسية والتي تستحق ان يبحث عن روحها بحثاً خاصاً .

٢ - روح الاندية السياسية

تختلف الجمعيات الصغيرة - ذات الآراء والمعتقدات والمنافع الواحدة - عن المجالس الكبيرة بوحدة مشاعرها وعزائمها، وهذه هي حالة البلديات والجامع الدينية وطوائف اصحاب الحرف في العهد السابق وحال الاندية ايام الثورة الفرنسية وحال الجمعيات الخفية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ثم حال الماسونيين وتقابات العمال في الوقت الحاضر .

ويقتضي لادرالك سير الثورة الفرنسية ان يبحث عن الفرق بين المجلس المتباين وبين النادي المتجانس، فالاندية هي التي سيطرت على الثورة الفرنسية حتى عهد الديكتاتور وهذه السيطرة كانت بارزة في دور العهد .

ان الاندية تخضع لنواميس روح الجماعات رغم وحدة عزائها
الناشئة عن فقدان الاحزاب فيها، فهي تستكين للزعماء كما شوهد في
النادي العقوبي الذي كان يقوده روبسيير

ويكون تأثير الزعيم في النادي اي في الجماعة المتجانسة اكثر
صعوبة من تأثيره في الجماعة المتباينة فيسهل في قيادة الجماعة المتباينة ان
يهتز عدد قليل من اوتارها واما في الجماعة المتجانسة كالنادي مثلا
حيث تكون الشاعر والمنافع واحدة فيقتضي مداراة هذه الشاعر
والمنافع ولهذا قد يصبح الزعيم مساقاً .

وللجماعات المتجانسة في خفاؤها قوة عظيمة ومن الامور المعلومة
انه كفى ايام (الكومون) عام ١٨٧١ بضعة اوامر خفية لاحتراق
اجمل ابنية باريس كدار البلدية وقصر التويلري وديوان المحاسبة
وبيت جوقة الشرف . كان امر اللجنة الخفية الوحيد كقولها (احرقوا
بيت المال و احرقوا قصر التويلري ١٠٠٠ الخ) ينفذ حالا ، والصندفة
هي التي انقذت وقتئذ قصر اللوفر وما فيه من التحف ، ومن الامور
المعلومة ايضا ان يصغي الآن باحترام الى الاوامر التي يصدرها رؤساء
نقابات العمال الخفيون رغم مخالفة هذه الاوامر للصواب ، ولم يكن
الاتقياد لاندية باريس وللهيئة الثورية المتمردة بأقل من ذلك ايام
الثورة الفرنسية فكان أمر واحد منها يكفي سوق رعا ع مسلحين

على المجلس التشريعي كي يملوا عليه رغائبهم •
وسوف نرى عند ما نلخص تاريخ العهد في فصل آخر كثرة
هذه الغارات واثقياد هذا المجلس — الذي وصفته الاقاصيص بشدة
البأس — لاوامر عصابة من الغوغاء . ولما حنكت التجارب رجال
الدير كتوار اغلقوا الاندية وقضوا على غارات الرعاع بقتلهم رمياً
بالرصاص •

لم يلبث مجلس العهد ان علم بأفضلية الجماعات المتجانسة في
الحكم على المجالس المتباينة وهذا هو سبب انقسامه الى لجن تشتمل
كل واحدة منها على عدد يسير من الاعضاء وهذه اللجن كالجنة السلامة
العامة ولجنة المالية الخ اصبحت مجالس صغيرة حاكمة ضمن المجلس
الكبير ، وما احبط سلطتها الا لطة الاندية •

تدلنا الملاحظات السابقة على ما للجماعات من التأثير في إرادة
اعضاءها ، فاذا كانت الجماعة متجانسة فيكون هذا التأثير عظيماً ويكون
اقل من ذلك اذا كانت متباينة ولكنه قد يكون عظيماً إما لتغلب
الجماعات النافذة في المجلس على الجماعات الضعيفة الالتحام ام لانتشار
بعض المشاعر بالعدوى بين اعضاء المجلس •

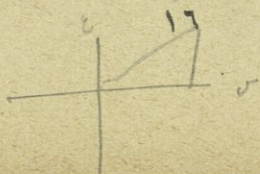
واحسن مثال على تأثير الجماعات هو تصويت الاشراف في الليلة
الرابعة من شهر اغسطس (ايام الثورة الفرنسية) لاقتراح احدهم

القائل بالنزول عن امتيازاتهم الاقطاعية ، على ان الثورة الفرنسية نشأت من بعض الوجوه عن تمسك الكليروس والاشراف بامتيازاتهم والسبب في عدم تنزلهم عنها باديء الامر هو اتباعهم للسنة القائلة بان سلوك الناس وهم في الجماعة يخالف سلوكهم وهم منفردون ، ولو سُئل كل شريف وهو منفرد عن رأيه لأجاب وقتئذ بانه لا يتنزل عن حقوقه أبداً .

أورد نابليون وهو في جزيرة القديسة هيلانه أمثلة عجبية على تأثير المجالس في اعضائها فقال : « لم يوجد في ذلك الوقت ما هو اكثر من مصادقة اشخاص هم على خلاف ما سمع عن اقوالهم وافعالهم . خذ (مونج) مثلاً ترانه صعد على منبر اليعاقبة لما اختير الحرب وصرح بانه يهب ابنتيه سلفاً للجنديين الاولين الذين يجرحهما العدو وكان يود ان يُقتل جميع الاشراف .. الخ مع أنه من اكثر الناس دمائة واشدهم ضعفاً ولو اضطر الى ذبح فروجة لما فعل ذلك ولما سمح بان يفعل ذلك أمامه . »

٣ - ايضاح اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس

لو امكننا ان نقيس مشاعر الجماعات قياساً رياضياً دقيقاً لاستطعنا ان نشرحها على خط منحن يصعد من طرفه الاول ببطء ثم بسرعة ثم يهبط نحو طرفه الثاني عمودياً ويمكن ان تسمى معادلة هذا المنحني



بمعادلة تحولات مشاعر الجماعات المحرّضة تحرّيضاً مستمراً .

وليس من السهل ايضاح سرعة المشاعر الناشئة عن علل مستمرة ولو كانت سنن علم النفس مشابهة لسنن علم الميكانيك لجاز لنا ان نعتبر ان علة ثابتة المقدار مستمرة التأثير تزيد في سرعة المشاعر ، فمن المسائل المعلومة ان قوة ذات مقدار ثابت واتجاه مستمر كالجاذبية المؤثرة في احد الاجرام تحدث في الجرم حركة متزايدة السرعة فتكون سرعة الجرم الساقط في الفضاء بتأثير الجاذبية عشرة أمتار في الثانية الاولى وعشرين متراً في الثانية التالية وثلاثين متراً في الثانية الثالثة وهكذا يسهل علينا ان نمنح الجرم عند ما نسقطه من العلاء سرعة كافية لحرق صفيحة من الفولاذ .

غير ان هذا الايضاح الذي يمكن تطبيقه على سرعة المشاعر التابعة لمؤثرات مستمرة لا يوضح لنا سبب كون هذه المؤثرات تصبح بفترة عديمة التأثير . لا يمكن ادراك هذا التوقف الا اذا استعنا بشروح علم وظائف الاعضاء اي الا اذا تذكرنا ان لللذة والالام حدوداً لا يمكن اجتيازها وانه ينشأ عن كل تحريض شديد شلل في الحس فاعضائنا لا تتحمل الا كمية معينة من الفرح والالام والمجهود فاليد التي تشدد على مقياس القوة لا تلبث ان تستنفد مجهودها فتضطر فجأة الى الكف عن مسكه .

ويجب - قياساً على ذلك - في البحث عن علة اختفاء بعض
المشاعر بغتة في المجالس ان نسلم بوجود احزاب ذات مشاعر ردعتها
قوة الحزب المتسلط عن النمو، ولكنه عند ما يضعف الحزب المتسلط
لسبب من الاسباب فان مشاعر الاحزاب المخالفة قد تشتد وذلك كما
وقع للموتانيارين بعد الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية
إذاً فمن الخطأ الجلي ان نقايس بين نواميس الحوادث المادية
وبين نواميس تطور عناصر العاطفة وعناصر التدين .



الجزء الثاني

الثورة الفرنسية

الباب الاول

مصادر الثورة الفرنسية

الفصل الاول

آراء المؤرخين في الثورة الفرنسية

١ - مؤرخو الثورة الفرنسية

تضاربت الآراء في الثورة الفرنسية ، وبالرغم من مضي عصر واحد عليها فان الناظر يرى ان البحث عنها والحكم فيها بلا غرض أمران مستحيلان ، فهي عند (روميستر) « عمل شيطاني » حيث قال « ان تأثير الشياطين لم يظهر في اي حين بجلاء كما ظهر فيها » وهي عند اليعاقبة مجددة للنوع البشري .

واما الاجانب المقيمون في فرنسا فيعدونها امراً اجتنب الخوض فيه . قال باريت ونيدل :

« لا تزال تلك الذكري والتقاليد حية في النفوس ولا يبحث عنها بلا محابة سوى أناس قلائل ، وبما انها تبعث الآن في النفوس حماسة وموجدة فلا ينظر اليها الا بعين التشيع والتحزب ، وكلما تتوصلون الى ادراك كنه فرنسا تحكمون بانه لم يبرز بعد بحث خال من الغرض عن الثورة الفرنسية لآي فرنساوي . »

ان هذه لملاحظة مطابقة للصواب فيجب لتفسير حوادث
الماضي تفسيراً عادلاً ان لا يبق لها تأثير في النفوس وان لا تتعاق
بالمعتقدات السياسية او الدينية التي أشرت الى عدم تسامحها الجبرى
إذاً فلا يوجد ما يورث العجب لابتداء المؤرخين آراء متناقضة
في الثورة الفرنسية وسيظل بعضهم ينظر مدة طويلة اليها كحادثة
كثيرة الشؤم كما سينظر البعض الآخر اليها كحادثة مجيدة . ظن بعضهم
انهم روهها بانصاف وانهم لم يفعلوا سوى طرح القضايا المتناقضة
البعيدة عن الصواب جانباً ، والواقع انه لما كانت الوثائق عديدة
متباينة فان ما اختاروه منها بقصد او بغير قصد برر بسهولة ما أبرزوه
من القضايا .

وقد نسي الناس اليوم مؤرخي الثورة الفرنسية السابقين
كتيار، وكنيه وميشليه بعض النسيان على ما اتصف به هذا الاخير
من سمو القريحة إذ يوجد في آرائهم شيء من التعقيد ويتغلب عليها
مبدأ القدر التاريخي . كان (تيار) يعد الثورة الفرنسية نتيجة
لعصور الملكية المطلقة ويعد الهول الاكبر نتيجة لازمة لغارة
الاجنبى ، ومع ان (كنيه) اعتبر ما حدث عام ١٧٩٣ من الاضطهادات
نتيجة لاستبداد قديم فانه رأى ان لافائدة في مظالم دور العهد
التي عاقت الثورة الفرنسية عن اتمام عملها واما (ميشليه) فلم ير

في هذه الثورة سوى عمل شعبي جدير بالاعجاب والتمجيد .
وقد محّا (تاي) كثيراً من نفوذ هذه التواريخ وهو مع حدة بيانه
اوضح كثيراً من حقائق الثورة الفرنسية وسوف لا يمضي زمن
قصير حتى يصبح كتابه مرجعاً لا يسد مسده اى كتاب .
ولا يخلو كتاب مهم مثل كتابه من عيوب لانه وان اجاد في
نصه على الحوادث والاشخاص فقد حكم بمنطقه العقلي على حوادث
لم يلمها العقل ولا يستطيع العقل ان يفسرها . نعم اجاد الوصف بعلمه
النقسي ولكن تفسيره كان ضعيفاً جداً فهو بأبوابه غطرسية (رويسبير)
لم يكتشف علة سلطان هذا الاخير على مجلس العهد الذي قتل كثيراً
من اعضائه في عدة اشهر ولذلك اصاب من قال ان تاي احسن
المشاهدة واساء الفهم .

ان كتاب تاي بالرغم عن ما فيه من النقص عظيم الشأن ولم
يوجد ما يعادله ويمكن تقدير ما لهذا الكتاب من النفوذ الواسع
عند الاطلاع على ما اوجبه من الغيظ في قلوب انصار المذهب
اليقوي المخلصين الذين يرأسهم الآن احد اساتذة (الصوربون) الموسيو
(اولار) . كرس هذا الاخير عامين لتأليف رسالة ضد (تاي) مشبع
كل سطر منها بروح الغضب وان ما اسرفه من الوقت لتصحيح
بضعة اغلاط مادية طفيقة في كتاب (تاي) لم يصنه عن ارتكاب مثلاً

فقد اظهر الموسيو (كوشان) ان الموسيو اولار ضل في نصف
اسانيده مع ان تايين لم يضل بهذا القدر ثم نبه هذا المؤرخ الى وجوب
الارتباب في مصادر الموسيو اولار كثيراً حيث قال :

« ان هذه المصادر المؤلفة من تقارير وصحف ورسائل لا صدق دليل على
الروح الوطنية في ذلك الزمان إذ كتب أكثرها غلاة الوطنية لاجل الجمهور
الذي كان يجد مكتوباً فيها قضية الدفاع وتاريخاً للثورة الفرنسية دالاً على اعمال
الشعب منذ ماذي ايلول حتى قانون الشهر التاسع من السنة الجمهورية ومحتوياً
ايضاحاً عن طريقة الدفاع الجمهوري » .

واحسن انتقاد على كتاب تايين هو القول بأنه ناقص ، وقد بحث
فيه خاصة عن شأن الرعاع وزعمائهم ايام الثورة الفرنسية فألمى
ذلك عليه صحائف سخط لا تزال داعية للعجب ، الا ان وجوهاً
كثيرة من هذه الثورة غابت عنه .

ومهما كان امر الثورة الفرنسية فان اختلافاً شديداً سيستمر
بين من ينتمي الى مذهب تايين ومذهب الموسيو اولار لأن اولار
يعتبر الشعب الحاكم باهراً مع ان تايين اثبت ان الشعب لما ترك يسير
بغرائزه وحرر من الزواجر الاجتماعية عاد الى دور الهيمنة الاولى
ولا يزال رأي الموسيو اولار المخالف لتعاليم روح الجماعات مذهباً
دينياً عند المعاقبة في الوقت الحاضر ، فهؤلاء ينهجون فيما يكتبونه
عن الثورة الفرنسية طرق المعتقدين وبراهينهم وينتحلون في

المصنفات العلمية أدلة علماء اللاهوت .

٢ — نظرية القضاء والقدر في الثورة الفرنسية

يقول انصار الثورة الفرنسية واعدائها في الغالب بأن الحوادث الثورية مقدرة وقد لخص هذا الرأي في العبارة الآتية التي جاءت في كتاب « تاريخ الثورة الفرنسية » تأليف إميل أوليفيه :

« ليس باستطاعة احد ان يقاومها وما من لوم يلحق من قتل او عاش في غضونها فالقدرة الشخصية عاجزة عن تبديل العناصر ومنع وقوع الحوادث الناشئة عن طبيعة الاحوال والظروف » .

ومال تان ايضاً الى مثل ذلك فقال :

« لم يكن سير الافكار والحوادث عندما افتتح المجلس النيابي مقدرراً فقط بل كان منظوراً فكل حيل يحمل معه مستقبله وتاريخه من غير ان يعلم »

ويوجد مؤلفون آخرون في الوقت الحاضر لا يصفحون كثيرون عن الاضطهادات الثورية ويقولون مثله بالقضاء والقدر ، فبعد ان نقل الموسيو (صورييل) كلمات (بوسيه) الآتية التي قالها في الثورات القديمة وهي : « ان من الغريب ان لا ينظر الا الى العلل الخاصة مع ان كل شيء يقع على سياق منظم » اعرب عن عزمه على « اثبات كون الثورة الفرنسية التي تبدو الى بعض الناس كهادمة للعالم الاوروبي الشائخ والى البعض الآخر كمجددة لشبابه هي نظام طبيعي ضروري لتاريخ اوروبا » وعلى « بيان كون نتائج هذه الثورة

صادرة عن هذا التاريخ وانه لا يمكن ايضاحها الا بسوابق العهد المتقدم «
وحاول (كينرو) ايضاً ان يثبت ان الثورة الفرنسية - التي
اخطأ في المقايسة بينها وبين الثورة الانكليزية - امر طبيعي وانها
لم تبتدع شيئاً فقال :

«لم تقطع الثورة الانكليزية ولا الثورة الفرنسية سير الحوادث الطبيعي في
اوروبا ولم تقولا شيئاً لم يقبل ولم تريد شيئاً لم يرغب فيه ولم تفعل شيئاً لم يفعل
مئة مرة قبل انفجارها . فاذا نظرنا الى مذاهب هاتين الثورتين او الى تطبيقها
اي سواء أنظرنا الى شكل الحكومة ام الى التشريع المدني ام الى الاموال ام
الى الاحوال الشخصية ام الى الحرية ام الى السلطة لما وجدنا شيئاً ابتدعه ولم
نصادفه في الاوقات الاعتيادية »

وكل هذه الاقوال تذكرنا بالناموس المتبدل القائل بان الحادثة
هي نتيجة لحادثة سابقة الا ان مثل هذا الناموس لا يدلنا الا على
شيء قليل .

لا يجوز ايضاح كثير من الحوادث بمبدأ (القدر التاريخي)
الذي رضي به كثير من المؤرخين وقد بحثت في كتاب آخر عن
قيمة هذه الاقدار فأثبت ان مجهود الحضارة يتوقف على تفكيك
عراها . لا ريب ان التاريخ مفعم بامور وقعت بحكم الضرورة ولكنه
مفعم ايضاً بامور وقعت عرضاً وكان يمكن ان لا تقع . ذكر نابليون
بونابارت وهو في جزيرة القديسة هيلانة ستة ظروف قادر كل منها

على منعه عن القيام بمهمته الحارقة للعادة فحدث خاصةً أنه لم ينبج من الموت عند ما كان يستحم في (او كصون) عام ١٧٨٦ الابلقائه على سبيل الصدفة كثيراً ولومات نابليون بونا بارت في تلك الساعة وقلنا ان قائداً آخر يظهر حينئذ ليقبض على زمام الحكم المطلق فماذا يكون مذكوراً في القصيدة الامبراطورية الحماسية بدلاً عن ذلك الداهية الذي قاد الجيوش الفرنسية ظافرة لفتح جميع عواصم اوروبا؟

يجوز ان نعتبر الثورة الفرنسية كحدث ضرورى من بعض الوجوه ولكنها كانت على الخصوص صراعاً بين النظريين المشبعين بالخيال الجديد وبين ما لم يدركوه من النواميس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المسيرة للبشر، وهذا الجهل جعلهم يحاولون في غير جدوى التغلب على سير الامور ولما اشتد غضبهم لفشلهم اضطهدوا الناس وأمرؤا بان يكون للورق النقدي ما للذهب من القيمة ولم يمنع ما أتوا به من الوعيد هذه القيمة الوهمية من السقوط العظيم، ثم سنوا قانون القصاص الشديد الذى زاد ما أرادوا تلافيه من الاجرام، وقد صرح روبسبير في مجلس العهد:

«انه سينفق على جنود الثورة من ما سيمد به الاغنياء بيت المال»

ولكن بيت المال ظل فارغاً رغم التفتيش والمقصلة .

اكتشف رجال الثورة الفرنسية بعد ان كسروا جميع

الزواج ان المجتمع لا يعيش بغيرها ولما أرادوا صنع زواج جديدة
رأوا ان أقوى ما يبدعونه منها — حتى التي تقوم على الخوف من
المقصلة — لاتسد مسد الأدب الذي غدى الماضي به النفوس
رويداً رويداً .

إذا فحوادث الثورة لم تنتج عن مقتضيات ثابتة بل كانت نتيجة
لمبادئ اليعاقبة وكان يمكن ان تكون شيئاً آخر ، أفلا يكون سير
الثورة الفرنسية خلاف ما وقع لو دُعي لويس السادس عشر
بالحكمة والموعظة الحسنة او لو كان المجلس التأسيسي أقل جبناً أزاء
فتن الرعاع ؟

يجب الارتباب من ما ينطوى تحت كلمة القدر من الجهل سواء
أفي الابحاث التاريخية ام في الابحاث العلمية ، فقد كانت الطبيعة حافلة
بالاقدار التي توصل العلم الى تبديدها ببطء ولا يفعل اعظم الرجال
كما أشرت في موضع آخر سوى ذلك التبديد .

٣ — شكوك المؤرخين في الثورة الفرنسية

ظهر المؤرخون الذين اشرنا الى افكارهم في هذا الفصل بمظهر
الجازم البات ولم ينفذوا الى دائرة العلم والمعرفة لحصر انفسهم في
دائرة المعتقد فالكاتب الملكي منهم شديد الحق على الثورة الفرنسية
والكاتب المتمذهب بمذهب الحرية كثير التحزب اليها . غير اننا

نشاهد الآن حركة ستؤدي حتما الى درس الثورة الفرنسية كاحدى
الحادثات العلمية التي ليس لآراء المؤلف ومعتقداته فيها سوى تأثير
قليل لا يشعر به القارىء .

لم يأت هذا الزمن بعد ولم نرسوى بزوغ فجر الشك الذى
يتقدمه ؛ فقد شرع كثير من الكتاب الذين كانوا قاطعين بما يؤلفون
لا يبتون في مؤلفاتهم ويمكن لاطلاع دلى هذه الذهنية الجديدة من
العبارات الآتية التي اقتطفناها من كتب المتأخرين :

تساءل الموسيو (هانوتو) بعد ان اتى على الثورة الفرنسية
عما إذا كانت نتائجها لم تكاف ثمنًا غالياً ثم قال :
« ستردد التاريخ زمنا طويلا قبل ان يعطى حكمه في ذلك »

وابدى الموسيو (مادلان) في كتابه الذى بحث فيه عن الثورة
الفرنساوية تردداً مثل ذلك فقال :

« لم ار في نفسي قدرة على اعطاء حكم بات في حادثة معقدة كالثورة
الفرنساوية ولا ازال استصعب الاتيان بأي حكم فيها وعندي ان علما واعمالها
وتأملها هي امور تتطلب مباحثات كثيرة بعد » .

ويظهر ايضا تطور الافكار القديمة الاخيرة في الثورة الفرنسية
عند تصفح ما يكتبه مدافعوها الرسميون الآن ، فبعد ان كانوا يبررون
ما جرى فيها من الاضطهادات قائلين بأنها دفاعية اخذوا يدافعون

عنها طالبين احكاماً مخففة فيها ، والدليل على هذه الحالة الروحية ما جاء في كتاب (تاريخ فرنسا) الذي ألفه الموسيو (اولار) والموسيو (دوييدور) حديثاً ليدرس في المدارس ، واليك العبارة الآتية التي جاءت في مجملهما عن دور الهول الاكبر :

« نعم سالت الدماء منهمة في الثورة الفرنسية واقترفت فيها مظالم وجرائم منكورة غير نافعة للدفاع الوطني ولكن النفوس استولت في هذه الزبوة فكان رجال الوطنية الذين تحجب بهم الاخطار يزهقون النفوس والسخط آخذ منهم كل مأخذ » .

وسنرى في جزء آخر من هذا الكتاب ان الموسيو (اولار) قليل التسامح مع « غيلان العهد » رغم تعصبه لليعقوبية .
واما احكام الاجانب في الثورة الفرنسية فقاسية على الاطلاق ولا عجب من ذلك عند ما تذكر ما اوجبه انقلابنا من المحن في اوروبا مدة عشرين سنة ، واحكام الااسان هي الاشد قساوة وقد خصها الموسيو (فاكيه) في السطور الآتية :

« فلنقل راجلي الجأش وطنين - واول شروط الوطنية ان يبلغ الانسان أمته حقيقة الامر - ان ألمانيا عدت فرنسا في الماضي امة اضطهدتها وازدرتها واخذت فيها ونهبتها وبلغتها مدة خمس عشرة سنة ماضغة في فها كامي الحرية والاخوة وتعتبرها في الوقت الحاضر امة تقيم تحت شعار هاتين الكلمتين ديمقراطية . مستبدة . ظالمة . مخربة غير صالحة ليقضي بها احد . هذا كل ما ترام ألمانيا في فرنسا وهذا ما تشير اليه جرائدها وكتبها » .

ونرى ان كتاب المستقبل سيعدون الثورة الفرنسية حادثاً مؤثراً اذا عبر مهما كانت قيمة الاحكام التي قيلت فيها . فحكومة ادى جبهها لسفك الدماء الى قطع رؤوس شيوخ جاوزوا حد الثمانين ورؤوس كثير من الاطفال والفتيات ، وحكومة مع تحريمها فرنسا قررت على دفع غارة اوروبا المدججة بالسلاح ، واميرة من بيت الملك في النمسا قطع رأسها بعد ان كانت ملكة فرنسا ، وأميرة اخرى من أقربائها قامت مكانها بعد ان تزوجت بامبراطور كان ضابطاً ، كلها حوادث فاجعة لم يرو التاريخ مثلاً . ولعلماء النفس في هذه القصة التي لم يقتلوها تمحيصاً فوائداً كثيرة إذ بها يكتشفون ان علم النفس لا يتقدم الا إذا عدلوا عن النظريات الوهمية وعن تجارب المختبرات واخذوا يبحثون عن ما يحيط بنا من الحوادث والموجودات ^(١)

(١) ان المسبب لهذه النصيحة هو عدم بحث علماء النفس عن العالم المحيط بهم الا قليلاً ، وكثيراً ما يستعجبون من البحث عنه ، وقد وجدت برهاناً على هذه الذهنية الضيقة في انتقاد المجلة السياسية على احد مؤلفاتي . لامي المنتقد « لتقيني في العالم والحرائد اكثر من الكتب » . ارضى بهذا اللوم لاني ارى ان ما يرد في الجرائد من الحوادث المختلفة وما يشاهد في العالم من الحقائق اكبر فائدة من ما يجيء في مجلات الفلاسفة وما بعد الطبيعة من المعارف النظرية ، على ان الفلاسفة اخذوا يشعرون بما في هذه الابحاث من الخطأ قال ويليام جيمس :

٤ - الانصاف في التاريخ

عُدَّ خلق الانصاف صفة جوهرية للمؤرخ منذ القديم ولذلك ادعى المؤرخون منذ زمن تاسيت انهم من المنصفين . والواقع ان الكاتب يرى الحوادث كما يرى المصور المناظر اي ينظر اليها من خلال مزاجه وخلقه وروح أمته ، فاذا وُضع كثير من المصورين أراء منظر واحد فانهم يختلفون في تصويره بحكم الطبع . ولهذا تكون كل نسخة شخصية ذات طابع حسي خاص ، وليس أمر الكاتب خلاف ذلك .

إذا فالانصاف عند المؤرخ والمصور لا يوجد . نعم قد يكتفي المؤرخ باستنساخ الوثائق والى هذا يميل المؤرخون في الوقت الحاضر غير ان وثائق الأدوار القرية كدور الثورة الفرنسية من الكثرة بحيث لا يكفي لتصفحها حياة امرء وهذا ما يجعل الاختيار امراً لا مندوحة عنه .

« انها عبارة عن سلسلة قضايا منظور اليها بجهل فطيع وعن مجادلات شرسة » ورأى كثير من مؤلفي علم النفس « ان علماً يذب الانتقاد النظري في جميع مفاصله لسريع العطب » ، وقد حاولت منذ اكثر من عشرين سنة ان احول وجهة علم النفس الى درس الحقائق ، الا ان ذلك صعب على الجري النظري في الجامعات مع انه أضع ماله من نفوذ ،

يختار المؤرخ متعمداً او غير متعمد ما يلائم افكاره السياسية والدينية والادبية من الوثائق ولذلك يتعذر تأليف كتاب تاريخي منصف اللهم الا اذا اقتصر على وضع تقاويم تلخص كل حادثة فيها بسطر واحد مع زمان وقوعها، ولا نأسف لعدم ظهور من هو منصف فان الانصاف يؤدي الى وضع مؤلفات نافذة معمة مملة يستحيل الوقوف بها على حقيقة احد الادوار .

وهل على المؤرخ ان يمتنع بحجة الانصاف عن تقدير الرجال الى الاعجاب بهم والطمع فيهم ؟ يوجد على ما اعتقد لهذه المسئلة حلان عادلان يختلفان باختلاف الكاتب اذا كان عالماً اخلاقياً او عالماً نفسياً .

ينظر العالم الاخلاقي الى المصلحة الاجتماعية فحسب ولا يقدر الرجال الا بما تقتضيه هذه المصلحة ، ويضطر المجتمع في تكوينه وبقائه الى وضع بعض القواعد والى حيازة مقياس يقاس به الخير والشر اي يميز به بين الفضيلة والرذيلة ، وهذا يؤدي الى وضع أمثلة وسطى يتقرب منها الناس ولا يبتعدون عنها ابتعاداً كبيراً من غير ان يلحق المجتمع خطر .

فعلى العالم الاخلاقي ان يقدر الرجال حسب هذه الامثلة والقواعد المشتقة من مقتضيات الاجتماع ، وهو بمدحه من أفاد وبهجوه من

أضري يسعى في تثبيت أمثلة اخلاقية ضرورية لسير الحضارة تكون
 نماذج للناس ، فالشعراء — كقورناي مثلاً — بتخليهم ابطالاً يفضلون
 على اكثرية البشر يحثوننا على العمل ويربون بذلك روح الامة
 هذه هي وجهة العالم الاخلاقي وأما وجهة العالم النفسي فغير
 ذلك ، فالمجتمع وان لم يحق له ان يتساهل في أسر بقاءه فانه ينبغي
 على العالم النفسي ان لا يبالي بذلك ، إذ لما كان عليه ان ينظر الى
 الامور نظرة عالم اقتضى ان لا يهتم بتقدير منافعها وان لا يسعى الا
 الى تفسيرها اي ان يكون مثله كمثل الراصد امام اي حادث ، نعم
 يصعب على الانسان ان يقرأ وهو رابط الجأش ان (كاريه) كان
 يأمر بطمر ضحاياه حتى العنق كي يققاً بعدئذ عيونهم ويذيقهم
 اشد العذاب ولكنه يجب لادرالك مثل هذه الاعمال ان لا يستشيط
 المرء منها غيظاً وان يكون شأنه كشأن العالم الطبيعي ازاء العنكبوت
 وهي تقتل ذبابة رويداً رويداً .

ظهر من ما تقدم ان شأن المؤرخ وشأن العالم النفسي ليسا
 واحداً ولكنه يجوز مطالبتهما بتفسير الحوادث تفسيراً حسناً
 وباكتشاف ما هو مستتر تحت الحقائق الظاهرة من القوى الخفية
 المسببة لها .

الفصل الثاني

قواعد النظام السابق النفسية

١ الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق

يقول كثير من المؤرخين بان الثورة الفرنسية نشبت ضد الملكية المستبدة والواقع ان ملوك فرنسا عدلوا عن الاستبداد قبل انفجارها بزمن طويل . تم لهم السلطان المطلق في دور لويس الرابع عشر واما جميع من ظهر قبله من الملوك — ولانستني أقوياءهم كفرنسوا الاول — فكانوا يقارعون الامراء الاقطاعيين تارة والاكليروس والبرلمانات تارة أخرى وكثيراً ما غلبوا في هذه المعارك ، وما كان فرنسوا الاول من القوة بحيث يقدر على كفة الأذى عن أعز حواشيه إزاء الصوروبون والبرلمان ، فلما كره الصوروبون مشاوره وصديقه (بيركان) حبسه فأمر الملك بتسريحه فرفض الصوروبون ذلك فاضطر الملك الى إرسال نباله لا تقاذه من السجن وما وجد وسيلة أخرى لحمايته غير حراسته بالقرب منه في قصر (اللوفر) الا ان الصوروبون انتهز فرصة غياب الملك فسجن (بيركان) ثانية وبعد ان حاكمه البرلمان حرق حياً بعد ساعتين

من الحكم .

صارت سلطة الملوك مستبدة في عهد لويس الرابع عشر بعد ان شيدت دعائهما مقداراً فمقداراً الا انها لم تلبث ان مالت الى الزوال واصبح لا يجوز ان يُنعت لويس السادس عشر بالمستبد . كان هذا الملك عبداً لبطائسه ووزرائه والأكليروس والاشراف من جميع الوجوه ولم يوجد فرنساوى اضيق حرية منه ، وكان الملوك يستمدون قوتهم من الله ومن التقاليد التي تكون من مجموعها عقد البلاد الاجتماعي .

ان وهن ما قام عليه النظام السابق من التقاليد أدى الى زواله اذ لما تكرر الجدل فيها ولم يبق من يدافع عنها انهار ذلك النظام كبناء دك من اساسه .

٢ - سيئات النظام السابق

ترضى الامة بالنظام المؤسس منذ عهد عهد والعادة تستر سيئاته التي لا تبدو الا عند اطالة الفكر ، وعند ما يفكر فيه الانسان يتسائل كيف اضطهر عليه فيعتقد حينئذ بانه تعيس . وقد تمكن مثل هذا الاعتقاد ايام الثورة الفرنسية بتأثير الكتاب الذين سنبحث عن تأثيرهم قريباً فبدت جميع عيوب النظام السابق لكل ذى عينين ، وسنكتفي ببيان بعض هذه العيوب .

كانت المملكة التي تأسست من فتح الايالات المستقلة مختلفة بقوانينها وطبائعها وعاداتها وكانت الجمارك الداخلية تفصل بينها وما بذله الملوك - ومنهم لويس الرابع عشر - من المساعي لم يؤد الى وحدتها ولذلك فان احسن عمل قامت به الثورة الفرنسية هو هذا التوحيد .

ثم كان يوجد بجانب هذه التقسيمات المادية تقسيم الامة الى طبقات ثلاث متعذر اجتياز ما بينها من الحواجز اي الى طبقة الاشراف وطبقة الاكابر وس والطبقة الثالثة ، وقد تمسك النظام السابق بسياسة التفريق بين الطبقات لاعتباره اياها سرّاً من اسرار قوته وهذا سبب ما القاه ذلك النظام من الحقد في القلوب ، والاضطهاد الذي جاءت به الطبقات الوسطى الظافرة ناشيء عن ميلها الى الانتقام من ماض طويل احتقرت وظلمت فيه ، وما اكثر ما عاتته الطبقة الثالثة من هذه الجروح ففي اجتماع عقده المجلس النيابي عام ١٦١٤ وجثا فيه اعضاؤه مكشوفي الرأس قال احد ممثلي الطبقة الثالثة بان الطبقات الثلاث كشلاثة اخوة فردّ عليه خطيب طبقة الاشراف قائلاً : « لا إخاء بين طبقة الاشراف والطبقة الثالثة فالاشراف لا يريدن ان ينادينهم أبناء السكافين والخرابين اخوة لهم » .

وكان الاشراف والاكليروس محافظين على امتيازات ومطالب لا يوجد ما يبررها منذ كفوا عن الخدمة ، إذ لما أقصت السلطة الملكية الاشراف والاكليروس عن الوظائف العامة لارتياها منهم وأقامت مقامهم من هو اكثر منهم قابلية وعلماً من ابناء الطبقة الوسطى اصبحت شأنهم الاجتماعي منحصرأ في الأبهة فقط وقد اوضح ذلك تان حيث قال :

« منذ اضاع الاشراف سلطتهم وحصل عليها ابناء الطبقة الثالثة اصبحت التفاوت الفاصل بينهم مؤلماً ، ولما كان هذا التفاوت قائماً على العادة فقد عدل الضمير عن تقديره وحقق لائبا الطبقة الثالثة ان يسخطوا على امتيازات لا يوجد بعد ما يبررها » .

وبما أن مبدأ (الطبقات) متأصل منذ بعيد فان الامر الذي سبب عدول الاشراف والاكليروس عن امتيازاتهم كان خفياً ، نعم انهم تركوها في ليلة تاريخية عند ما ارغمتهم الحوادث ولكن فعلتهم جاءت متأخرة وظلت الثورة الفرنسية سائرة في سبيلها لا ريب في ان مبتكرات الوقت الحاضر قادرة على الاتيان بمثل ما فعلته الثورة الفرنسية اي بالمساواة أمام القانون والغاء الامتيازات الوراثية الخ ، وعلى رغم اتصاف الروح اللاتينية بالمحافظة فلا بد للأمة الفرنسية من نيل هذه الحقوق كما نالها اكثر الامم ولو تم

ذلك لو قت نفسها من عناء جروب ومذابج دامت عشرين سنة ولكن ذلك يتطلب ان تكون حائزة على مزاج نفسي آخر وعلى ساسة آخرين في ذلك الحين .

ان الحقد الشديد الذي كان يحمله ابناء الطبقة الوسطى على الطبقات الاخرى هو من جملة العوامل الاساسية للثورة الفرنسية وهذا يوضح لنا سبب سلب اولئك الابناء ما عند المغلوبين من مال ونشب .

ولا يدل مقت ابناء الطبقة الوسطى للاشراف على حقدهم على الملكية وما بغض الشعب الملك لما أتى به من عدم الخنكة ومن الاستغائة بالاجنبي الارويداً رويداً . ولم يفكر المجلس التشريعي الاول في تأسيس الجمهورية وكل ما كان يحلم به هو ان يحل مكان الملكية المطلقة ملكية دستورية ، ومع ان صدره امتلاء غيظاً من الملك فانه لم يجترئ على اسقاطه .

٣ - الحياة في العهد السابق

يصعب تصور الحياة في العهد السابق - ولا سيما حياة الفلاحين الحقيقية - تصوراً حسناً ، إذ مثل الكتاب في مناضلتهم عن الثورة الفرنسية كمثل علماء اللاهوت في مدافعهم عن العقائد الدينية فيصورون ما كانت عليه احوال الفلاحين في ذلك العهد من الكآبة

تصويراً يجعل الانسان يتسال كيف لم يمت هؤلاء البائسون جوعاً منذ زمن طويل . ولدينا مثال على ذلك صادفناه في كتاب وضعه الموسيوارامبو احد اساتذة الصوروبون سابقاً وسماه (تاريخ الثورة الفرنسية) ، فالصورة التي وردت فيه للدلالة على « بؤس الفلاحين ايام لويس الرابع عشر » تلفت النظر إذ يرى فيها اولاً ان رجلاً يتقاتل مع الكلاب ليختطف منها عظماً معروقة ومجانبة بائس يلتوى شاداً احشائه وبالبعد منه امرأة ملقبة على الارض لترعى كلاً وفي اسفلها أناس مطروحون على الارض كالاموات ، ثم اورد المؤلف المذكور العبارة الآتية مثالا على الادارة في الدور السابق وهي :

« ان وظيفة الشرطي التي كانت تشري ب ٣٠٠ ليرة كانت تعود عليه ب ٤٠٠٠٠٠٠ ليرة وان القبض على الناس كان لا يكلف سوى ١٢٠ ليرة وان عدد ما وضعه لويس الرابع عشر من اوامر النفي والسجن بلغ ١٥٠٠٠٠٠ »

ان اكثر المؤلفات التي بحثت عن الثورة الفرنسية قليلة الانصاف بعيدة عن روح الانتقاد كالمؤلف المذكور وهذا ما يجعل الوقوف على ذلك الدور ناقصاً حتى اليوم . نعم ان وثائقها ليست قليلة ولكنها متناقضة فيمكن الاعتراض على وصف (لابرور) بالوصف العجيب الذي اتى به السائح الانكليزي (يانغ) ليدل على سعادة الفلاحين الذين زارهم بنفسه في ذلك الزمن . وهل من

الصحيح ان كاهل الفلاحين كان مثقلا بالضرائب وانهم كانوا يؤدون اربعة اخماس محاصيلهم بدلاً من الخمس الذي يدفعونه اليوم ؟ يتعذر علينا ان نأتي بجواب صادق على ذلك ، على ان اشتراء الفلاحين لثالث الاطيان في العهد السابق يدل على ان احوالهم فيه ليست تعيسة وما نعرفه عن الادارة المالية أتم ، كانت هذه الادارة جائرة مرتكبة والميرانيات ذات عجز وكان يجبي الضرائب ملتزمون ظالمون فنشأ عن هذه الحالة استياء عام اوضح في عرائض المجلس النيابي ، ويجب التنبيه الى ان هذه العرائض لم تشر الا الى أزمة بؤس صدرت عن محاصيل عام ١٧٨٨ الرديئة وعن شتاء سنة ١٧٨٩ ولو كتبت قبل عشر سنين لحوت خلاف ما جاء فيها .

لم تحتو فكرياً ثوريا وكل ما التمس فيها هو ان تجبي الضرائب بعد موافقة المجلس النيابي وان يكون ذلك على قاعدة المساواة وان يوضع دستور لتعيين ما للملك وما للامة من السلطة ، ولو قبلت هذه المطالبات قامت مقام الملكية المطلقة ملكية دستورية ولاجتبت الثورة على ما يحتمل .

كان يحول نفوذ الاشراف والاكبروس وضعف لويس السادس عشر دون الوصول الى هذا الحل ، اصف الى ذلك ما كان يصبو اليه انشاء الطبقة الوسطى من الحلول مكان الاشراف ، فهذه

الطبقة هي التي قامت بالثورة الفرنسية ولم تلبث الفتنة التي ايقظتها ان تجاوزت حد رغائبها وحاجاتها وآمالها إذ تطلبت المساواة لذاتها فتطلبها الشعب لذاته ايضاً فأدى ذلك الى قيام حكومة شعبية .

؛ — تطور المشاعر الملكية ايام الثورة الفرنسية

من الامور الثابتة ان مشاعر الشعب ومشاعر المجالس الثورية ايام الثورة الفرنسية قد تطورت ازاء النظام الملكي تطوراً سريعاً وان كانت المشاعر تتطور عادة شيئاً فشيئاً ، إذ لم يمر بين الوقت الذي يجبل به اعضاء المجالس الثوري الأول لويس السادس عشر وبين الوقت الذي قُطع فيه رأسه سوى أعوام قليلة .

ان هذه التحولات السطحية هي في الحقيقة ليست سوى تبديل موضعي لمشاعر واحدة فالحب الذي كان يظهره الناس في ذلك الزمان للملك قد اظهروه للحكومة الجديدة الوارثة له . ومن الهين اظهار هذا التبدل: قد اوجب استمداد الملك في الدور السابق قوته من الله منحه قدرة عظيمة جعلت الشعب يقبل عليه من اقصى البلاد ، إلا ان هذا الاعتقاد الديني بما للملك من القدرة المطلقة ترزع عند ما اثبتت التجارب المكررة ان ما نسب اليه من السلطان وهم فاضاع حينئذ ما له من نفوذ ، وبما ان الجماعات لا تسمح للاله الساقط ان يؤتمر عليها فانها تبحث عن معبود آخر لا غناء لها عنه

كشفت الحوادث المبررة منذ اوائل الثورة الفرنسية
للمؤمنين المتحمسين انه لم يبق للملكية شيء من الحول والقوة وانه
يوجد قوى اخرى قادرة على مقاتلتها ولها سلطان اعظم من
سلطانها .

وماذا يكون حال الساطة الملكية امام الجماعات التي رأت ان
المجلس النيابي تغلب على الملك وان هذا الاخير عجز في وسط باريس
عن الدفاع عن حصنه القوى ازاء هجمات بعض العصابات المسلحة؟
فبذلك وضع للعيان ضعف الملك وازدادت قدرة المجلس
النيابي وبما انه لا نفوذ للضعيف عند الجماعات فان هذه حولت وجهها
نحو القوي .

ومع ان المشاعر في المجالس كثيرة التحول فانها لا تتطور بسرعة
ولذلك دام الايمان الملكي بعد الاستيلاء على الباستيل وبعد فرار
الملك واتفاقه مع ملوك الاجانب ، وقد ظل هذا الايمان المتأصل من
القوة بحيث لم تقدر الفن الباريسية التي أدت الى قتل لويس
السادس عشر على إزائته من القلوب ^(١) فبقي ثابتاً في جزء كبير من

(١) اورد (ميشليه) الحادث الآتي الذي وقع في عهد لويس الخامس عشر
دليلاً على حب الامة الارثي للموكلها :

« علم الناس في باريس ليلان لويس الخامس عشر الذي ذهب ليلتحق

فرنسا مدة الثورة الفرنسية وسبب ما وقع في الولايات من
المؤامرات والفتن التي لقي مجلس العهد في احمادها عناء كبيراً ، نعم
تلاشى الايمان الملكي في باريس حيث كان ضعف الملك جلياً ظاهراً
وأما في الولايات فحافظت قدرة الملك النائية عن الله في الارض
على نفوذها .

جعل رسوخ المشاعر الملكية في النفوس المقصلة عاجزة عن
القضاء عليها فاستمرت الدعوة الملكية ايام الثورة الفرنسية ولا سيما
في عهد الديركتوار حيث انتخبت ٤٩ ولاية نواباً ملكيين ، وقد
ساعدت تلك المشاعر الملكية التي دفعتها الثورة بعد عناء كبير على
نجاح نابليون بونابارت عند ما جاء ليستولي على عرش الملوك السابقين
وليعيد جزءاً كبيراً من النظام السابق



بالجيش بقي مريضاً في (ميس) فتركوا مضاجعهم وساروا في بلبلة الى حيث لا
يعلمون ثم فتحت الكنائس ابوابها في نصف الليل واخذ القوم يتجهرون في
مفارق الطرق ويقترب بعضهم من البعض الآخر ويتساءلون من غير ان يتعارفوا
واما اكثر الكنائس التي كان بكاء الكهنة يقطع ما كانوا يقرأونه فيها من الادعية
لشفاء الملك والجمهور يحجبهم بنحبه وعويله وقد عانق الناس الرسول الذي أتى
بخراب الملك من مرضه وقبلوا حصانه وساروا به سيرهم بالغازي المظفر
ودوت الشوارع من هتافهم « عوفي الملك » .

ابن كمال بن تيمية

الفصل الثالث

في القوضى النفسية ايام الثورة الفرنسية
وما عزى الى الفلاسفة من الشأن

١ - مصدر المبادئ الثورية وانتشارها

ان حياة الانسان الظاهرة عنوان لحياة خفية كونتها التقاليد
والمشاعر وهذه الحياة هي التي ترشده في سيره وتمكن فيه مبادئ
مهيمنة ، واذا اصاب تلك المبادئ وهن فان مبادئ أخرى تنبت
في النفوس مكانها .

والغاية من هذه الملاحظات هو تنبيه القارئ الى ان ما تأتي
به الثورات من الحادثات الظاهرة هي نتيجة لتطورات خفية وقعت
في النفوس رويداً رويداً والى كون البحث الدقيق عن احدى
الثورات يستدعي فحص البقعة النفسية التي نبتت عليها مبادئ
هذه الثورات .

يظل تطور المبادئ البطيء خفياً مدة جيل واحد في الغالب
ولا يمكن ادراك اتساع نطاقه الا بمقايضة ما عند الطبقات الاجتماعية
من الاحوال النفسية في اول الجيل وآخره ، فيجب للاطلاع على

الأفكار المختلفة التي كان ينظر بها العلماء الى الملكية في عهد لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر ان تقابل بين نظريات (بوسويه) ونظريات (تورغو) السياسية . كان بوسويه عند ما يقول بان سلطة الحكومة مستمدة من الله الذي يحاسب وحده الملوك على اعمالهم وبأن الملوك غير مسؤولين امام الناس يعبر عن ما يدور في خلد هؤلاء من المبادئ نحو الملكية المطلقة وقد كان الايمان الديني في ذلك العهد قوياً كالايان الملكي وظهر للناس ان هذين الايمانين متلازمان لا يفترقان ، واما ما كتبه الوزراء المصلحون — كالوزير تورغو — فكان مشعباً بروح أخرى إذ لم يذكر وافيهِ شيئاً عن حق الملوك الالهي وقد بينوا فيه حق الامة بياناً جلياً .

والحوادث التي أعانت على تهيئة هذا التطور كثيرة ونذكر منها الحروب المشؤومة والقحط والضرائب والبؤس العام الذي وقع في اواخر عهد لويس الخامس عشر ، وقد أقامت هذه الحوادث مقام احترام سلطة الملك التي تزعزعت مقداراً فقذاراً ، ثورة في النفوس مستعدة للظهور عند سنوح اول فرصة .

ومتى يبدأ انحلال المزاج النفسي فان عراه تتفكك سريعاً وهذا هو سبب سرعه انتشار كثير من المبادئ بين الناس ايام الثورة الفرنسية؛ نعم انها ليست حديثة ولكن تأثيرها لم يظهر قبل تلك

الثورة لعدم مصادقتها تربة صالحة ، والمبادئ التي استهوت الناس في ذلك العهد رددتها البشر مرات كثيرة في الماضي فهي التي اوجت خطة السياسة الانكليزية قبل ذلك الزمن بكثير وقد دافع علماء اليونان واللاتين قبل ألفي سنة عن الحرية لاعين المستبدين معلنين ما للسلطة الشعبية من الحقوق . ومع ان ابناء الطبقة الوسطى تعلموا جميع هذه المسائل كأباؤهم في الكتب المدرسية فانها لم تحرك ساكنهم لان الوقت الذي تستطيع ان تهيجهم فيه كان غير واقع ، وكيف تؤثر في الامة في زمن اعتادت ان تحترم فيه سلسلة المراتب ؟

وتأثير الفلاسفة في تكريم الثورة الفرنسية غير ما يعزى اليهم فهم لم يكتشفوا شيئاً جديداً وانما أنموا روح الانتقاد التي لا تقاومها المعتقدات عند ما تأخذ في الانحلال . اوجب نمو روح الانتقاد تدريج الناس في ازدياد ما كان محترماً عندهم ومتى أخذت التقاليد والحرمان في الاضمحلال فان البنيان الاجتماعي يسقط بقلعة .

ومع ان نفوس الشعب تنحل في نهاية الامر فان ذلك لا يصيبها في البداية فالشعب يقتدي ولا يتدع . اثر الفلاسفة في طبقات الامة المتعلمة وعجزوا عن التأثير في الشعب واوجب اعتياد الاشراف البطالة واقصاؤهم عن الوظائف سيرهم على غير هدى وأدى عجزهم

عن تقدير العواقب الى زعزعتهم جميع التقاليد وان كانت سبب نعمتهم
ولما كانوا مشبعين بمبادي الانسانية ومذهب العقلين كما هو شأن
ابناء الطبقة الوسطى في الوقت الحاضر فقد قوضوا امتيازاتهم الخاصة
بيدهم . كان اكثر المصاحين حماسة في ذلك الزمن من اصحاب الثروة
وكان الارسطو قراطيون ينشطون الى البحث عن العقد الاجتماعي
وعن حقوق الانسان وعن مساواة الوطنيين ويهتفون للروايات
التمثيلية المتقدمة لامتيازات اصحاب المناصب العالية واستبدادهم وعدم
أهليتهم .

ومتى يفقد الناس ثقتهم في اركان البناء النفسي المسير اياهم معهم
اضطراب فاستياء فتشعر جميع الطبقات حينئذ برؤال ما كان يسيرهم
من العالم السابقة .

نعم لم تكف روح الانتقاد عند الكتاب والاشراف ازعزعة
أثقال التقاليد ولكن تأثيرها دعم بمؤثرات قوية أخرى . قلنا عندما
استشهدنا بيو سويه ان الحكومة الدينية والحكومة المدنية في الدور
السابق كانتا موصولتين ببعضهما ببعض وصلاً وثيقاً فكان صدم الاولى
يصيب الثانية بحكم الضرورة والآن نقول ان التقاليد الدينية قد عاقبتها
نفوس المتعلمين قبل ان أن يترزع المبدأ الملكي إذ أوجب تقدم
العالم انتقال النفوس من عالم اللاهوت الى عالم العلم .

كان يسمح هذا التطور للناظر ان يشعر بان التقاليد التي قادت
الناس قروناً كثيرة ليست قيمة وان من الضروري تبديلها بغيرها
ولكن ان يكتشف ما يقوم مقام التقاليد من العناصر وان يبحث
عن عصا السحر القادرة على إقامة بنيان اجتماعي آخر على أنقاض
البنيان السابق؟

وقع الاجماع على وصف العقل بالقدرة التي اضاعتها الآلهة
والتقاليد، وهل من شك في قدرته؟ ان مكتشفاته كثيرة لا يحصى
عديدها وهلا يحق للانسان ان يظن بان تطبيقه على المجتمعات
يؤدي الى تطورها التام؟ هكذا عظم شأن العقل في النفوس وتضاءل
شأن التقاليد.

والمبدأ الذي اسند تلك القدرة الى العقل اشعل نيران الثورة
الفرنساوية وسيرها من اولها الى آخرها وبتلك القدرة سعى الناس
في تحطيم الماضي وإقامة مجتمع جديد على خطة أملاها المنطق
وما هبط ببطء الى نفوس الشعب من نظريات الفلاسفة العقلية
يلخص بالعبارة الآتية البسيطة وهي ان جميع ما عد في الماضي محترماً
ليس جديراً بالاحترام ولما كان الناس متساوين فلا محل لطاعة السادة
السابقين. اعتادت الجموع ان لا تحترم الطبقات العليا وعند ما
تداعى حصن الحرمة وقعت الثورة الفرنسية.

ان تجاوز الناس للحدود هو اول نتيجة لهذه النفسية الجديدة .
ذكرت مادام (فيجيلبران) ان العوام كانوا يصعدون في زهرة
(لونشان) على مراقي العربات قائلين « ستكونون في العام المقبل
وراءنا وسنكون داخل العربات » .

لم يكن امر تجاوز الحدود والاستياء خاصاً بالعوام بل كان قبل
حدوث الثورة الفرنسية عاماً للجميع . قال تايين :

« كان صغار الاكليروس حاقدين على الاساقفة ، وأشرف الولايات على
الاشراف المقربين ، وصغراء الامراء الاقطاعيين على اكابرهم وسكان القرى على
سكان المدن »

ثم استولت تلك الحالة النفسية — التي انتقلت من الاشراف
والاكليروس الى الشعب — على الجيش ايضاً . قال (نيكر) حين
افتتاح المجلس النيابي : « لسنا واثقين بالجيش » ، فقد صار الضباط
من انصار مذهب الانسانية وأخذوا يشتغلون بالفلسفة واما الجنود
الذين هم من أدنى طبقات الشعب وان لم يشتغلوا بالفلسفة فكانوا لا
يطيعون لدلالة مبادئ المساواة في عقولهم السخيفة على الغاء الرأسة
ثم على إبطال الطاعة .

وبعد ان استولت الفوضى النفسية على جميع طبقات المجتمع ثم
على الجيش سببت زوال النظام السابق . قال ريفارول :

« ان تخلي الجيش عن الملك واعتناقه مبادئ الطبقة الثالثة هو الذي قضى على الملكية . »

٢ - تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر في تكوين

الثورة الفرنسية - نفورهم من

الدموقراطية

يجب ان يعد الفلاسفة - الذين ظنّ بانهم نفخوا في الناس روح الثورة - اشياءاً للحكومة الشعبية وان قاتلوا بعض الاوهام والعوائد السيئة إذ كانوا يمتقنون الديموقراطية التي بحثوا عن شأنها في تاريخ اليونان لعلمهم بما تجر وراءها من التخريب والاضطهاد وبأنها عرفت في زمان اريستوطاليس « بانها عبارة عن حكومة تناط فيها القوانين وجميع الامور بعوام ينزلون انفسهم منزلة الجبابرة ويسيرون كيفما يريد بعض المشاغبين . »

نبه بطرس بيل الذي كان سلفاً لفولتير الى ما أدت اليه الحكومة الشعبية في أثينا بالعبارات الآتية :

« عندما يقرأ الانسان تاريخاً دالاً دلالة واسعة على هرج محالس أثينا واتقسام احزابها وعلى فتنها المقلقة واضطهاد الاشراف وقتلهم ونفيهم حسب ما كان يريد احد الخطباء المتحمسين يحكم بان تلك الامة المفتخرة بحريتها كانت في الحقيقة رقيقة لفئة من المحتالين سمّتهم بخطباء الشعب ، كان هؤلاء يقبلونها حسب أهوائهم فصارت كبحر تسوق الرياح أمواجه ، ولو بحث عن تاريخ مكدونيا الملكية لما وجد فيه أمثلة ظلم واستبداد كما في أثينا . »

وليس رأي موتسكيو في الديمقراطية بأقل من ذلك فقد دل
بعد ان وصف أشكال الحكومة الثلاثة — اي الجمهورية والملكية
والمستبدة — على ما تؤول اليه الحكومة الشعبية بهذه الكلمات :
« كان الناس احراراً تحت ظل القوانين فصاروا يميلون الى الحرية
ضدها ويسمون ما هو حكمة عرامة وما هو قاعدة معسرة ، وكان ما
يدخل الخزانة العامة من الاموال يجمع من الافراد فاصبحت الخزانة العامة
مالكا للافراد ، فلم تكن الجمهورية إذاً غير جثة مستمدة قوتها من قوة
بعض الناس »

« يظهر فيها جبايزة صغار لهم ما للجبار الواحد من العيوب
ويصبح ما يبقى من الحرية أمراً لا يطاق فيقبض على زمام الحكم جبار
واحد فتخسر الامة كل شيء حتى ثمرات ضرورها »

« ولذلك وجب اجتناب ما تجر اليه الديمقراطية من المغالاة
في المساواة المؤدية الى الحكم المطلق ومن الحكم المطلق المؤدي
الى غزو البلاد »

والحكومة الانكليزية الدستورية المانعة الملكية عن التحول
الى حكومة مستبدة هي مثل موتسكيو الأعلى غير ان تأثير هذا
الفيلسوف ايام الثورة الفرنسية كان ضعيفاً جداً .

واما واضعوا (الانسيتلوينديا) فلم يشتغلوا بالسياسة أبداً ، وربما

استثنينا منهم (هولباك) الذي هو (كفولتير) و (ديدرو) ملكي
متمذهب بمذهب الحرية . كانوا يدافعون خاصة عن الحرية الشخصية
ويقاتلون جور الكنيسة العدو للفلاسفة وبما انهم ليسوا اشتراكيين
ولا ديمقراطيين فان الثورة الفرنسية لم تنتفع بشيء من مبادئهم
وكان (فولتير) ذاته قليل التشيع للديموقراطية وقد قال :

« ارى أن الديموقراطية لا تلائم الا بلاداً صغيرة واقعة في مكان
مناسب ، على انها مهما كانت صغيرة فلا بد لها من الايمان بكثير من
الزلات وهي وان ساد فيها الشقاق كما يسود في دير الرهبان فانه لا يقع
فيها ملاحم كراحمة السان بارتلمى ولا مذابح كذاب كذايح ايلندا وصقليا
ومحكمة التفتيش ولا حكم بالاشغال الشاقة على من يغترف من البحر
ماء لا يؤدي ثمنه ، وتكون تلك الجمهورية غير ذلك إذا ألقت من
الشياطين في زاوية من الجحيم »

إذا فان افكار هؤلاء الذين ظن انهم هياؤا الثورة الفرنسية هي
قليلة الهدم ومن الصعب ان يعزى اليهم تأثير كبير في سير تلك الثورة
كان روسو من نوادر الفلاسفة الديموقراطيين في عصره ، ولهذا
صار كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي توراة رجال الهول الا كبر
وقد ساعد هذا الكتاب على تدمير ما حدث ايام ذلك الهول من
الأعمال الصادرة عن دافع ديني وعاطفي غير شعوري .

غير أن غرائز روصو الديمقراطية أمر مشتبّه فيه فهو يرى
ان خططه في تجديد المجتمع على أساس السيادة الشعبية لا تطبق
الاعلى عدد قليل من البلدان وعند ما طلب اليه البولونيون ان يرسم
لهم دستوراً ديمقراطياً نصّحهم بان ينتخبوا ملكاً إرثياً .
واكثر نظريات روصو انتشاراً هي نظريته القائلة بكمال الحالة
الفطرية فقد ادعى مع كثير من رجال عصره بان الرجل الفطري
كان كاملاً لم تفسده المجتمعات وبأنه إذا غيرت المجتمعات بما يسن
من القوانين فان سعادة الاجيال الأولى تعود ، وبما انه لم يقف على
علم النفس فانه كان يعتقد بان الناس متماثلون في كل زمان ومكان
وبانه يجب ان تطبق عليهم قوانين ونظامات واحدة . هكذا كان
اعتقاد الناس في ذلك الحين . كتب (هيلفيسيوس) : « تشتق فضائل
الامة ونقائصها من قوانينها وهل من ريب في ان الفضيلة عند جميع
الامم هي نتيجة حكمة القابضين على زمام الامور ؟ »

٣ - مبادئ الطبقة الوسطى الفلسفية

ايام الثورة الفرنسية

مع انه يصعب تعيين ما كان عند ابناء الطبقة الوسطى في
فرنسا من المبادئ الفلسفية والاجتماعية ايام الثورة الفرنسية فان
هذه المبادئ، ترد الى بضع قواعد اخصت في بيان حقوق

الانسان .

يظهر ان فلاسفة القرن الثامن عشر لم يكونوا ذوي نفوذ كبير في رجال تلك الثورة إذ لم يستشهد هؤلاء بأولئك الا نادراً ولما كانت خواطر اليونان والرومان هي التي سحرتهم فانهم كانوا يطالعون كتب افلاطون وبلوتارك ويودون نشر دستور اسبارطه وعواندها وتكشفها وقوانينها .

ولم يقل رجال الثورة الذين عدوا من المبدعين الجسورين ومن السائرين على نهج الحكماء بانهم ابدعوا شيئاً جديداً بل بعودتهم الى ماضٍ دفن منذ عهد عبيد في عالم الشك والريب ولم ينظر عقلاؤهم الى ما كان في القرون الخالية بل فكروا في تطبيق نظام انكلترا الدستوري الذي امتدح مونتسكيو وفولتير منافعهم ونسجت على منواله جميع الامم في نهاية الامر من غير ثورة . كان مطعمهم ان يصالحوا النظام الملكي الموجود لان يهدموه ، الا ان المناهج التي سلكت ايام الثورة اختلفت عن ما اقترحوه من الطرق والاساليب .



الفصل الرابع

في ما وقع ايام الثورة الفرنسية

من الاوهام النفسية

١ - في ما حام من الاوهام حول الانسان

الفطري والرجوع الى الحالة

الطبيعية والروح الشعبية

بينافي ما سبق - ونعود فنقول - ان اغلاط احد المذاهب لما كانت لا تضر بانتشاره فان تأثيره هو الذي يجب البحث عنه ، وعلى الفيلسوف الذي يود ان يكتشف كيفية تأثر الناس ان يبحث عن ما يحيط بهم من الاوهام ، ولربما لم تكن الاوهام عريضة كثيرة في اي دور من ادوار التاريخ كما كانت ايام الثورة الفرنسية • ونعد من اشد الاوهام ظهوراً التصور الغريب الذي تصور به الناس طبيعة اجدادنا الاولين وطبيعة المجتمعات الاولى ، ولما لم يكتشف تاريخ الانسان الطبيعي طرق الحياة اعتقد الناس في ذلك الحين - كما جاء في الاسرائيليات - ان الله خلق الانسان كاملاً وان المجتمعات كانت مثلاً علياً وان الحضارة افسدتها وانه يجب

العود اليها ، وما لبث مبدأ الرجوع الى الحالة الطبيعية ان اصبح
عاماً . قال روصو : « ان المبدأ الاخلاقي الاساسي الذي بحثت عنه في
مؤلفاتي يدل على ان الانسان طيب بطبيعته محب للعدل والنظام »
الا ان العلم الحديث بحث عن طرق الحياة عند اجدادنا
الاولين فاثبت فساد هذا المذهب دالاً على ان الرجل الفطري
كان وحشاً شرساً يجهل الرفق والادب والرحمة وانه لما كانت
اندفاعاته الغريزية سائدة عليه فقد كان ينقض على فريسته عندما
يخرجه الجوع من كهفه ويشب على عدوه عندما يبيجه الحقد :

ولا تعيد الحضارة الانسان الى الحالة الطبيعية بل تساعد
على الخروج منها فقد حول اليعاقة المجتمع المتمدن الى قوم
متوحشين عندما ارجعهم - بكسرهم جميع الزواجر الاجتماعية التي
لا تقوم اية حضارة بدونها - الى الحالة الفطرية

ونعذر من ذكر عن اجدادنا الاولين من الافكار الباطلة
لان طرق حياتهم كانت مجهولة قبل المكتشفات الحديثة ، ولكن
لا يوجد ما يبرر جهل نظريي الثورة الفرنسية لنفسية معاصريهم
ويظهر ان فلاسفة القرن الثامن عشر وكتابه لم يكونوا على شيء من
صفات التأمل والتفكير فقد عاشوا بين معاصريهم من دون أن
يدركوا أمرهم وان تخطر الروح الشعبية ببالهم ، وكانوا يظنون

ان العاوي رجل خلق طيباً وديداً شا كراً مستعداً للاصغاء الى العقل
وقد دلت خطب اعضاء المجلس التأسيسي على تمكن هذه الاوهام منهم
فلما اخذ الفلاحون يحرقون القصور دهشوا لذلك كثيراً فخطبواهم
بكلام رقيق رجوهم فيه ان يكفوا عن عملهم لكيلا يحزنوا مليكهم
المحبوب وناشدوهم ان يشدهوه بفضائلهم .

٢ - في ما دار من الاوهام حول امكان فصل

الانسان عن ماضيه وحول قوة القوانين

نعد من بين المبادئ التي اتخذت اساساً للأنظمة الثورية المبدأ
القائل بسهولة فصل الانسان عن ماضيه وبامكان تجديد المجتمع بالانظمة
وبما ان المشرعين في ذلك الحين اعتقدوا ان الماضي - ما عدا الاحيال
الحالية التي يجب ان تكون نموذجات - ميراث حافل بالخرافات
والاضاليل عزموا على قطع كل صلة به واسسوا لاطهار مقصدهم تاريخاً
جديداً وتقويماً جديداً مبدلين اسماء الشهور والفصول . وقد اوجب
توهمهم ان الناس متماثلون ظنهم بانهم قادرون على التشريع للجنس
البشري كله . قال قوندرسي : « ان القانون الحسن صالح للجميع
الناس » .

وما علم نظرييو الثورة الفرنسية انه يوجد وراء ظواهر الامور
عوامل خفية مسيرة لها وقد اثبت علم الحياة درجة ضلالهم ومقدار

تعلق الانسان بماضيه .

ومع ان المصالحين ايام تلك الثورة كانوا يتصادمون هم وتأثير
الماضي فانهم لم يدركوا أمره وقد ارادوا القضاء عليه فقصى عليهم .
كان ايمان المشرعين بما في النظمات والقوانين من القوة كاملاً
وان ترزع في اواخر الثورة الكبرى . قال غريغوار وهو على منبر
المجلس التأسيسي « اننا لقادرون على تغيير الدين لو نريد ولكننا
لانود ذلك » حقاً انهم ارادوا ذلك اخيراً ولكن حبط عملهم . نعم
ذلل اليعاقبة الصعاب باستبدادهم الشديد والزموا الناس بما طاب لهم
من القوانين ولكن عجزهم انكشف — بعد ما أتوا به في عشر سنين
من اضطهاد وتحريب وحرق ومذابح وهوشات — انكشافاً حوّل عنهم
وجوه الناس فاضطر نابليون الى اقامة اكثر ما هدموه .

ان التجربة العظيمة التي اتى بها اليعاقبة لتجديد المجتمع باسم
العقل ذات فائدة عظيمة اذ ربما لا تسمح الظروف للانسان ان يعيدها
مرة ثانية ، ويظهر رغم كونها درساً هائلاً انها ليست كافية لاقتناع
كثير من الناس فيها نحن نرى الاشتراكيين يقترحون الآن تجديد
المجتمع برمته حسب ما تدل عليه خططهم الوهمية .

٣ - في الاوهام التي حامت حول قيمة المبادئ الثورية

ان ما قامت عليه الثورة الفرنسية من المبادئ الاساسية لوضع

حقوق جديدة مذكور في بيانات حقوق الانسان التي نشرت في سنة ١٧٨٩ ثم في سنة ١٧٩٣ ثم في سنة ١٧٩٥ وصرحت كلها « بان السلاطة للامة »

على ان هذه البيانات الثلاثة يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه ولا سيما في المساواة . جاء في المادة الاولى من بيان عام ١٧٨٩ : « ان الناس يولدون ويعيشون احراراً وهم متساوون في الحقوق » وجاء في المادة الثالثة من بيان عام ١٧٩٣ « ان الناس متساوون بطبيعتهم » واما بيان عام ١٧٩٥ فاكثر اعتدالا إذ جاء في المادة الثالثة منه : « ان المساواة هي كون القانون واحداً للجميع » وبعد ان تكلم واضعو هذا البيان عن الحقوق رأوا ان الكلام فيه عن بعض الواجبات مفيد فشابهه بارشاده الانجيل . جاء في المادة الثانية منه : « ان جميع واجبات الانسان والوطني تنشأ عن المبدأين الآتين اللذين طبيعتهما الطبيعية على جميع القلوب وهما : « لا تعامل الناس بما لا تحب ان يعاملوك به وعاملهم بما تحب ان يعاملوك به » والذي بقي من هذه البيانات هو مبدأ المساواة ومبدأ السلطة الشعبية .

ان شأن الشعائر الجمهوري اي « الحرية والمساواة والاخوة » عظيم رغم قيمته العقلية الضعيفة ولهذا الرمز السحري الذي ظل منقوشاً على جدراننا حتى ينقش على قلوبنا قدرة خارقة تعادل ما يعزوه السحرة

الى بعض الالفاظ من القدرة ، وما القته وعوده من الآمال الجديدة في القلوب سهل انتشاره وقد ضحى الوف من الناس انفسهم في سبيله والآن اذا اضطربت ثورة في العالم فان رجالها يستنجدون به .

حقاً انهم يحميدون الاختيار لأن الصيغة المذكورة هي من الامثال المهمة الموهمة للنفوس والتي يفسرها كل امرئ على ما تقتضيه اذواقه واحقاده وآماله ، ففي أمر الايمان لا شأن لمعنى الالفاظ الحقيقي وما سر قوتها الا بما ينسب اليها من الالهية .

ان مبدأ المساواة هو اكثر مبادئ الشعار الثورى تسبباً للنتائج وسرى في جزء آخر من هذا الكتاب ان ذلك المبدأ وحده هو الذى بقي تقريباً وان تأمجه لا تزال تبدو للعيان .

لم تكن الثورة الفرنسية هي التى علمت العالم مبدأ المساواة ولا حاجة لنا في اثبات ذلك الى البحث عن الجمهوريات اليونانية القديمة اذ ان الدين المسيحى والدين الاسلامي قد ارشدا الناس بأبهى بيان الى هذا المبدأ فلما كان هذا الناس في نظر هاتين الديانتين صياداً لآله واحد فانهم تساوا واعنده وهو يفصل بينهم بما تقتضيه فضائلهم ، ومن هنا فان المبدأ القائل بمساواة النفوس أمام الخالق هو جوهرى عند المسلمين والنصارى .

ولكن اعلان المبدأ لا يكفي لمحافظة الناس عليه فالكنيسة المسيحية

لم تلبث ان عدلت عن مبدأ المساواة النظرى ولم يعباؤه زعماء الثورة
الفرنساوية الا في خطبهم فقط .

يختلف معنى المساواة بحسب الاشخاص وكثيراً ما يدل على
مشاعر تناقض معناه الحقيقي اى على رغبة الانسان في ان لا يرى
فوقه احداً وان يكون كل امرىء دونه . وتعتبر كلمة المساواة عند
يعاقبة الثورة الفرنسية ويعاقبة الوقت الحاضر عن حقدهم على
جميع الافضليات ولذلك سعوا لحق هذه الافضليات بتوحيد العادات
والاوضاع والازياء والراتب . ولما عجزوا عن اجتناب التفاوت
الطبيعي المصادم لهم انكروه ، جاء في البيان الثاني لحقوق الانسان
اى بيان عام ١٧٩٣ الذى اشرنا اليه آنفاً : « ان جميع الناس متساوون
بطبيعتهم »

يظهر انه انطوى تحت تعطش زعماء الثورة الفرنسية
للمساواة رغبة شديدة في التفاوت وهذا ما حدا بنابليون ان يحدث
ألقاب شرف واوسمة لهم ، وبعد ان بين (تان) ان نابليون وجد
اشد اعوانه اطاعة بين اجلاف الثورة قال :

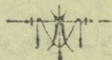
« اكتشف نابليون تحت كلتي الحرية والمساواة اللتين كانتا تلوكهما افواههم
ميلهم الى السيادة ورغبتهم في الامر والنهي والتفوق ولو رؤوسين ثم رأى ان
اكثرهم يطمع في المال والترف ، ولا فرق بين النائب في لجنة السلامة العامة
والوزير وبين الوالي ووكيله في العهد الامبراطوري فالرجل لا يتغير وان

غير لباسه .»

وكان اول نتيجة لمبدأ المساواة هو اعلان ابناء الطبقة الوسطى السلطة الشعبية ، غير ان هذه السلطة ظلت نظرية ايام الثورة الفرنسية .

ان مبدأ المساواة هو تراث الثورة الفرنسية الدائم واما تأثير مبدأ الحرية والاخاء اللذين اكتنفاه في شعار الجمهوري فضعيف ولم ينفعا ايام الثورة الفرنسية وفي العهد الامبراطوري الا في تزويق الخطب وما ازداد عملها بعد ذلك ابداً فلم يطبق مبدأ الاخوة في أى زمن ولم تبال الامم بمبدأ الحرية الا قليلا وقد تركه العمال في الوقت الحاضر الى تقاباتهم .

والخلاصة ان شعار الجمهورى كان ذا تأثير عظيم وان قل تطبيقه فلم يبق من الثورة الفرنسية في نفوس الشعب سوى ثلاثة الفاظ مشهورة مجملة لانهجها وقد شترتها في جميع انحاء اوروبا جيوشها .



الباب الثاني تأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع ايام الثورة الفرنسية

الفصل الاول

نفسية المجلس التأسيسي

١ - المؤثرات النفسية ايام الثورة الفرنسية

أثر في تكوين الثورة الفرنسية وفي ديمومتها عناصر نفسية وعاطفية ودينية وجموعية تابع كل واحد منها لمنطق خاص ، وقد نشأ عن عدم التفريق بين هذه المؤثرات أن فسر كثير من المؤرخين ذلك الدور تفسيراً سيئاً .

كان عمل العنصر العقلي الذي اتخذ آلة للتعبير والايضاح ضعيفاً . نعم انه اعد الثورة الفرنسية ولكن اسره لم يستقم الا في اوائها اي ايام كانت في قبضة ابناء الطبقة الوسطى وقد تجلى تأثيره حينئذ في كثير من الامور كواضح اصلاح الضرائب والغاء امتيازات الاشراف الخ .

وعندما تغلغت الثورة المذكورة في الامة توارى عنصر العقل امام عناصر العاطفة والاجتماع واما عناصر التدين التي هي دعامة

الايان الثوري فقد حرضت الجيوش على التعصب وسببت انتشار
المعتقد الجديد في العالم .

وسرى ان هذه العوامل بدت على نفسية الافراد واعمالهم
ولر بما كان المؤثر الديني هو اهمها ولذلك لا يمكن ادراك حقائق
الثورة الفرنسية كما يجب الا اذا اعتبرنا انها تكونت تكون المعتقدات
الدينية ، وقد يطبق عليها ما قلناه في مكان آخر عن جميع المعتقدات
فاذا تصفحنا الفصل الذي بحشاه عن ثورة الاصلاح الديني نرى
انه يوجد شبه كبير بينه وبين الثورة الفرنسية .

سعى الفلاسفة زمانا طويلا لاثبات ما للمعتقدات من القيمة
العقلية القليلة وقد اخذوا في هذه الايام يفسرون شأنها تفسيراً اتم
واحسن فاضطروا الى الاقرار بانها ذات تأثير كاف لتغيير جميع عناصر
الحضارة .

انها تسخر الناس غير مستعينة بالعقل وعندها من القدرة ما
يكفي لتحويل الافكار والمشاعر نحو غرض واحد ولا تضاهي
قوة العقل المطلق قوتها فليس هو الذى يلقي الحمية في قلوب الناس
ويوضح لنا اللباس الديني الذى لبسته تلك الثورة قوة انتشارها
ومالها من النفوذ في الحال والماضي ، والمؤرخون الذين عدوا هذا
الحادث العظيم كدين جديد قليلون وأظن ان (توكفيل) هو اول

الحادث العظيم كدين جديد قليلون واظن ان (تو كفيل) هو
 اول من استدل على ذلك حيث قال : « ان الثورة الفرنسية هي
 ثورة سياسية سارت على نسق الثورات الدينية وبرزت مصطبغة
 بشي من صبغتها ، واذا نظرتم الى وجه الشبه بينها وبين الثورات
 الدينية ترون انها انتشرت مثلها في اقاصي البلاد وتوغلت بالدعوة
 والارشاد . إلا ان ثورة سياسية تسعى مثلها في استمالة الناس الى
 مذهبها وتدعوا الاجانب بهمة الى انجاز ما تأمر به الامر عجيب »
 وعندما يعترف بما في الثورة المذكورة من عناصر التدين يسهل
 ايضاح ما اوجبه من الهياج والتخريب . اثبت التاريخ ان هذين
 الأمرين ملازمان لتكوين المعتقدات وقد سببت الثورة الفرنسية
 ما تطلبه الآلهة المنصورة عبادة الى عبادها من العدوان واجتناب
 التسامح فاقلقت اوروبا مدة عشرين سنة وخربت فرنسا وافنت
 ملايين كثيرة من الناس واوجبت غزوات عديدة من الاعداء .
 ان عنصر التدين هو دعامة المعتقدات ولا تلبث بعض العناصر
 العاطفية والعقلية ان تتراكم عليه وهكذا يجمع المعتقد بين المشاعر
 والاهواء والمنافع الصادرة عن العنصر العاطفي ثم يكتنف العقل جميع
 ذلك ليبرر حوادث لم يكن له يد في وقوعها ابداً
 كان كل انسان ايام الثورة الفرنسية يلبس المعتقد الجديد ثوباً

عقلياً مختلفاً باختلاف رغائبه فرأت الأمم فيها الغاء لما كابدته من سلسلة
المراتب والاستبداد الديني والسياسي وظن الكتاب كغوته
والمفكرون ككانت أنهم اكتشفوا فيها انتصار العقل، ونزل الأجانب
كهو مبولت بلاد فرنسا لا يستنشقوا هواء الحرية ويشاهدوا جنازة
الظلم والاستبداد .

لم تدم هذه الاوهام الذهنية طويلاً فقد اوجب تمثيل تلك
الرواية المحزنة كشف الغطاء بسرعة عن حقيقة ما بنيت عليه من
الحقائق .

٢ - زوال العهد السابق - اجتماع المجلس النيابي
قبل ان تخرج الثورات الى حيز العمل تتكون في عالم الفكر
وقد بدأت الثورة الفرنسية التي اعدتها الاسباب المذكورة سابقاً
تبرز الى عالم الحقيقة في ايام لويس السادس عشر وكان أبناء الطبقة
الوسطى في أيامه كلما ازدادوا سخطاً ولوما يكثرون من مطالبهم
التي سماها الناس بالاصلاحات .

نعم اطاع لويس السادس عشر على ما فيها من الفوائد ولكن
ضغفه جعله عاجزاً عن إلزام الاشراف والاكليروس بها وعن تأييد
وزرائه المصلحين كما ليرب وتورغو .
اوجبت المجاعات شدة بؤس جميع الطبقات وازدياد الضرائب

وما كانت تناله بطانة الملك من الرواتب الجسيمة لم يكن يتفق مع
 فاقة الناس ابداً . دعي الاعيان ليعالجوا حالة البلاد المالية فرفضوا
 المساواة في الضرائب ولم يسلّموا الا باصلاحات زهيدة لم يرض
 برلمان باريس بتسجيلها ففض فشاطرته برلمانات الولايات رأيه ففضت
 ايضا ولكن لما كانت مستولية على الرأي العام حرصته في كل مكان
 على مطالبة الحكومة بدعوة المجلس النيابي الذي لم يجتمع منذ قرنين .
 (واقفته الحكومة على ذلك فاوفد خمسة ملايين فرنساوي
 بينهم ١٠٠٠٠٠٠ كهنوتي و ١٥٠٠٠٠٠ شريف الفأومثي نائب منهم
 ٥٨٧ ممثلون للطبقة الثالثة واكثرهم من القضاة والمحامين والاطباء ومنهم
 ٣٠٠ ممثلون للاكليروس ثلاثهم يمت الى العوام بروابط النسب
 ويميلون بقلوبهم الى الطبقة الثالثة ضد الاشراف والاكليروس)
 وقد بدت منذ الاجتماعات الاولى اختلافات روحية بين اولئك
 النواب المتفاوتين في احوالهم الاجتماعية والنفسية فكانت ازياء
 النواب الممتازين تضاد ملابس وكلاء الطبقة الثالثة القائمة مضادة
 مخزية ، ولما ستر نواب الاشراف والاكليروس في الاجتماع الاول
 رؤوسهم امام الملك حسبما تقتضيه امتيازاتهم اراد نواب الطبقة الثالثة
 تقليدهم فاحتج الاولون على ذلك وفي اليوم الثاني حدثت بين
 الطرفين اختلافات اخرى مصدرها عزة النفس فدعا نواب الطبقة

الثالثة نواب الاشراف والاكليروس المجتعيين في بهوين بعيدين الى الاجتماع سوية كي يدققوا وثائق نياتهم فرفض الاشراف ذلك وبعد ان استمرت المفاوضات اكثر من شهر اعتبر نواب الطبقة الثالثة أنفسهم ممثلين لـ ٩٥ في المئة من مجموع الامة بناءً على اقتراح الشماس (سياليس) وسموا انفسهم بمجلس الامة، وهكذا اخذت الثورة الفرنسية تسير مآجحة .

٣ = المجلس التأسيسي

تتكون قوة المجالس خاصة بسبب ضعف مناهضيها ، فلما شعر المجلس التأسيسي بما لقيه من المقاومة الضعيفة واستحوذ عليه بعض الخطباء اخذ منذ البداية يقول ويفعل قول الأمر النهائي وفعله ثم ادعى بان وضع الضرائب امر يتعلق به وحده فتعدى بذلك على حقوق الملك .

(كانت مقاومة لويس السادس عشر ضئيلة فاكتمل باغلاق بهو المجلس النيابي فاجتمع النواب حينئذ في بهو (جودوبوم) حيث اقساموا انهم لا يتفرقون قبل ان يسنوا دستوراً للمملكة . ثم انضم اليهم اكثر نواب الاكليروس وقد نقض الملك قرار المجلس فأمر النواب بالانصراف وعندما دعى رئيس الحجاب المركزي (دودرو يزي) النواب الى العمل بأمر الملك صرح رئيس المجلس « بأن

الأمة وهي مجتمعة لا يمكن ان تتلقى امراً من احد» ثم أجاب (ميرابو) رسول الملك قائلاً: «ان المجلس الذي اجتمع بأمر الأمة لا تقضه الا قوة الحراب» هنالك أذعن الملك وفي اليوم التاسع من شهر حزيران سمى النواب مجلسهم بالمجلس التأسيسي وهكذا اعترف الملك بوجود سلطة جديدة كانت مجهولة في الماضي اي بسلطة الأمة التي يمثلها نوابها فطويت بذلك صحيفة الملكية المطلقة .

(ولما احس لويس السادس عشر انه في خطر مستمر أقام في اطراف فرساي كتائب من مرتزقة الاجانب فطلب اليه المجلس ان يسحبها فامتنع وعزل نيكر مقيماً مكانه المرشال (دوبروغلي) المشتهر بحزمه . ولكن المجلس كان عنده مدافعون ماهرون وقام (كاميل دييولان) وغيره من الخطباء يعظون الجماعة ويدعونها الى الدفاع عن الحرية ثم دقوا الجرس تهنئاً للناس وجندوا ١٢٠٠٠٠ مقاتل واستولوا على مستودع البندقيات والمدافع وساقوا عصابات مسلحة في ١٤ تموز الى (الباستيل) فسلم هذا الحصن بعد ان دافع بضع ساعات وقد وجد فيه سبعة سجناء احدهم احمق واربعة منهم متهمون بجرم التزييف .)

كان الباستيل الذي هو سجن كثير من ضحايا الظلم رمزاً للاستبداد الملوكي ولكن لم يوجد ما يجعل الشعب الذي هدمه ان

يتألم منه إذ لم يعتقل فيه سوى الاشراف، وقد استمر تأثير الاستيلاء على تلك القلعة حتى اليوم فقل كثير من كبار المؤرخين كاللوسيورامبو « ان الاستيلاء على الباستيل لحادث عظيم في تاريخ فرنسا بل وفي تاريخ أوروبا إذ فتح دوراً جديداً في تاريخ العالم »

يوجد في هذا القول الساذج شيء من الإفراط فاهمية ذلك الحادث هو اعطاؤه الشعب لأول مرة مثلاً واضحاً على وهن سلطة الملك التي كانت مخيفة، ومتى ترلزلت مكانة مبدأ السلطة اسرع في الانحلال وما ذا لا يطلب من الملك العاجز عن الدفاع عن حصنه الخاص إزاء حملات الشعب؟ هكذا أصبح السيد ذو الحول والقوة فيما مضى لا يقدر على شيء.

كان الاستيلاء على الباستيل، مصدراً لحادثة من حوادث العدوى النفسية التي كثر وقوعها أيام الثورة الفرنسية إذ أخذت علائم التمرد تلوح على مرتقة الاجانب رغم كون الحادثة المذكورة لا تهمهم وهذا ما جعل لويس السادس عشر يرضى بتسريحهم، ثم استدعى (نيكر) ثانية وذهب الى دار البلدية فاستصوب جميع ما وقع من الامور واستحسن الراية الجديدة ذات الالوان الثلاثة (الازرق والايض والاحمر) التي جاء بها (لافايت) قائد الحرس الوطني والتي تجمع بين راية الملك وراية مدينة باريس.

ومع انه لا يجوز عد الفتنة التي ادت الى الاستيلاء على الباستيل
« كحادثة عظيم في التاريخ » فانها تدل على الوقت الذي شرع فيه
الشعب يقبض على ناصية الحكم فقد اخذ الشعب السلاح بعدها يتدخل
في مذاكرات المجالس الثورية ويشدد وطأته عليها .

وقد استوجبت مداخلة الشعب المذكورة المطابقة للمبدأ القائل
بسلطته عجب كثير من مؤرخي الثورة الفرنسية واحترامهم ،
ولو بحث هؤلاء ولو بحثاً سطحياً عن روح الجماعات لراؤا ان ما
يسمونه بالشعب لم يعبر الا عن ما يريده بعض الزعماء ، اذاً يخطيء
من يقول : ان الشعب استولى على الباستيل وهجم على التويلاري
واحتل مجلس العهد الخ بل يجب ان يقال ان بعض الزعماء جمعوا
بواسطة الاندية عصابات من الشعب ساقوها على الباستيل والتويلاري
الخ . وهذه الجموع نفسها هي التي هجمت ايام الثورة الفرنسية
على اشد الاحزاب اختلافاً ودافعت عنها حسب من يكون على رأسها
من الزعماء فالجماعات لا رأي عندها غير رأي رؤسائها .

وبما ان المثل المذكور من اعظم أمثلة التلقين تأثيراً فقد عقب
الاستيلاء على الباستيل تخريب حصون اخرى فاعتبر الفلاحون
كثيراً من القصور باستيالات صغيرة وطفقوا يحرقونها مقتدين بسكان
باريس وكان غضبهم يشتد وقما يجدون في تلك القصور صكوكاً

إقطاعية •

ومهما بلغت غطرسة المجلس التأسيسي أمام الملك فإنه اظهر كجميع المجالس الثورية التي جاءت بعده جبناً عظيماً إزاء الشعب اذ قبل في الليلة الرابعة من شهر اغسطس اقتراح احد الاشراف الكونت (دونواي) القائل بالغاء جميع حقوق الاسراء الاقطاعيين راجياً بذلك ختام المشاغبة ومع ان هذا القرار الغي جميع امتيازات الاشراف دفعة واحدة فقد 'صوت له' واعضاء المجلس يعانق بعضهم بعضاً باكين لشدة الفرح، ويتضح لنا مثل هذا العارض الحماسي عندما تذكر مقدار ما للانفعالات النفسية من العدوى في الجماعات ولا سيما في المجالس التي استحوذ عليها الخوف •

ولو اقلع الاشراف عن امتيازاتهم قبل بضع سنين لاجتنبت الثورة الفرنسية ولو لکن ذلك وقع بعد أوانه، ولا يفعل ترك الحقوق كرهاً غير ترييد مطالب من تركت لاجلهم فيجب في عالم السياسة كشف عواقب الامور ومنح المطالب طوعاً قبل ان يحل الوقت الذي تمنح فيه كرهاً •

(تردد لويس السادس عشر شهرين في قبول ما قرره المجلس ليلة ٤ اغسطس ثم ذهب الى فرساي فساق عليه الزعماء عصابة يتراوح عددها بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسمة مؤكدين لها أنه يوجد في دار

الملك أزودة كثيرة . كسرت هذه العصاة حواجز القصر الملكي وقتلت بعض الحرس وحجىء بالملك وجميع أسرته الى باريس بين جماعة تصرخ والناس يحملون على رؤوس حرايمهم هافات من قتلهم من الجنود وقد استمرت هذه السياحة العظيمة ست ساعات وتسمى تلك الحوادث بأيام تشرين الاول .

عظمت شوكة الشعب واصبح الملك في قبضته اي تحت رحمة الاندية وزعمائها وقد استمرت هذه الشوكة الشعبية بعدئذ ما يقرب من عشر سنين فارتكبت عليها الثورة الفرنسية تقريرا . ورغم مناداة المجلس التأسيسي بان الحكم للشعب فقد وهنته الفتن التي وقعت مجاوزة حد ظنونه النظرية وقد تحيل انه وضعه دستورا يضمن للناس سعادة ابدية يعود الجميع الى النظام .

كان سن القوانين الاساسية ونقضها ثم تجديدها شغل المجالس الرئيسية ايام تلك الثورة لاعتقاد الاعضاء انها قادرة على تحويل المجتمعات ومن هذه القوانين البلاغ الذي اذاعه المجلس التأسيسي ملخصا فيه مبادئه في حقوق الانسان ريثما يتم وضع قانون البلاد الاساسي .

لم يؤثر الدستور والتصريحات والمناشير والخطب في الفتن الشعبية والانشقاق الذي تفاقم في المجلس التأسيسي وقد عانى هذا

المجلس تسلط الحزب المتطرف المستند الى الاندية وكان اصحاب النفوذ من الزعماء كدانطون وكاميل ديولان ثم مارا وهيبير يهيجون السوقة بخطبهم وجرائدهم فصار الهبوط من المنحدر المؤدي الى التطرف سريعاً .

ولم تتحسن مالية البلاد في اثناء هذه القلاقل ولما اعتقد المجلس التأسيسي في نهاية الامر بان الخطابة في الانسانية لا تبدل شيئاً من حالة البلاد المالية التي يرثي لها وشعر باشرافها على الافلاس (اسر في ٢ تشرين الثاني سنة ١٧٨٩ بالاستيلاء على املاك الكنيسة) .

قدرت محاصيل هذه الاملاك مع الزكاة التي كانت تأخذها الكنيسة من المؤمنين بمئتي مليون وقيمتها بثلاثة مليارات وكانت تلك المحاصيل توزع قبل ذلك على بضع مئات من الاساقفة والكليروس البلاط الخ . جعلت هذه الاملاك التي سميت فيما بعد بالاملاك الوطنية ضماناً للاوراق النقدية وقد صدر في المرة الاولى من هذه الاوراق ما قيمته اربعمئة مليون فاقبل عليها الجمهور في البداية ولكن مقدارها زيد في دور العهد ودور الدير كتوار زيادة بلغت ٤٥ ملياراً فاصبحت ورقة المئة ليرة لا تساوي سوى بضعة سنتيمات .

وقد أغرت لويس السادس عشر الضعيف حاشيته فحاول —

ولكن بدون طائل - ان يناهض قرارات المجلس التأسيسي. فضله
استصوابها . وانتشرت الحركة الثورية - بتأثير العدوى النفسية
وما اتى به الزعماء من التلقين - مستقلة عن المجلس التأسيسي حتى
انما ثارت عليه في بعض الاحيان (وتكونت في المدن والقرى بلديات
ثورية يخفرها حرس وطني محلي وكانت المدن المجاورة تتفق على
الدفاع عن نفسها عند الحاجة وهذه المحالفات لم تلبث ان اصبحت
مخالفة واحدة فارسلت ١٤٠٠٠ حارس وطني في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠
الى حي (شان دو مارس) في باريس حيث اقسم الملك يمين الاخلاص
للدستور الذي سنه المجلس الوطني .)

وبالرغم من هذا القسم فان كل ائتلاف بين مبادئ الملكية
الاعرثية والمبادئ التي اعلنها المجلس كان مستحيلاً (ولما احس الملك
بعجزه فكر في الفرار فقبض عليه في (فارين) وسيق الى باريس اسيراً
فأسكن في قصر التويلري) ومع ان المجلس ملكي فقد منع الملك
عن التصرف بسلطته اخذاً على عاتقه وحده القيام بامور الحكومة
وما وجد ملك في موقف حرج كلويس السادس عشر ايام فراره ولو
كان عنده ذهء (ريشايو) لما كفاه خروجه من ذلك المازق اذ ان
الجيش الذي كان يستطيع ان يستند اليه قد تحلى عنه .

لا شك ان اكثرية الامة الفرنسية السباحة كانت ملكية في

عهد المجلس التأسيسي الذي هو ملكي ايضاً ولذلك احتمل ان يظل الملك قابضاً على زمام الحكم لو رضي بنظام ملكي دستوري ، ونستدل من ذلك انه لم يكن على لويس السادس عشر الا ان يأتي بعمل قليل ليتفاهم مع المجلس . نعم كان عليه ان يأتي بعمل قليل ولكن هذا العمل متعذر على رجل ذي مزاج مثله ، ولو رضي بتغيير النظام الملكي الذي انتقل له عن الآباء لاتصبت امامه اشباح اجداده واذا فرضنا انه حاول ذلك لاستحال عليه التغلب على امرته والا كليروس والاشراف والبطانة لان هذه الطوائف القديمة التي استند اليها النظام الملكي كانت ذات قوة تضاهي قوة الملك على وجه التقريب ، والقوة هي التي كانت ترغم الملك على الاذعان وتدلنا استغاثته بالاجنبي على ان اليأس بلغ منتهاه عنده وانه رأى جميع اركانه الطبيعية قد تداعت .

علق الملك والملكة اغرب الآمال على معونة النمسا المزاحمة فرنساً منذ عصور ، وهي وان قبلت ان تأتي لاغاثة الملك فذلك لها في نيل غنيمة عظيمة وقد صرح (سرمي) بان ستطالب الازاس ب ونافار مكافأة .

لما رأى زعماء الاندية ان المجلس ملكي بكل معنى الكلمة ، ساطوا من فوق عريضة تطالب المجلس بان يجمع جمعية جديدة

مؤسسة لتحاكم لويس السادس عشر، وبما ان المجلس ظل ملكياً رغم كل شيء، ورأى ان الثورة الفرنسية أصبحت ذات صبغة شعبية عزم على القيام بالمدافعة ازاء قن السوق فساق بقيادة (لافايه) كتيبة من الحرس الوطني الى حي (شاندومارس) لتشتيت الجماعة المحتشدة هنالك فقتل خمسون من المتظاهرين .

الا ان المجلس لم يصر على المقاومة طويلاً وقد سببت شدة جبايته امام الشعب زيادة تجبره على الملك وانزاعه كل يوم شيئاً من امتيازاته وسلطته حتى صار موظفاً بسيطاً عهد اليه تنفيذ ما يبلغ من الاوامر .

نعم ظن المجلس انه قادر على القيام باعباء السلطة التي انزعها من الملك ولكن ذلك فوق طاقته إذ السلطة المقسمة كثيراً تبقى لا عمل لها قال ميرابو :

« لم أر سلطة اشد وطأة من السلطة المعطاة الى ستمئة رجل .

لم يلبث المجلس بعد ان توهم بأنه ضم جميع السلطات اليه وبأنه سيتصرف فيها على طريقة لويس الرابع عشر ان عجز عن العمل وكانت كما تضعف قدرته تتفاهم الفوضى وما فتئ الزعماء لحطة عن تبسيع الشعب فأصبحت الفتنة قوة البلاد الوحيدة وصار يستولي على المجلس كل يوم ثمة من المساعين المتجولين فيملون عليه

متوعدين منذرين • وليست جميع هذه الفتن الشعبية التي اطاعها
المجلس خائفاً غريزية بل كانت مظاهر لسلطات جديدة وهي الاندية
والهيئة الثورية •

كان النادي العقوبي اقوى الاندية وسرعان ما اسس في
الولايات خمسمائة فرع لتعمل بامرہ وقد استمر سلطانه في جميع ايام
الثورة الفرنسية وتسارط على جميع فرانس بعد تسلطه على المجلس
ولم يراحه غير الهيئة الثورية التي انحصر نفوذها في باريس • صار
الشعب غير راض عن المجلس الوطني لضعفه وعجزه واعترف هذا
المجلس بان سلطانه آخذ في التقلص فاسرع في اتمام الدستور الجديد
لينفض بعد ذلك ، وكان قراره الاخير اخرق اذ صرح فيه بأنه لا
يحق لأعضاء المجلس التأسيسي ان يكونوا اعضاء في المجلس التشريعي
فحرم بذلك اعضاء هذا المجلس الاخير من تجربة سلفهم

ثم وضع الدستور في ٣ ايلول سنة ١٧٩١ وفي ١٣ من ذلك
الشهر رضي به الملك الذي اعاد اليه المجلس سلطته • وقد اقام هذا
الدستور حكومة نيابية فعهد بالسلطة التشريعية الى نواب ينتخبهم
الشعب وبالسلطة التنفيذية الى ملك يحق له ان يرفض قرارات
المجلس ، ثم قسم المملكة الى مديريات بدلا من تقسيمها السابق الى
ولايات والغى الضرائب القديمة مقيما مكانها ما هو معمول به الآن من

الضرائب المقررة وغير المقررة .

وقد ظن المجلس المذكور الذي غير تقسيم المملكة وقلب نظامها الاجتماعي القديم انه قادر على تحويل نظامها الديني ايضاً فاراد ان يقبض على ما للبابا من النفوذ بان يجعل الشعب منتخباً لرجال الاكليروس . أثار هذا القانون المدني الاكبر ومي مصارعات واضطهادات دينية استمرت حتى عهد القنصلوا واني ثلثا التساوية ان يتسموا بيمين الاخلاص .

لقد نشأ عن الثورة الفرنسية في دور المجلس التأسيسي الذي استمر ثلاثة اعوام نتائج عظيمة ولربما كان اهمها نقل شريعة اصحاب الامتيازات الى ابناء الطبقة الثالثة لان هذا العمل أوجب ظهور انصار ماتهم بين حماسة للنظام الجديد . واذا كانت دعامة الثورة قضاء الشبهات فانها تنال قوة عظيمة فبعد ان ادرك ابناء الطبقة الثالثة الذين حلوا مكان الاشراف والفلاحون الذين اشتروا الاملاك الوطنية ان اعادة النظام السابق يحرمهم من جميع تلك الفوائد دافعوا عن الثورة الفرنسية أشد دفاع ، وما انت به نصف المديرات من القيام في وجه الحيف الذي لحق بهما ذهب ادراج الرياح إذ تغلب الجمهوريون على كل معارضة وقد بلغت قوتهم مبلغاً أصبحوا به قادرين على الدفاع عن المثل الاعلى الجديد وعن منافعهم المادية معاً وسنرى ان تأثير

هذين العاملين استمر في جميع ادوار الثورة الفرنسية وأعان على إقامة الامبراطورية.

الفصل الثاني

نفسية المجلس التشريعي

١ — الحوادث السياسية التي وقعت في

عهد المجلس التشريعي

لنأخذ ما وقع في عهد المجلس التشريعي الذي استمر سنة واحدة من الحوادث السياسية العظيمة قبل ان نبث عن أوصافه النفسية إذ كان لها شأن كبير في مظاهره الروحية:

لم يفكر المجلس التشريعي الذي كان ملكياً كالمجلس السابق في القضاء على الملكية، وهو وإن ارتاب من الملك فإنه كان يود ان يحافظ عليه • إلا ان لويس السادس عشر كان يطلب تدخل الاجنبي ويتدرب بين عوامل متناقضة ايام اقامته في قصر (التويلري) • لا ريب في انه امدّ صحناً بالمال لتغيير الرأي العام في شأنه ولكن كتبها الغامض اسرهم كانوا يجهلون صناعة التأثير في روح الجماعات • فكانت

طريقتهم الوحيدة في الاقتاع تهديد جميع انصار الثورة بالصلب
والانذار باستيلاء جيش اجنبي على البلاد لا تقاذ الملك .
اصبح الملك لا يعتمد الا على ملوك الاجانب واخذ الاشراف
يمجرون البلاد افواجاً افواجاً واضحت بروسيا والنمسا وروسيا
تتوعد فرنسا بالاستيلاء عليها والبلاط يروج دسائس هذه الدول
ثم اقترح النادي اليقوي ان يناهض تحزب الملوك على فرنسا بعقد
تحالف بين الشعوب على ملوكها ، وكان الجير ونديون واليعاقبة
قابضين حينئذ على زمام الثورة فخشوا الناس على التجنيد فجزوا ٦٠٠٠٠٠
متطوع ثم رضي الملك بان يعين وزارة جير وندية وقد استحوذت
هذه الوزارة على لويس السادس عشر فجاءته يقترح على المجلس شهر
الحرب على النمسا فصوت المجلس لذلك حالاً .
(غير ان الملك لم يكن مخلصاً في اعلانه الحرب فاطلعت الملكة
النمساوية على خطط فرنسا الحربية وعلى مذاكرات مجلس الوزراء
كانت فاتحة الحرب مشنومة فشتتت فرق كثيرة لما هوجمت بغتة فثار
سكان الضواحي لتحريض الاندية اياهم ولاعتقادهم ان الملك يتآمر
مع الاجنبي فساقهم زعماء اليعاقبة - ولا سيما دانطون - الى المجلس
في ٢٠ حزيران حاملين عريضة يتوعدون فيها الملك بالخلع ثم استولوا
على قصر (التويلري) وشتموا الملك)

كان القدر يدفع لويس السادس عشر لينال جزاءه وبينما كان وعيد العاقبة للملكية يغضب مديريات كثيرة علم الناس بوصول جيش بروسي الى حدود (اللورين) وكان امل الملك والملكة بمعونة الاجنبي باطلا، ولما رأَت (ماري انطوانيت) ان بعض الهائجين يسوسون فرانسا بما يلقونه من الرعب ظنت بانها تقدر ايضاً على تخويف سكان باريس وارجاعهم الى إمرة الملك بالوعيد والتهديد (فامرت (فيرسان) ان ينشر تصريح الدوك (دوبرونسويك) الذي هدد فيه باريس « بتخريبها اذا لمست عائلة الملك بسوء »). كانت النتيجة خلاف ما توقعت إذ أسخط التصريح المذكور الناس على الملك واعتقدوا بأنه شريك في ذلك فازداد الشعب منه نفوراً.

(ثم حرص (دانطون) وكلاء الأندية فأقاموا في دار البلدية هيئة ثورية وقد سجنّت هذه الهيئة قائد الحرس الوطني المخالص الى الملك ثم قرعت الحرس ايقاظاً للناس وأثارت الحرس الوطني وساقته مع السوق في ١٠ اغسطس الى قصر (التويلري) ففرقت الكتاب التي استدعاهم لويس السادس عشر ولم يبق للدفاع عنه غير جنود أسويسرية وبعض الاشراف قتل جميعهم تقريباً ولما بقي الملك وحيداً التجأ الى المجلس فطلبت الجماعة اسقاطه فقرر المجلس التشريعي نزع السلطة منه تاركاً امر البت في مصيره الى المجلس القادم اي مجلس العهد).

٢ = صفات المجلس التشريعي النفسية

يوجد في البحث عن المجلس التشريعي المؤلف من اعضاء جدد
فائدة نفسية خاصة فالمجالس التي تجلت فيها صفات الجموع السياسية
مثل ذلك المجلس قليلة العدد .

كان عدد نوابه سبعمائة وخمسين منقسمين الى ملكيين متطرفين
وملكيين دستوريين وجمهوريين وجيرونديين ومونتانياريين وكانت
اكثريته من المحامين ورجال الادب وقد حوى ايضاً قليلاً من
الاساقفة الدستوريين وكبار الضباط والقسيسين والعلماء .

ان مبادئ اعضاء هذا المجلس صيبانية فكان اكثرهم مشبعاً بافكار
روصو القائلة بالرجوع الى الحالة الفطرية الاولى وكان جميعهم يميل
الى اليونانيين والرومانيين الاقدمين مستعنيين بافكار قاطون
وبروتوس وغراكوس وبلوتارك ومارك اوريل وافلاطون وكانوا
يسمون لويس السادس عشر عند ما يريدون شتمه بكاليغولا .

حقاً انهم ثوريون لرغبتهم في القضاء على التقاليد ولكنهم
دجمعون لطمعهم في العودة الى ماض عهيد . غير ان النظريات لم
تؤثر الا قليلاً في سيرهم وكان العقل يظهر في خطبهم دون اعمالهم وقد
استولت الوسواس العاطفية والدينية التي بينا قوتها مرات عديدة
عليهم .

ان صفات المجلس التشريعي النفسية كصفات المجلس التأسيسي ولكنها أشد وتلخص في اربع كلمات وهي سرعة الانفعال وسرعة القلب والجبابة والضعف ويستدل على سرعة تقلبه وسرعة انفعاله من تحولاته المستمرة في سيره فيوماً كان اعضاؤه يتشائمون ويتلاكزون ويوماً يتعاقون باكين وقد هتفوا هتافاً شديداً للعريضة التي طلب فيها مجازاة من قالوا باسقاط الملك ثم حيوا الوفد الذي اتى في اليوم ذاته ليلتمس خلعهم (واما حين المجلس وضمفه فكانا شديدين فقد قرر نزع السلطة من الملك رغم كونه ملكياً ولبي طلب الهيئة الثورية في تسليمه مع عائلته اليها لتسجنه في برج (التامبل) وقد ظهر عجزه - كالمجلس التأسيسي - عن التصرف بسلطته ففوض زمامه الى الهيئة الثورية والاندية التي يديرها زعماء نافذون كهيبر وطاليان وبوسينول ومارا وروبسيير الخ.) (ظلت تلك الهيئة الثورية دعامة للحكومة حتى الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية (١٧٩٤) وكانت تسير كان ادارة باريس فوضت اليها فهي التي طلبت سجن لويس السادس عشر في برج (التامبل) مع ان المجلس اراد اعتقاله في قصر (لو كسنبرغ) وهي التي ملات السجون بالمتهمين ثم امرت بدبجهم . وأمر الفظاظاة التي أبادت بها عصابة مؤلفة من ١٥٠ عائلاً ما

يقرب من ١٢٠٠ نسمة في اربعة ايام مشهور . أعطي هؤلاء العائشون ٢٤ ليرة اجرة يومية ودفعهم الى تلك الاء بادة المسماة بمذابح ايلول بضعة اعضاء من الهيئة الثورية ، ولقد احتق (بيطون) رئيس بلدية باريس بهؤلاء القتلة وسقاهم خمرأ فاحتج على ذلك بعض الجير ونديين دون اليعاقبة الذين التزموا جانب السكوت .

(تجاهل المجلس في البداية أمر تلك المذابح التي حث على اقتراها كثير من اعضائه) كقو طون ويوفارين وهو وان قرر ان يؤنهم عليها في نهاية الامر فانه لم يجراً على منع استمرارها ، الا ان شعوره بهجزه اوجب انفضاضه بعد خمسة عشر يوماً من وقوع ذلك الحداث فاسحاً المجال للمجلس العهد .

لا شك في انه أساء الصنع باعماله لا بنياته فمع انه ملكي فقد اقلع عن الملكية ومع انه من المتمدنين بمذهب الانسانية فقد حدثت مذابح ايلول على مرأى منه ومع انه سلمي فقد رمى بفرنسا في حرب هائلة فاثبت لنا بسيره ان الحكومة الضعيفة تؤدي الى خراب الوطن دائماً .

دلنا تاريخ المجلسين الثوريين الاولين على ارتباط الحوادث بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً وانها ساسلة من الضرورات التي قد تنصرف بالحلقات الاولى منها ولكن الباقية تتطور مستقلة عن إرادتنا

مقرارات المجلس التأسيسي الاولى وان صدرت عن العقل والارادة
فان نتائجها وقعت مستقلة عن كل ارادة وكل عقل وكل تبصر. ومن
كان يقدر من رجال عام ١٧٨٩ على طلب قتل لويس السادس
عشر او على الاخبار بذلك القتل وبحروب (فانده) وبالهدول الاكبر
وبالمقصلة وبالفوضى ثم بالرجوع الى التقاليد والى النظام على يد احد
الجنود الحديدية.

لربما كان تكوين حكومة الجماعات ونموها اشد الحوادث التي
نشأت عن اعمال المجالس الثورية الاولى ظهوراً ويمكن ان نكتشف
وراء الحوادث المذكورة سابقا اي الاستيلاء على الباستيل والاستيلاء
على قصر فرساي والهجوم على مستودعات التويلري وقتل الحرس
السويسري واسقاط الملك واعتقاله سنن روح الجماعات وروح زعمائها.
وسنرى الآن ان سلطة الجماعات سادت شيئاً فشيئاً فاستعيدت
جميع السلطات ثم حلت مكانها في نهاية الامر.



الفصل الثالث

روح دور العهد

١ - قصة دور العهد

ليست وثائق تاريخ العهد النفسية كثيرة فحسب بل تثبت لنا أيضاً أنه يستحيل على شهود احد الادوار وعلى تابعيهم الاولين ان يأتوا باحكام صحيحة في ما يشاهدونه من الحوادث وفي من يحيط بهم من الناس .

لم يُشرع في الاتيان باحكام عليها مسحة من التدقيق في الثورة الفرنسية الا بعد مضي اكثر من عصر على نشوبها وان لم تزل هذه الاحكام مشتبهاً فيها ، ويتطلب الوصول الى ذلك استخراج الوثائق الجديدة من خزائن الاوراق القديمة وانقشاع غيوم التخصص الحاجة للحقيقة مع تقادم العهد .

لربما كانت قصة الرجال الذين نعتهم الادباء بـ « غيلان العهد » اشد تلك القصص رسوخاً في النفوس فقد تركت محاربة رجال العهد لفرنسا الشائرة ولاوروبا المدججة بالسلاح في النفوس تأثيراً جعلها بان تظن بان ابطالها مخلوقون من طينة اسمى من طينة البشر .

ان نعت « الغيلان » مقبول ما دامت حوادث ذلك الدور يخلط بعضها ببعض فتبرز كأنها حادثة واحدة ، ولما قيل بارتباط الحوادث التي وقعت في آن واحد خلطت اعمال الجيوش الجمهورية باعمال جيوش العهد فاجب تدفق ما نالته الاولى من الغزو والشرف على الثانية تبرير ملاحم الهول الاكبر ووحشية الحرب الاهلية وتخريب فرنسا ، ولكن الكتلة المتباينة اجزاؤها تفككت ازاء النقد الحديث الثاقب فحافظت جيوش الجمهورية على منزلتها واضاع رجال العهد الذين لم يبالوا الا بالحروب الاهلية اعتبارهم الادبي ، حقاً لم يهتم بأسر الجيوش في ذلك الحين سوى عضوين او ثلاثة من جن المجلس ولم يتم لها النصر الا بفضل عددها ودهاء قوادها وما ادخله الايمان الجديد من الحماسة في قلوبها وسوف نبين في فصل آت خصصناه للبحث عن الجيوش الثورية كيف انتصرت الجيوش المذكورة على اوروبا الشاكية السلاح ، انها سارت مشبعة بمبادئ الحرية والمساواة التي هي انجيل ذلك الزمن ووصلت الى الحدود حيث توقفت مدة طويلة وظلت متمسكة بنفسية خاصة تختلف عن نفسية الحكومة التي جهلت أسرها في البداية وازدرتها في النهاية •

لم يبال رجال العهد بانتصار الجيوش وقد اقتصر واعلى التشريع صدقة محسب ميل زعمائهم الذين ارادوا تجديد فرنسا بالمقصلة • من

اجل هذه الجيوش المستبسة صارت قصة العهد تاريخاً مبجلاً، وقد أخذ ذلك التبجيل يزول الآن لان البحث المفصل عن نفسية (غيلان العهد) عجل في خفضهم، اثبت هذا البحث انهم كانوا قليلي العقل والذكاء فاعترف اشد الناس دفاعاً عنهم - كالمسيو اولار - بذلك واليك ما قاله هذا المؤلف في كتابه الذي سماه (تاريخ الثورة الفرنسية) :

« ان القول بأن الجيل الذي أتى بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٩ بأعمال عظيمة مخيفة هو من الغيلان اي ارفع من الجيل الذي جاء قبله وبعده وهم قد مضى فليس مؤسسوا الاحزاب البديعية واليعقوبية والوطنية التي تمت الثورة الفرنسية على يدها اسمى من رجال فرنسا في عهد لويس الخامس عشر او لويس فيليب ذكاءً ونبوغاً . وهل اولئك الذين حفظ التاريخ اسماءهم لظهورهم على مسرح باريس او لكونهم اخطب خطباء المجالس الثورية ذوو شمائل فريضة، نعم يستحق (ميرابو) ان يلقب بخطيب عبقرى الى حد معين واما الآخرون كروبسيير ودانطون وفيرنيو فهل هم ابلغ من خطبائنا في الوقت الحاضر مثلاً؟ جاء في خواطر مادام رولان التي كتبتها عام ١٧٩٣ اي في عهد (غيلان) : ان فرنسا كانت فقيرة من الرجال وتعجب لوقوع هذا الفقر ايام الثورة الفرنسية واحتواء البلاد في ذلك الحين على عديدي العقل والذكاء فقط .

وإذا بحثنا عن رجال العهد وهم مجتمعون نرى انهم لم يتصفوا بشيء من الذكاء والفضيلة والشجاعة وان الخوف لم يبد على جماعة كما بدى عليهم وقد انحصرت بسالتهم في خطبهم وفي الحمل على

المهالك البعيدة ، كان هذا المجلس المختل الذي يتوعد الملوكة اجبن
الجموع السياسية التي عرفها العالم وأشدّها خضوعاً فقد انقاد كالعبد
الى الاندية والهيئة الثورية وارتجف فرقاً امام الوفود الشعبية التي
كانت تستولي عليه كل يوم وعمل بوصايا مشيرى الفن حتى انه
سلمهم أنبل اعضائه ثم اصبح مثلاً مخزياً لتصويته — عملاً بوصايا
العوام — لقوانين هي من العقامة بحيث اضطر الى الفائها بعد ان تركت
الغوغاء بهو الاجتماع .

ان المجالس التي اتت بضعف مثل ذلك قليلة ومن يود ان يبين
الدرك الذي تهبط اليه الحكومات الشعبية فليتنذ كر قصة « العهد »
٢ — تاثير انتصار الديانة يعقوبية

نعد رسوخ الديانة الثورية من أهم الاسباب التي منحت دور
العهد صبغته الخاصة وقد كمل في هذا الدور صوغ العقيدة التي كانت
في طور التكوين .

وتتركب هذه العقيدة من عناصر مختلفة ويتكون من هذه
العناصر — اي الطبيعة وحقوق الانسان والحرية والمساواة والعقد
الاجتماعي و بعض المستبدين والسلطة الشعبية — فصول انجيل لا
يجادل فيه المؤمنون ، ولها رسل وثيقو الايمان بسلطتهم وقد حاولوا
كالمتقدين في كل جيل ان يسخروا لها العالم بالقوة غير مباينين برأي

من لم يكن على دينهم .

ان الحق على الخوارج هو - كما بينا في بحثنا عن ثورة الاصلاح الديني - صفة من صفات ارباب المعتقدات الكبيرة . وهذا يتضح لنا السري في عدم تسامح الديانة العقويية ، اثبتت لنا قصة الاصلاح الديني ان الصراع بين المعتقدات القرية يكون عنيفا ولذلك لا يعجب من قتال اليعاقبة من يخالفهم في العقيدة من الجمهوريين الآخرين قتالاً شديداً .

ان الدعوة التي قام بها الرسل الجدد صارمة اذ ارسلوا لوعظ سكان الولايات انصاراً غيورين تراقهم المقصلات . لم يتساهل هؤلاء القضاة في الخطأ وان صغر وكانوا يفعلون حسب رأي روبسيير القائل « ان اقامة الجمهورية لا يتم الا ببادئة مخالفيها » ولم يباليوا بما اذا كانت البلاد تأتي التجدد فارادوا تجديدها رغم انها قال كارييه :
« اجدر بفرنسا ان تصبح مقبرة من ان لا تتجدد من منحنى »

كانت السياسة العقويية الصادرة عن الايمان الجديد بسيطة للغاية فهي ضرب من الاشتراكية المساوية يديرها سلطان مطلق غير متسامح مع أية معارضة ، ولم يوجد عند النظريين الذين ساسوا فرنسا فكر عملي ملائم لمقتضيات الاقتصاد والطبيعة الانسان فكانت المقصلة والخطب - ولو صيبانية - كافية عندهم . قال تانين :

« ان خطبهم حافلة بالمجردات و باحكام متتابعة في الطبيعة والعقل والامة
والجباية والحرية وغير ذلك من الامور المشابهة لكرات منقوذة متصادمة في
القضاء ولو لم يؤد جميعها الى نتائج عملية خفيفة لاعتقدنا بانها لو منطقية وتمرينات
مدرسية واقوال غريبة وتراكيب خيالية ».

نشأ عن نظريات اليعاقبة استبداد مطلق اذا كان هؤلاء يرون
ان على الوطنيين الذين تساوا مقاماً ومالاً ان يطيعوا الدولة الحاكمة
طاعة عمياء وما اتحلوه لانفسهم من الساطة اعظم من سلطة الملوك
السابقين فقد سعروا السلع وادعوا بانه يحق لهم ان يتصرفوا بحياة
الوطنيين واملاكهم ، ثم بلغت ثقهم بفضيلة المعتقد الثوري مبلغاً
جعلهم يعلنون الحرب على الالهة بعد ان اعلنوها على الملوك فوضعوا
تقويماً حذفوا منه اسماء القديسين وأوجدوا آلهة جديدة « آلهة
العقل » اخذوا يعبدونها في كنيسة (نوتردام) بطقوس معادلة
لطقوس المذهب الكاثوليكي وقد استمرت هذه الديانة حتى أقام
روبيبير مكانها ديانة شخصية جاعلاً نفسه حبرها الاعظم .

وبعد ان ساد اليعاقبة وانصارهم على فرنسا اخرجوها مع ان
الاكثرية لم تكن بجانبهم ، إن تعيين عددهم بدقة ليس هيناً ولكنه
كان قليلاً على كل حال وقد قدره تين بخمسة آلاف في باريس التي
كان فيها سبعة مئة الف نسمة وثلاث مئة في بينانصون التي كان فيها

ثلاثون الف نسمة و ثلاثمئة الف في جميع فرنسا .

ظلوا كما قاله عنهم المؤلف المذكور « فريقاً يسيراً من العائنين ينوء بحملهم عاتق فرنسا » ولسيادتهم عليها رغم عددهم القليل اسباب كثيرة اولها منح ايمانهم اياهم قوة عظيمة ، ثانيها قبضهم على زمام الحكومة بعد ان تعود فرنسا ويون منذ عصور على اطاعة اولياء الامور ، ثالثها اعتقاد الناس بان اسقاطهم يؤدي الى رجوع العهد السابق الذي يخافه مشترون الاملاك الوطنية ولو لم يظلم استبدادهم لما اقدمت مديريات كثيرة على العصيان .

والسبب الاول للقوة اليعقوبية شديد الاهمية فالغلبة في الصراع بين المعتقدات القوية والمعتقدات الضعيفة لا تكون في جانب الثانية لتكوين المعتقد القوي عزائم متينة تتغلب على العزائم الواهية ، واما علة اندثار اليعاقبة في نهاية الامر فهي ان شدة اضطهاداتهم قد أدت الى جمع الوف من العزائم الضعيفة في حزمة واحدة لم تلبث ان ظفرت على عزيمتهم القوية . نعم ان الجيرونديين الذين طاردهم اليعاقبة كانوا ذوي عقائد راسخة ولكنه اعترضهم في الصراع الذي التزموا جانبه ما لم يعترض خصومهم من تربية واحترام لبعض التقاليد والحقوق . كتب اميل اوليفيه :

« ان اكثر مشاعر الجيرونديين دقة كرامة واكثر مشاعر اليعاقبة غليظة

شرسة طاغية فلو قايسنا بين فيرنيو ومارا لرأينا ان البون بينهما شاسع وانه لا يوجد ما يدني الواحد من الآخر »

لم يلبث الجيرونندوييون الذين تغلبوا باذيء الامر بكفائتهم وفصاحتهم على مجلس العهد ان استحوذ عليهم الموتانياريون الهائجون الذين لا قيمة لهم ولا رأي والذين كانوا لا يعرفون غير إثارة عواطف السوق .

٣ - صفات مجلس العهد النفسية

يوجد عدا الصفات العامة لجميع المجالس صفات اخرى تتكون بتأثير الهيئة والظروف وتمنح كل اجتماع شكلاً خاصاً وما شوهد في المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي من الصفات رؤي اشد منه في مجلس العهد .

ضم مجلس العهد سبعة وخمسين نائباً ثلثهم كانوا اعضاء في المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي وقد نجح اليعاقبة بما أتوا به من ضروب الارهاب ان يسودوا في انتخاباته التي قاطعها ثلاثة ارباع المنتخبين ؛ واذا اجئنا عن مهن نواب مجلس العهد نرى ان اكثرهم العظمى من رجال القانون اي محامين وكتاب شرعيين ومحضرين وقضاة وبعض رجال الادب .

ان نفسية هذا المجلس ليست متجانسة وبما ان المجلس الذي

يتألف من رجال ذوي صفات مختلفة ينقسم بسرعة إلى أحزاب عديدة
فإن مجلس العهد لم يلبث أن حوى ثلاثة أحزاب هي الحزب الجيروندي
والحزب الموتانياري (الجيلي) والحزب البليني (السهلي) ، وأما
الملكيون الدستوريون فقد زال أثرهم ، وكان ينتسب إلى كل من
الحزب الجيروندي والحزب الموتانياري مئة عضو ووجد في الحزب
الموتانياري أشد الأعضاء تطرفاً كقوطين وهيرول دوسيشيل
ودانطون وكاميل ديمولان ومارا وكولوديو ويوفارين
وباراس وسان جوست وفوشيه وطاليان وكاريه وريبسيير ، وفي
الحزب الجيروندي بريصو وبيسيون وقوندورسيه وفيرنيو وقد
تألف من الأعضاء الباقين أي من أكثرية المجلس السباحة مايسمونه
بالحزب البليني (السهلي) كان هذا الحزب متردداً صامتاً مذنباً
خائفاً يتبع كل ناعق ويتقلب مع الزمن وينضم إلى أقوى الحزبين
الذين كورين فبعد أن اطاع الجيرونديين اتبع الموتانياريين عند ما
تغلبوا على خصومهم وهذه نتيجة الناموس القاضي على العزائم الضعيفة
بالخضوع إلى العزائم القوية .

تجلى تأثير المتصرفين بالرجال في مجلس العهد تجلياً ساطعاً فقد
سيرته اقلية عنيفة محدودة الذكاء جعلتها عقائدها الراسخة ذات
قوة عظيمة .

ان اقلية شرسة متجاسرة تقود اكثرية خائفة سر تابة وهذا
يوضح لنا سر ما يلزم المجالس الثورية من التطرف .
انتقل رجال العهد من طور الاعتدال الى طور التسر بالتدريج ثم
اخذوا يقتتلون فقتل و هرب من مئة وثمانين جيروندياً كانوا يزيدون
في البداية مجلس العهد، مئة واربعون وفي آخر الامر ساد على من
استحوذ عليه الخوف فرضي بالذل والاستكانة من النواب رو بسبيير
الذي هو أشد رجال الهول تعصباً .

كان اصحاب الذكاء والتجربة في المجلس المذكور من الحزب
البليني اي من الخمسة عضو المتردين المتذبذبين وقد تألفت اللجن
الفنية التي تعزى اليها اعمال دور العهد النافعة من ذلك الحزب ، ولم
يبال اعضاء الحزب البليني بالسياسة وقد اوجب انهما كهم بامور اللجن
عدم ملازمتهن لمجلس العهد ولذلك كانت جلسات هذا المجلس لا
تحتوي على اكثر من ثلث النواب ، ومن دواعي الاسف عدم
اتصاف هؤلاء ، الاذ كياء الصالحين بخلق الثبات والحزم — شأن من
هو مثلهم في الغالب — وقد دفعهم الخوف الى استصواب ما كان يمليه
عليهم الرؤساء المريعون في الاوامر السيئة .

صوت الحزب البليني الى جميع ما أمر به فاستحسن ايد المحكمة
ثورية ونظام الهول وقد محق الموتانياريون الجيرونديين وأباد

روبسيير الهيريين والدانطونيين بمعوثته وساعد جبن اعضائه
الحلماء على تسليب مظالم العهد الهائلة .

كان الخوف الشديد صفة دور العهد البارزة فهو الذي دفع كل
فريق لضرب اعناق الفريق الآخر كيلا يسبقه فيضرب عنقه ويسهل
ادراك سر هذا الخوف : فقد كان اولئك الاعضاء التعساء يتشاورون
بين جلبة الحاضرين وصراخهم ، وكثيراً ما استولت على المجالس
وحوش مساحرة بالحراب فجعلت اكثر اعضائه لا يجراؤن على حضور
الجلسات وان حضروها صدقة فليصمتوا ويصوتوا لما يأمرهم به
الموتانياريون الذين كانوا اقل منهم ثلاث مرات .

إن الخوف الذي استولى على الموتانياريين عظيم ، فلم يدعهم
التعصب وحده الى إبادة خصومهم بل ان اعتقادهم بخطر محقق بهم
دفعهم الى اقرار ذلك ايضاً وليس قضاة المحكمة الثورية اقل فرقا
منهم إذ حكموا على دانطون وأرملة كاميل ديملان وآخرين رغم
انهم وما استولى طيف الخوف على المجلس في اي وقت كما استولى
عليه عند ما أصبح روبسيير سيد البلاد الوحيد ، وقد صدق من
قال بان نظرة منه كانت تشنج زملاءه فزعاً فيقرأ على وجوههم «شحوب
الخوف او تسليم اليأس»

كان روبسيير يخاف الكل والكل يخاف روبسيير فقد قطع

الرقاب خوفاً من الائتمار به والخوف هو الذي دفع الناس الى تسليمه
رقابهم .

ويدلنا ما تركه رجال العهد لنا من الخواطر على شدة فظائع
ذلك الدور القاتم ، قال تايين :

« عند ما سئل بارير بعد عشرين سنة عن غاية لجنة السلامة العامة وسر يرتها
اجاب : [كان همنا الوحيد ان نحفظ حياتنا التي اعتقد كل منا بانها في خطر فكان
كل منا يقصل رأس جاره خوفاً من ان يسبقه فيقصل رأسه] »

وعليه فان تاريخ مجاس العهد هو من اشد الامثلة البارزة التي يستشهد
بها على شأن الزعماء والخوف على المجالس .



الفصل الرابع

حكومة العهد

١ - شأن الاندية والهيئة الثورية أيام العهد

قاد زعماء الاندية والهيئة الثورية مجلس العهد في جميع ايامه وقد بينا آنفاً تأثير هؤلاء على المجالس السابقة ولكنه عظم أمر هذا التأثير في مجلس العهد وما تاريخ هذا المجلس في الواقع سوى تاريخ الاندية والهيئة الثورية التي تغلبت عليه ، ولم تستعبد الاندية مجلس العهد وحده بل استعبدت فرنسا جميعها فكان ما في الولايات من الاندية الكثيرة التي يسوسها نادي العاصمة يراقب القضاة ويشي بالمشتبه فيهم وينفذ جميع الاوامر الثورية .

وعندما تبت الاندية او الهيئة الثورية في بعض الامور كانت تبعث بها الى المجلس ليصوت لها فاذا خالف المجلس في ذلك كانت تسوق اليه وفودها اي عضابات مسلحة من الرعاع حاملة اوامر لا مناص من العمل بمقتضاها وقد بلغ شعور الهيئة الثورية بقوتها مبلغاً دفعها مرات عديدة الى مطالبة مجلس العهد بطرد من كانت تتمقه من النواب .

كان رجال مجلس العهد متعلمين واما اكثر اعضاء الهيئة الثورية والاندية فن صغار التجار والفعلة والعمال وغيرهم ممن ائتمروا بأمر الزعماء كدانتون وكاميل ديولان وروبسيير الخ ، وقد كان تأثير الهيئة الثورية في باريس أشد من تأثير الاندية اذ جمعت لنفسها جيشاً ثورياً واوجدت تحت إمرتها ثمانى واربعين لجنة من الحرس الوطني لا تطلب غير القتل والتخريب والنهب . والنظام الذي سحقت به الهيئة الثورية باريس هائل مثل ذلك تفويضها السكاف شالاندون ان يراقب جزءاً من العاصمة ويبعث الى المحكمة الثورية اى الى المقصلة جميع من يشتبه فيهم .

نعم ناهض مجلس العهد الهيئة الثورية قليلا في بداية الامر ولكنه لم يقاومها زمناً طويلا ، وقد بلغ الصراع بين الطرفين غايته عند ما بعث (هير) - الذي هو روح الهيئة الثورية - الى مجلس العهد الذي اراد ان يقبض عليه عصابات قوية تطلب بطرد من قال بسجنه من الجيرونديين أبى المجلس المذكور ذلك فحاصره الهيئة الثورية في ٢ حزيران سنة ١٧٩٣ بجيشها الثوري الذي قاده (هانريو) فارتعدت فرائص هذا المجلس فرقاً فسلم سبعة عشر عضواً من اعضائه وعلى اثر ذلك ارسلت الهيئة الثورية وفداً ليشكره بسخرية .

خضع مجلس العهد بعد سقوط الجيرونديين الى اوامر الهيئة

الثورية صاحبة الحول والقوة خضوعاً تاماً وقد ارغمت هذه الهيئة على الرضى بجمع جيش ثوري تصحبه محكمة ومقصلة يطوف في فرنسا ويقتل جميع المشتبه بهم .

ولم يتخلص مجلس العهد من رتبة الهيئة الثورية والمنتدى اليقوي الا في اواخر ايامه اي بعد سقوط رويسير فاغلق المنتدى المذكور وقصل رقاب اعضائه النافذين .

استمر الزعماء على تحريض السوق ضد المجلس المذكور رغم هذه العقوبات الصارمة وقد تكرر حصاره في الشهر التاسع والسابع من السنة الجمهورية فاكراهته العصاة على التصويت لاعادة الهيئة الثورية ودعوة مجلس جديد ، ولكنه الغى هذين القرارين بعد انسحابهم ولما استحي من جنبه استدعى كتائب لتتزع السلاح من الضواحي فقبضت هذه الكتائب على عشرة آلاف شخص ثم اعمل السيف في رقاب ستة وعشرين زعيماً من زعماء الفتنة وقصلت اعناق ستة نواب تواطؤوا عليها .

وفي الواقع ان مجلس العهد لم يكن ميالاً الى المقاومة الا قليلاً وكان حين لا تسير الاندية والهيئة الثورية يخضع الى لجنة السلامة العامة ويصوت لجميع اقتراحاتها بدون جدال قال ويليام :

« ان مجلس العهد الذي لم ينطق بكلمة اقل من استدعاء جميع امراء اوربا

وملوكها ليتقاضوا مامه مقيدين كان اسيراً في محكمته الخاصة لعصابة من المرتزقة»

٢ = حكومة فرنسا أيام العهد

كانت با كورة اعمال مجلس العهد عند اجتماعه في ايلول عام ٧٩٢
الغاء الملكية ثم اعلن الجمهورية رغم تردد عدد كبير من اعضائه العالمين
بان الولايات ملكية . ولما اعتقد بان هذا الاعلان يحول العالم
المتمدن وضع تقويماً جديداً قانعاً بان السنة الأولى من هذا التاريخ
هي فجر لعالم سيسود عليه العقل وكانت محكمة لويس السادس عشر
التي دبرتها الهيئة الثورية ولم ينزع اليها مجلس العهد فاتحة تلك
السنة .

ساد الجير وندييون الذين كانوا معتدلين بالنسبة لغيرهم على هذا
المجلس في بداية الامر فاختب رئيسه وكتبته منهم ولم يكن لرواسييه
الذي صار بعدئذ سيد المجلس المطلق سوى نفوذ ضئيل في ذلك
الحين إذ لم ينل سوى ستة اصوات في انتخاب الرئاسة إزاء بيسون
الذي نال مئتين وخمسة وثلاثين صوتاً .

إذا كانت سلطة الموتانيارين صغيرة في البداية ولكنها عظمت
بعد ذلك فلم يبق للمعتدلين مكان في مجلس العهد . وقد جعل الموتانييون
المجلس الذي هم اقلية فيه ان يتهم لويس السادس عشر فتم لهم بذلك
اتصاف على الجير ونديين وقضاء على جميع الملوك وفراق بين النظام

الجديد والنظام القديم .

لقد دبروا الامور ببراعة لاحداث هذه التهمة إذ أمطروا على مجلس عرائض من الولايات طالبة محاكمة الملك وارسلوا اليه بعثة من الهيئة الثورية الباريسية لمثل ذلك الغرض . وقد اذعن مجلس امهد الى ذلك فاتهم الملك ولم يجرأ على المقاومة سائراً على سنة لمجالس الثورية التي تخضع امام الانذار والوعيد وتفعل خلاف ما تبغي :

ولم يرد الجير وندويون اعدام الملك وهم منفردون ولكن الخوف دفعهم الى الحكم عليه بالقتل وهم مجتمعون وقد صوت البدوك (دورليان) خال لويس السادس عشر لذلك طامعاً في نجاته نفسه واول كان عند لويس السادس عشر قدرة يكشف بها المستقبل كالقدرة التي تغزوها الى الآلهة لرأى وهو صاعد الى المقصلة ان نصيب اكثر الجير وندويين الذين لم يستطيعوا لضعفهم ان يدافعوا عنه سيكون مثل نصيبه .

واذا نظرنا الى قتل الملك من حيث فائدته لرأينا انه عمل اخرق انت به الثورة الفرنسية لانه اوجب حرباً اهلية واقام اوروبا ضدنا ثم سبب في مجلس العهد منازعات أدت الى انتصار الموتانيارين وطرده الجير ونديين .

ولم تلبث الوسائل التي استعان بها الموتانياريون ان بلغت من الظلم مبلغاً اوجب عصيان ستين مديرية في الغرب والجنوب وقد كاد هذا العصيان الذي كان يقوده كثير من النواب المطرودين ان ينجح لو لم ينشأ عن اشتراك المملكين فيه خوف الناس من رجوع العهد السابق ، دامت الحرب الاهلية التي هاج سكانها على الصورة السابقة في اكثر ايام الثورة الفرنسية وكانت في غاية التوحش فكان الشيوخ والنساء والاطفال يقتلون والقرى والحصائد تحرق وقد قدر المؤلفون عدد القتلى في (فاند) وحدها من خمسمائة الف الى مليون .

ثم عقت الحرب الاهلية حرب مع الاجنبي وقد ظن اليعاقبة انهم يدرأون هذه الاضرار بوضعهم دستوراً جديداً ، ولا غرو فان من تقاليد المجالس الثورية ان تعتقد بما في المراسيم من الفضيلة الساحرة ، ولم يؤثر فشل التجارب الماضية الى عقيدة المتعنطين المذكورة في فرنسا ابداً ، قال الميسورامبو^{بنا} واحد ~~كبار~~ المعجبين بالثورة الفرنسية :

« ان الايمان القويم هو الذي دعم رجال العهد في هذا العمل الشاق اذ اعتقد أنهم بصوغهم مبادئ الثورة الفرنسية في قالب قانون يدهشون خصومهم فيديونهم وان العدل يحمد تأثر العصاة » .

سن مجلس العهد دستورين احدهما عام ١٧٩٣ اي في السنة الاولى من الجمهورية والثاني عام ١٧٩٥ اي في السنة الثالثة منها فأما الدستور الاول فلم يطبق ابداً واما الثاني فقد اوجد حكومة المدير ككتور .

وكان المجلس المذكور يحتوي عدداً غير يسير من الفقهاء وازباب الاشغال وقد ادرك هؤلاء انه يستحيل على مجلس كثير العدد ان يدير حكومة فقسموه الى لجن مستقلة كالجنة الاشغال ولجنة التشريع واللجنة المالية واللجنة الزراعية واللجنة الفنية الخ ثم صارت هذه اللجن تهيم لوائح قانونية ليصوت لها المجلس في جلساته العامة . والفضل يرجع الى هذه اللجن في جعل اعمال المجلس غير هادئة بالمرّة فقد أتت بامور كثيرة النفع كالنشاء المدارس العظيمة وتأسيس المقياس المتري ثم كان اكثر اعضاء المجلس يفرون اليها ليتنجوا عن المحاصمات السياسية التي ربما يعرضون حياتهم فيها للهلاك .

ووجد على رأس لجن الاشغال المذكورة لجنة السلامة العامة التي اسست في نيسان عام ١٧٩٣ فكان عدد اعضائها تسعة وقد ادارها في بادئ الامر دانتون ثم انتقلت ادارتها في شهر تموز من السنة المذكورة الى روبسبير وقد تدرجت في ابتلاع جميع السلطات كتسيير الوزراء والقواد فأدار فيها كارنو امور الحرية وكامبون

امور المالية وسان جوست وكالوديربوا دفعة السياسة .
ان القوانين التي صوت لها المجلس بتأثير الوفود المستولية عليه
ظاهرة الخطل خلافاً للقوانين السديدة التي حررتها اللجنة الفنية ،
ونذكر من بين القوانين القليلة النفع للجمهور قانون الكمية الكبرى
الذي صوت له مجلس العهد في ايلول سنة ١٧٩٣ فلم ينشأ عن هذا
القانون الذي امر بتسعير الاقوات سوى قحط مستمر وهدم لقبور
الملوك في دير (سان ديني) ومحاكمة للملكة وحرق لمقاطعة (فاند)
وتأسيس للمحكمة الثورية الخ .

بدأ في ايلول سنة ١٧٩٣ دور الهول الذي نالت به حكومة العهد
اكبر قوة واستمر مدة عشرة أشهر وانتهى بقتل روبسبير ، نعم
اقترح بعض اليعاقبة كداندون وكاميل ديمولان وهيرول وسيسيل
ان يعامل المتهمون بالرافة الا ان هذا الاقتراح اوجب قحط رقاب
المقترحين بالمقصلة وانما كلال الرأي العام من ذلك الدور المخزي هو
الذي قضى عليه ، وقد أدت المنازعات المتوالية بين احزاب المجلس
وسيره سيراً متطرفاً الى اسقاط اصحاب الشأن من اعضائه بالتدريج
وبينما كان يفكك المجلس المذكور اوصال فرنسا ويخرج بها كانت
جيوشنا تبرز نصراً مبيناً ، فقد استولت على الضفة اليسرى من نهر
(الرين) وعلى الباجيك وعلى هولندة ثم قررت معاهدة (بال) هذه

الفتوحات ، قلت سابقاً - وسأعود الى ذلك قريباً - انه يجب ان يفرق بين اعمال جيوش الجمهورية وبين اعمال مجلس العهد تفريقاً تاماً وليس هذا التفريق - المنسى الآن - على المعاصرين بالامر العسير .

كان مجلس العهد هدفاً للاحتقار عند ما غاب في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ عن الوجود اي بعد قبضه ثلاث سنين على زمام الامور ولما صار لعبة تعبت بها الاهواء لم يفلح في تهدئة الفتنة في فرنسا وقد قذف بها في بحار الفوضى . لحص المفوض السويدي البارون (درنيكمان) رأي الناس في ذلك المجلس بعبارة جاءت في احدى رسائله واليك ايها :

« انني لا أرجو ان لا تتحكم في امة من الامم جماعة من الفجرة السفهاء مثل التي تحكمت في فرنسا منذ بداية حريتها الحديثة »

٣ - خاتمة العهد - منشأ حكومة الديركتوار

وضع مجلس العهد الذي لم يغير عقيدته في تأثير القوانين دستوراً جديداً في اواخر ايامه (دستور السنة الثالثة) ليحل مكان دستور عام ١٧٩٣ الذي لم يطبق ابداً . جاء في هذا الدستور انه سيقوم بالسلطة التشريعية مجلسان : مجلس شيوخ مؤلف من اثنين وخمسين عضواً ومجلس شبان مؤلف من خمسةة عضو وانه سيعهد بالسلطة

التنفيذية الى هيئة تسمى بالدير كتوار مركبة من خمسة اعضاء يرشحهم مجلس الخمسة ويعينهم مجلس الشيوخ على ان تجدد هذه الهيئة بانتخاب عضو واحد منها كل سنة، وقد قضى مجلس العهد ان يكون ثلثا اعضاء المجلس الجديد من اعضاءه الا ان هذا القرار المدير لم ينفذ إذ لم يوال اليعاقبة سوى عشر مديريات وقد حكم مجلس العهد على جميع المهاجرين الى البلاد الاجنبية بالنفي المؤبد وذلك ليقضي الملكيين عن الانتخابات .

لم يؤثر اعلان هذا الدستور في الجمهور خلافاً للمتظر إذ لم يقل شيئاً من الفن الشعبية المتعاقبة ومن أهمها الفتنة التي توعدت في ٥ تشرين الأول سنة ١٧٩٥ مجلس العهد، فقد قذف الزعماء بجيش عليه فعزم هذا المجلس على الدفاع إزاء الفن المذكورة فاستحضر كتائب وسلم قيادتها الى باراس، وعهد الى بونابارت الذي أخذ يظهر من عالم الحفاء أمر قمعها وقد تم ذلك على يده بسرعة فاما أطلق الرصاص على العصاة بالترب من كنيسة (سان روق) فروا تاركين بضع مئات من القتلى، وهذا العمل الحازم الذي لم يكن لمجلس العهد عهد بمثله صدر عن سرعة حركات الجيش . وكان قمع الفتنة المذكورة آخر اعمال مجلس العهد المهمة ثم صرح هذا المجلس في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ ان نيابته قد انتهت مسلماً الامور الى حكومة

الدير كتوار .

أظهرنا كثيرًا من الدروس النفسية التي أتت بها حكومة العهد وأهمها عجز الضغط والظلم عن التغلب على النفوس طويلاً فلم يكن عند أية حكومة من وسائط التحكم مثل ما عند حكومة العهد ولكن رغم المقصلة الدائمة والمفوضين الرسامين إلى الولايات مع الجلاذ والقوانين الصارمة كان مجاس العهد يضطر دائماً إلى مكافحة الفتن والمعاصي والمؤامرات ، وكانت المدن والمديريات وضواحي باريس تتمرد بلا انقطاع رغم تساقط الرؤوس بالالوف .

حارب مجاس العهد - الذي ظن انه الأمر الناهي - قوى خفية رسخت في النفوس رسوخاً لا تزحزحه جفايل الضغط والاكرام وسبب ذلك انه لم يدرك شيئاً من أمر تلك القوى التي تم لها النصر في نهاية الامر .



الفصل الخامس

مظالم الثورة

١ - الاسباب النفسية لمظالم الثورة

بينما في غضون الفصول السابقة انه سيتكون من المبادئ الثورية ايمان جديد وهذه المبادئ التي قوامها العاطفة والانسانية وان كانت تمجد الحرية والاخاء فان بينها وبين الافعال تناقضاً تاماً وذلك كما يلاحظ في كثير من الاديان التي لم تسمح للناس ان يتمتعوا بالحرية فعلا والتي أحلت مذابح فظيعة مكان الاخاء . وينشأ التباين الواقع بين المبادئ والعمل عن عدم التسامح الملازم لجميع المعتقدات ، نعم قديماً الدين بالرفقة والحام ولكن لما كان انصاره يريدون الزام الناس به قسراً فان أمره يؤول الى اقتراف المظالم . لذلك كان ناهوس انتشار المعتقدات عامة المظالم في الثورة الفرنسية وما الهول الاكبر الذي وقع ايام هذه الثورة الامن نوع محكمة التفتيش والحروب الدينية والسان بار تلمي والعاء مرسوم (نانت) واضطهاد البروتستان في جنوب فرنسا واضطهاد انصار (جانسينيوس) فالكل صادر عن منبع نفسي واحد

وليس لويس الرابع عشر ملكاً ظالماً غير ان ايمانه دفعه الى اجلاء مئات

الالوف من البروتستان عن فرنسا بعد ان قتل وسجن منهم عدداً كبيراً
ولا تنشأ وسائل الاقناع التي يتذرع بها جميع المعتقدين عن خوف يلقيه
الخوارج في قلوبهم إذ كان البروتستان وانصار (جانسينيوس) قليلي
الخطر في عهد لويس الرابع عشر وانما يصدر دمد التسامح عن غضب
رجل ظان انه متمسك بالحقائق الناصعة على اناس يعتقد بانكارهم اياها
عن سوء نية وكيف يطيق ذلك الرجل الضلالة وهو قادر على ازالتها؟
هكذا تعلل المعتقدون في كل جيل وهكذا تعلل لويس الرابع
عشر ورجال الهول الاكبر، فقد اعتقد هؤلاء الرجال انهم على حق
وان نصر هذا الحق يجدد البشر وهل كانوا يستطيعون ان يتساهلوا مع
خصومهم اكثر من تساهل الكنيسة والملوك مع الخوارج؟
ان الهول طريقة عددها جميع المعتقدين ضرورية منذ الاجيال الاولى
وعليها قامت جميع الشرائع الدينية فقد رمت هذه الشرائع الى تهويل
الناس بعذاب أبدي في الجحيم ليحافظوا على أوامرها ويحتملوا نواهيها.
وعليه فان رسل المعتقدين يعقوب ساروا على طريقة آبائهم واستعانوا
بمثل وسائلهم ولو وقع نظير تلك الحوادث اليوم لصدر عنها من الامور
ما يشابهها ولو يتم النصر غداً لمعتقد جديد كالاشراكية لاتخذ طريقاً
في الدعاية مشابهة حتماً لطرق محكمة التفتيش ومحكمة الهول الاكبر.
يكون اطلاقنا على الهول اليقوي ناقصاً اذا اعتبرناه ناتجاً عن

فئة دينية فحسب ويتم هذا الاطلاع إذا ادر كنا انه انضم الى هذا
المعتقد المنتصر منافع ذاتية كثيرة مستقلة عنه، نعم أدار الهول الاكبر
قليل من الرسل المتعصبين ولكنه وجد بجانب هؤلاء المتحمسين الذين
رأوا بعقلهم الضيق ان يجددوا الكون كثير من الرجال لم ينظروا
الى المعتقد المذكور الا كوسيلة للثراء وهذا الخلق هو الذي جعلهم
يلتحقون بعدئذ بالقائد الاول الظافر وقماتر كههم يتمتعون بما استلبوه .
كتب البير صوريل :

« اقبل رجال الثورة الفرنسية على الهول لانهم رأوا انه يقيمهم قابضين على
زمام السلطة وانهم لا يستطيعون حفظ مناصبهم بغيره وهم على رغم ادعائهم بأنهم
ماتوا به الا لسلامة الدولة لم ينظروا في الحقيقة الا الى سلامة انفسهم . وهو قد
كان وسيلة قبل ان يصير نظاما حكوميا وما ابتدع النظام الا ليبرر الوسيلة » .

وبناءً على ما تقدم فانه يمكننا ان نرتضي ما جاء في مؤلف إميل
اوليفيه عن الثورة الفرنسية من الحكم على الهول الاكبر واليك
اياه :

« ان الهول الاكبر مفرق بين الناس مؤدٍ الى سلب الاموال وهو اكبر مشروع
اصوصي حدث وما أثبت بمثله اية عصابة من الاشقياء »

٢ - محاكم الثورة -

كانت محاكم الثورة ايام الهول الاكبر واسطة تأثير وقد انشأت
في فرنسا محاكم ثورية عددا محكمة باريس التي سعى في تأسيسها دانطون

ثم ساقته بعد عام الى المفصلة قال تاي : .

« كانت ١٨٧ محكمة ومنها ٤٠ محكمة تحكم بالقتل في جميع اجزاء البلاد وتنفذ احكامها في مكان الحكم حالا . وقد بلغ عدد من حكمت عليهم محكمة باريس بالاعدام ٢٦٢٥ نسمة وما كان قضاة الولايات اقل نشاطاً في الحكم من قضاة باريس اذ قصلوا في مدينة (اورانج) الصغيرة رأس ٣٣١ نسمة وفي مدينة (آراس) رأس ٢٢٣ رجلا و ٩٣ امرأة وفي مدينة [ليون] رأس ١٠٦٨ نسمة ويقدر مجموع القتلى ١٧٠٠٠٠ شخص منهم ١٢٠٠ امرأة وكثير منهم كن فوق الثمانين » .

ولا يغيب عن بالنا انه عدا من ذبحته محكمة باريس الثورية من الضحايا البالغ عددهم ٢٠٦٢٥ نسمة قد قتل جميع المتهمين قبل تأسيسها - اي في ايام ايلول - بدون محاكمة .

ان محكمة باريس الثورية - التي كانت آلة بيد لجنة السلامة العامة - اقتصرت كما اشار (فوكية تنفيل) في قضيته على تنفيذ ما تلقت من الاوامر وهي وان سارت بادى الامر حسب القانون ظاهراً فان ذلك لم يلبث ان اهمل فالغي الاستجواب والدفاع والشهود وصارت البيئة الادبية اي الشبهة كافية للحكم واصبح الرئيس يكتفي بطرح سؤال مبهم على المتهم ثم اقترح (فوكية تنفيل) ان تنصب المفصلة في دائرة المحكمة كي تنفذ الاحكام حالا . كانت المحكمة المذكورة ترسل جميع المتهمين - الذين قبض

عليهم لما بين الاحزاب من حقد — الى المقصلة على السواء وسرعان ما صارت هذه المحكمة آلة اظلم رو بسير السفاك ، وعندما حكمت على دانطون احد مؤسسيها بالقتل سأل الله والناس العفو قبل ان يصعد الى المقصلة لمعاوته على ايجادها . انها لم تصفح عن احد سواء أكان الداهية (لافوازية) ام الحكيم (لوسيل ديولان) ام النبيل الفاضل (مالزيرب) : قال بنيامين تونسطان مشيراً اليها :

« قتل كثير من اصحاب القرائح السامية بيد اذى الناس واشدهم غباوة »

ويجب في تبرير ما اقترفته المحكمة الثورية ان نعود الى ما بيناه عن ما عند يعاقبة الذين اسسوها واداروها من النفسية الدينية فهي في ذاتها وغايتها كمحكمة التفتيش وقد ظن رو بسير وسان جوست وقوطون انهم يحسنون للجنس البشري بقضائهم على الخوارج وعلى اعداء معتقدهم الذي سيجدد العالم فيما يحسبون .

لم يكن الذين قتلوا ايام الهول الاكبر من الاريسطوقراطيين والاكليروس فحسب بل قصلت رؤوس اربعة آلاف من الفلاحين وثلاثة آلاف من العمال واذا اعتبرنا ما يورثه اعدام رجل واحد من الانفعال في النفوس فاننا نعتقد ان قتل كثير من الناس يؤثر فيها تأثيراً عظيماً ، غير ان العادة اكملت الحواس فلم ينتبه الناس كثيراً الى ما وقع وكانت الامهات يقدن اولادهن ليشاهدوا قصل الرؤوس كما

يقدمهم اليوم الى دور الالعب ، وقد اوجبت مناظر القتل الكثيرة
عدم اكتراث الناس بالموت فصعد الجميع الى المقصلة رابطي الجأش
وعلا الجيرو ندييون درجاتها وهم يغنون نشيد (المارسلياز) .

نشأ هذا التسليم عن ناموس العادة المسكن لانفعالات النفس
ودليلاً على ان منظر المقصلة لم يرهب احداً ما وقع من الفتن الملكية
العديدة فكانت تحدث كان الهول لم يهل انساناً ولا يصير الهول
طريقة نفسية شافية الا اذا قصر دوامه فالهول الحقيقي يكون في
الوعيد والانذار اكثر من التنفيذ .

٣ - الهول في الولايات

لم يكن ما قامت به محاكم الثورة من القتل في الولايات الا
بعضاً من المذابح التي وقعت ايام الهول الاكبر اذ عدا ذلك كانت
الجيش الشورية المؤلفة من قطاع الطرق واللصوص تجول في
فرنسا ناهبة قاتلة وقد اجاد (تان) في بيان سيرها بالعبارة الآتية :

« عند ما كسر اناس مجبولون في بيدوان التي يقدر سكانها بالف في نسمة شجرة
الحريه هدم فيها وحرق ٤٣ بيتاً وقطعت رؤوس ١٦ شخصاً بالمقصلة وقتل ٤٦
نسمة رمياً بالرصاص وطرد من بقي فيها فاضطروا كي يعيشوا الى قطع السبل
في الجبال والى تحت السكوف لتكون لهم اكنة » .

وما كان نصيب من ارسلوا الى محاكم الثورة خيراً من ذلك

فلما الغيت ظواهر المحاكمة اغرق (كارييه) وقتل رميا بالرصاص في (نانت) وحدها ما يقرب من خمسة آلاف نسمة من الذكور والاناث والولدان راكباً متن هواه .

وقد وردت تفاصيل هذه الملاحم في جريدة المونيتور بعد الردة التي وقعت في الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية وها انا اذكر شيئاً منها؛ جاء في العدد الصادر في ٢٢ كانون الاول سنة ١٧٩٤ من الجريدة المذكورة قال توما :

« شاهدت بعد الاستيلاء على نوار مونتيار رجالاً ونساء وشيوخاً محرقون احياء ونساء وبنات يتراوح عمرهن بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ينتهكن ثم يقتلن واولاداً يعجبون بالحراب ويطرحون على اللواح بجانب امهاتهم »

وجاء في العدد المذكور شهادة لجوليان حدث فيها كيف كان كارييه يرغم ضحاياه على حفر قبورهم ليدفنهم فيها احياء ، وجاء في عدد ١٥ تشرين الاول سنة ١٧٩٤ تقرير لميرلان دوتيون فيل اثبت فيه ان ربان سفينة الديستان تلقى اسراً ليحملها احدي واربعين ضحية « منهم اعمى بلغ الثامنة والسبعين واثنتا عشر امرأة واثنتا عشرة بنتاً وخمسة عشر صبياً منهم عشرة تراوح اعمارهم بين السادسة والعاشرة وخمسة دون سن الفطام » وورد في العدد الصادر منها في ٣٠ كانون الاول ان محاكمة كارييه اثبتت « انه امر بقتل النساء

والولدان اغراقاً ورمياً بالرصاص وانه أوصى القائد هو كس بآبادة جميع سكان فاندِه واحراق مساكنهم .

وكان كارييه يشعر بجميع السفاكين بآبادة عظيمة عندما يشاهد ضحاياهِ يتوجهون ، جاء في عدد جريدة المونيتور الصادر في ٢٢ كانون الاول سنة ١٧٩٤ ما نصه قال كارييه :

« انني لم اضحك في المديرية التي طارث فيها القساوسة ضحكي حينما كنت أرى تقصن وجوه هؤلاء عند موتهم ولم اشعر بآبادة مثل تلك المآلة »

اقيمت الدعوة على كارييه ارضاء للردة التي حدثت في الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية ولكن ما وقع في (نانت) من المذابح وقع مثله في مدن كثيرة فقد اوجب فوشيه (قتل ألفي نسمة في مدينة ليون وبلغ القتل في مدينة طولون مبلغا أصبح به عدد سكانها سبعة آلاف نسمة في بضعة شهور بعد ان كان تسعة وعشرين ألفا .

ان لجنة السلامة العامة هي التي كانت تحرض كارييه وفيرون وفوشيه وغيرهم من المشؤمين وهذا ما يخفف تبعة هؤلاء ، قال كارييه في قضيته :

« اعترف بانه كان يقتل كل يوم من ١٥٠ الى ٢٠٠ مسجون رمياً بالرصاص ولكن اللجنة هي التي امرت بذلك . ولما كنت اخبر مجلس العهد بان الاشقياء يقتلون بالآلات كانت تدوي قاعته تصفيقاً فيأمر بان ينشر الخبر في الجريدة الرسمية

وماذا فعل هؤلاء النواب الذين يتحاملون الآن علي ؟ كانوا يصفقون لي ولماذا تركوا لي مناصبي ؟ لاني كنت وقتئذ منقذ الوطن واما الآن فانارجل سفك »

ومن دواعي الاسف ان كارييه جهل - كما نفهم من خطابه المذكور - ان الذين سيروا مجلس العهد هم سبعة اشخاص او ثمانية الا ان استصواب مجلس العهد الذي استحوذ عليه الرعب لجميع ما امره به اولئك السبعة او الثمانية يجعل الجواب على ما أدلى به كارييه من الحجة متعذراً ، نعم انه استحق القصل ولكن جميع اعضاء مجلس العهد كانوا يستحقونه ايضا لاستحسانهم ما وقع من الملاحم ، وثبت لنا دفاع كارييه القائم على رسائل اللجنة الهائج اعضاءها ان ما حدث ايام الهول من الاضطهاد ناشئ عن خطة مرتبة وليس كما ادعى البعض عن مساع شخصية .

ولم تقض حاجة التخريب ايام الهول بقتل النفوس فقط بل تناولت الاشياء ايضا ومتى يقبض المؤمن الحقيقي على زمام السلطة يقض على اعداء ايمانه وعلى التماثيل والمعابد والشعائر الدالة على المعتقد المنكوس ، ومن الامور المعلومة ان الامبراطور تيودوز الذي اعتنق النصرانية امر بهدم اكثر المعابد التي اقيمت على ضفتي النيل منذ ستة آلاف سنة ولذلك لا نعجب لتعدي زعماء الثورة الفرنسية على المباني والآثار الفنية التي عدوها بقايا ماض ممقوت .

كسرت التماثيل والمخطوطات وزجاج النوافذ والتحف الفاخرة

وعند ما ارسات حكمه العهد (فوشيه) الذي نال ايام نابليون لقب
(دوك) وصار وزيراً في عهد لويس الثامن عشر - لينوب عنها في
(نياقر) امر بهدم ابراج القصور ونواقيس الكنائس لانها مما ياباه
مبدأ المساواة وتناولت يد الهدم القبور ايضا فقد جاء في تقرير (بارير)
لمجلس العهد ان القبور الملوكة الفخمة في (سان ديني) ومنها ضريح
هنري الثاني العجيب الذي صنعه (جرمان ييلون) دكت وفرغت
النواويس وبعثت جثة (تورين) الى المتحف كشيء نادر الوجود
بعد ان اقتلع احد الحراس جميع الاسنان منها ليميعها وقد تنف شارب
هنري الرابع ولحيته .

إن رضاء ارباب العقول النيرة بتخريب ميراث فرنسا الفني
لا مريؤسف له ولكننا اذا تذكرنا ان اسوأ المظالم تنشأ عن المعتقدات
القوية وان رجال الفتن كانوا يغيرون كل يوم على مجلس العهد
فيرغمونه على الخضوع نرى له عذراً في ذلك ، ولا تداننا اتصه هذا
التخريب على ما للتعصب من القوة فقط بل تداننا ايضاً على ما يؤول
اليه امر الطليقيين من الزواجر الاجتماعية وامر الامة التي يقبض
هؤلاء على ناصيتها .

الفصل السادس

جيوش الثورة الفرنسية

١ - المجالس الثورية والجيوش

لو اقتصر ما نعلمه عن المجالس الثورية - ولا سيما مجلس العهد على ما يقع فيها من الانشقاق وعلى ضعفها وعلى ما تأتي به من الاضطهاد لكانت ذكرها سيئة ، غير انه يوجد لذلك العهد الدامي نفوذ - على جميع الناس ومنهم أعداؤه - ناشي ، عن انتصار الجيوش إذ وقتما تخلى مجلس العهد عن الحكم كانت فرنسا مفتوحة بلاد البلجيك والبلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى .

إذا نظرنا الى حكم العهد في مجموعه يصبح من العدل انه يعزى اليه ما نالته جيوش فرنسا من الانتصار واما اذا فرقنا بين اجزائه يظهر لنا ان هذه الاجزاء مستقل بعضها عن بعض استقلالاً تاماً ، اذ نشاهد حينئذ انه لم يكن لمجلس العهد سوى نصيب ضئيل في الوقائع الحربية وان الجيوش المربطة في الثغور والمجالس الثورية في باريس هما عالمان اثر احدهما في الآخر تأثيراً قليلاً ونظرا في الامور نظراً متبايناً .

تبين لنا ان حكومة العهد كانت ضعيفة وانها كانت تبدل رأيها حسب ما تقتضيه تحريضات الشعب فاصبحت مثلاً للفوضى وبما انها صارت منقادة غير قائدة فكيف تستطيع ان تسيطر على الجيوش ؟ اوجب اهمالك مجلس العهد في المنازعات ترك جميع امور الحرب الى لجنة كان يسيرها كارنو وحده وأهم ما قامت به هذه اللجنة هو امداد الجيوش بالميرة والعدد وينشأ فضل كارنو عن قيادته ٧٥٢٠٠٠٠ جندي من ابطين في المراكز الحربية وعن ايعازة الى القواد بالهجوم وعن توطيد دعائم النظام في الجيوش .

ولم يفعل مجلس العهد في الدفاع عن البلاد غير امره بالنفير العام ولا تستطيع اية حكومة ان تفعل خلاف ذلك ازاء اعداء فرنسا الكثيرين المتوعدين اياها وبعد ان ارسل المجلس المذكور الى الجيوش وكلاء ليقصموا رقاب بضعة قواد عدل عن ذلك . حقاً ان تدخل هذا المجلس في امور الجيوش يسير للغاية وقد خرجت وحدها ظافرة بفضل عددها وحماستها وخطط رسمها قواد شباب مستقلون عنه .

٢- مقاتلة اورو بالثورة الفرنسية

نرى - قبل بيان العوامل النفسية التي ساعدت على انتصار جيوش الثورة - ان الالامع الى روح المقاتلة التي تأصلت في اورو باستفحلت ضد الثورة الفرنسية لا يخلو من فائدة :

نظر ملوك الاجانب في اوائل الثورة المذكورة الى المصاعب التي كانت تلقاها الملكية الفرنسية المزاخمة لهم بعين الرضا ، إذ لما ظن ملك بروسيا ان فرنسا ضعفت فكر في توسيع ملكه على حسابها فاقترح على امبراطور النمسا ان يعين لويس السادس عشر تلقاء منحه ولاية الفلاندر والالزاس تعويضاً له فوق ذاك المكان في شباط سنة ١٧٩٢ معاهدة ضد فرنسا ، إلا ان الفرنسيين سبقوا في الهجوم فاعلنوا الحرب على النمسا بدعوة الحزب الجيروندي .

ومع انه لم يقتل في المعركة سوى ثلاثمائة فرنساوي ومثني بروسي فانها كانت ذات نتائج عظيمة الشأن لان رد جيش اشهر باستحالة قهره اورث في قلوب الكتائب الثورية الفتية جسارة كبيرة فاخذت هذه الكتائب تهاجم العدو على طول الجبهة ولم تمض بضعة اسابيع حتى طرد جنود (فالمي) النمساويين من الباجيك فاستقبلهم الناس فيها كمنقذين .

ولكن نطاق الحرب اتسع كثيراً ايام العهد إذ نشأت تصويت مجلس العهد عام ١٧٩٣ للاحق بلاد الباجيك بفرنسا حرب مع انكلترا استمرت اثنين وعشرين سنة .

اجتمع مندوبو انكلترا وبروسيا والنمسا في (أفرس) وتعاهدوا على تقسيم فرنسا على ان تنال بروسيا ولايتي الالزاس والورين

وان تنال النمسا ولايتي الفلاندر والارثوا وان تنال انكلترا مرفأ (دونكيرك) وقد اقترح سفير النمسا ان تقمع الثورة الفرنسية بالارهاب « وباستئصال شأفة قادة الامة الفرنسية » . لا يوجد امام مثل هذه التصريحات سوى الانتصار او الفناء ولا وسط، وهذا ما جعل فرنسا اثناء المحالفة المذكورة التي استمرت من عام ١٧٩٣ الى عام ١٧٩٧ ان تحارب في جميع تخومها اي من جبال البيرنة حتى المديرية الشمالية (النور) .

انها اضاعت في البداية جميع فتوحاتها السابقة وحلت بها نوازل كثيرة لاستيلاء الاسبان على مدينتي (بيرينيان) و (بايون) والانكلترا على مدينة (طولون) والنمساويين على مدينة (فالانسيان) فاضطر مجلس العهد عام ١٧٩٣ الى الامر بتجنيد جميع الفرنسيين المتراوحة اعمارهم بين الثامنة عشرة والاربعين وساق الى الحدود تسعة جيوش حاوية ما يقرب من ٧٥٠٠٠٠٠ جندي وقد مزجت كتائب الجيش الملكي السابقة بكتائب المتطوعين وكتائب المجندين .

دحر الحلفاء ورفع الحصار عن (موبوج) بعد الانتصار الذي وقع في (فاتيني) على يد المارشال (جوردان) ثم انتقد (هوش) ولاية اللورين فاخذت فرنسا تهاجم فاستردت البلجيك وضفة الرين اليسرى ثم ضرب المارشال « جوردان » النمساويين في « فلوروس » ماقبلاً

اياهم خلف الرين مستولياً على «قلونيا» و«كوبانز» وقد احتلت هولندا فاضطر ملوك الحلفاء الى طلب الصالح معترفين لفرنسا بفتوحاتها .

ومن دواعي انتصار فرنسا ان اعداءنا لم يعيروا قضيتنا ما تستحقه من الاهتمام لاشتغالهم بتقسيم بولونيا الذي امتد منذ سنة ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٥ ، كان كل منهم يريد ان يحضر القسمة لينال اكثر من غيره ولهذا تقهر ملك بروسيا عام ١٧٩٢ بعد واقعة « فالمي » حقاً ان تردد الحلفاء وسوء ظن بعضهم ببعض افادنا كثير اقلو زحف النمساويون في صيف عام ١٧٩٣ علي باريس لكننا كما قال القائد تيابول :

« خسرنا مئة ور بحنا واحداً فهم الذين اتقنونا بنجحهم ايانا وقتاً كافياً لجمع الجنود واختيار الضباط والقواد ».

لم يبق لفرنسا بعد معاهدة « بال » عدو ذو شأن في اوروبا سوى النمسا ولذلك ساقطت حكومة الديراكتوار جيشاً على مقاطعة « ميلانة » الايطالية التابعة للنمسا وفوضت الى بونا برت ان يهاجمها وقد ارغم هذا الاخير دولة النمسا بعد وقائع دامت حولا كاملا — اي من شهر نيسان عام ١٧٩٦ الى شهر نيسان عام ١٧٩٧ — ان تلتزم الصالح من فرنسا .

٣ - في العوامل النفسية والعوامل الحرية

التي اوجبت انتصار جيوش الثورة

يجب لادراك السبب في انتصار جيوش الثورة ان نذكر مقدار ما كان عند جنودها الحفاة العراة من الحماسة الشديدة ومن الصبر على المسكاره ومن جحود النفس ، فهم لما أشبعوا بالمبادي الثورية شعروا بانهم رسل لدين جديد اوحى به لتجديد العالم ، ويدكرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب التي استولى عليها المثل الاعلى الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) فتحولت الى جيوش مخيفة فتحت جزءاً من العالم الروماني القديم باسرع ما يمكن ، منح مثل هذا الايمان جنود الجمهورية بطولة وبسالة لا تزعزعهما اية قارعة فانقذوا الوطن من العدو وصاروا يحاربونه حرب استيلاء يوم حلت مكان مجلس العهد حكومة الديراك توار ولم يبق في فرنسا جمهوريون سوى الجنود .

وبما ان الايمان امر سار ظهرت الثورة الفرنسية كعهد جديد ، استقبل كثير من الامم المحتلة بلادها والمضغوط عليها من ملوكها غزاة فرنسا كحررين لها فقد هرع سكان سافوا لرؤية الجنود الفرنسيين واستقبل الناس في مايانس هؤلاء الجنود بحماسة وزرعوا اشجار الحرية واسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس .

وكان يتيسر النصر لجيوش الثورة الفرنسية كما تصادمت مع
 امم اذلهاجورالملوك المستبدين ولم يكن عندها خيال ذاتي تدب عنه
 ولكنه يتعسر عند تصادمها مع اناس اولي خيال وثيق كخيالها . ان
 خيال الحرية والمساواة الجديد القادر على استمالة الشعوب العاطلة
 من العقائد المتينة والراحة تحت استبداد امرائها لا يؤثر بحكم الطبيعة
 في اناس ذوي خيال قوي رسيخ في نفوسهم منذ عهد طويل . وهذا
 هو سر محاربة سكان مقاطعتي « بريتانيا » و « فاند » الذين كانوا
 ذوي مشاعر دينية وملكية متأصلة الجيوش الجمهورية وانتصارهم
 عليها سنوات كثيرة ، وقد عمت فن هاتين المقاطعتين عشر مديريات
 فجمعنا ٨٠,٠٠٠ مقاتل .

وبما ان الرحمة لا محل لها في تنازع ماتباين من الخيالات اي
 المعتقدات التي ليس للعقل شأن فيها فان الصراع الذي وقع في
 (فاند) لم يلبث ان اتصف بقسوة لا تحدث الا في الحروب الدينية
 وقد استمر هذا الصراع حتى آخر عام ١٧٩٥ وهو الزمن الذي
 وطد فيه هوش دعائم السلام في (فاند) وما خمدت الفتنة فيها
 الا بآبادة جميع العصاة تقريباً . قال (مولنياري) :

« أصبحت فاند بعد حرب اهلية استمرت عامين قاعاً صافصفاً . وقد هلك
 فيها ما يقرب من ٩٠٠,٠٠٠ نسمة من رجال ونساء وصبيان وشيوخ وصار الافراد

القلائد الذين ظلموا احياء بعد تلك المذابح لا طعام عندهم ولا مأوى لهم لان الحقول خربت والخطائر هدمت والبيوت حترقت »

واذا صرفنا النظر عما عند جنود الثورة الفرنسية من الايمان الذي يتعذر معه قهرهم نرى انهم فاقوا سواهم بقادتهم النوابغ الذين انجبتهم ساحات الوغى . اوجبت هجرة اكثر رؤساء الجيش الذين هم من طبقة الاشرف الى البلاد الاجنبية ايجاد فريق جديد من الضباط فسئحت لاصحاب الكفآت الحربية الغريزية فرصة يبذلون بها ما عندهم من المواهب فاجتازوا جميع المراتب في بضعة اشهر ، مثال ذلك (هوش) الذي كان في سنة ١٧٨٩ عريفاً صار قائداً لفرقة ثم قائد جيش في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت فتوة هؤلاء القواد تمنحهم روحاً هجومية لاعهد للجيش المعادية بها ، ولما نشأ تقدمهم عن مالهم من المزايا ولم تنيدهم التقاليد والتطبع في العادات ابدعوا فناً حريياً ملائماً لمقتضيات الزمن بسرعة .

لا تقدر الجنود غير المجرية على الحركة ازاء كتائب اتخذت الجنديّة مهنة لها وتدرّبت على الطرق المستعملة منذ حرب السبع سنين ، الا ان قيام جموع كثيرة بالهجمات قد ذلل هذا المانع ، فالعدد الكبير هو الذي مكن القواد من القيادة وهو الذي كان يسد الفراغ الناشئ عن طريقة الهجوم المذكورة الشافية على ما بها من قسوة .

كانت الجموع الكثيفة عند مهاجمتها العدو بالحرب تهزم كتابه المتعودة على طرق تدارى بها حياة الجند وجعلت بطاءة اطلاق الرصاص في ذلك الوقت فن فرنسا الحربى اسهل استعمالاً وبه تم النصر لها غير انه اهلك كثيراً من ابنائها وقد قدر العارفون ان الجيش الفرنسي ترك في ساحة الحرب منذ عام ١٧٩٢ حتى عام ١٨٠٠ اكثر من ثلث جنوده (اي ٧٠٠،٠٠٠ قتل من مليوني مقاتل)

لنأبر على استخراج النتائج من الحوادث التي بحث عنها في هذا الكتاب بحثاً نفسياً .

يدلنا البحث عن الجموع الثورية في باريس وفي الجيوش على ما لهذه الجموع من الاطوار المختلفة ، ولكنه يسهل شرح هذه الاطوار فقد اثبتنا ان الجماعات لما كانت عاجزة عن التعقل فانها تسير كما تحرض وهذا ما يجعلها متقلبة ، ورأينا ايضاً انها ذات بطولة متناهية وان زية محبة الغير تكون نامية عندها في الغالب وانه يسهل علينا ان نجد بينها الوفاً من الرجال مستعدين لتضحية انفسهم في سبيل احد المعتقدات تؤدي مثل هذه الصفات النفسية المختلفة الى اعمال متباينة متناقضة حسب الظروف والدليل على ذلك ما ورد في قصة دور العهد وحيوشه . اثبتت هذه القصة ان جموعاً مركبة من عناصر متقاربة قد سارت في باريس وفي الشوارع سيراً مختلفاً اختلافاً يجعل الانسان

يظن بانها ليست من شعب واحد .

كانت الجموع في باريس مضطربة قاسية سافكة للدماء متقلبة في رغائبها تقلباً يستحيل ان يستقيم معه أمر اية حكومة واما حال الجموع في الجيوش فكانت خلاف ذلك لان اختلاط هذه الجموع بالجند اي بفريق الامة الذي شب على حب النظام من فلاحين وعمال وترويضها بالتعليم الحربي واجتذابها بالحماسة المعدية اوجب اضطبارها على ضنك العيش واستخفافها بالمهالك وساعد على تكوين فئة عجيبه انتصرت على اشد جيوش اورو با سطوة .

يستشهد بمثل هذه الامور في اثبات تأثير النظام فهو يحول الرجال ولا تلبث الامم التي تحرر منه ان تصبح قبائل متبرزة . لا تزال هذه الحقيقة تغيب عن بال اولياء الامور ويؤدي جهلهم بنواميس الجماعات الاساسية الى العمل بما تضعه الجموع من الخطط بدلاً من ان يقودها .



الفصل السابع

نفسية زعماء الثورة الفرنسية

١ — نفسية رجال الثورة الفرنسية

شأن الاخلاق الشديدة والاخلاق الضعيفة

لما كان الانسان يميز بذكائه ويسير بحجته وجب في اكتناه امره ان يفرق بين هذين العنصرين ، وللاخلق المقام الاول في الادوار العظيمة والحركات الثورية معدودة من تلك الادوار بحكم الطبيعة وبما اتنا وصفنا في كثير من الفصول السابقة ما يسود ايام الفتن من النفسيات المختلفة فاننا لا نرجع الى ذلك الآن ، وتلك النفسيات تغير ذاتية الانسان الموروثة والمكتسبة .

رأينا ما لعنصر التدين من الشأن في النفسية يعقوبة وما ادخله في قلوب اشباع الايمان الجديد من التعصب الشديد ورأينا ايضاً ان جميع اعضاء المجالس ليسوا متعصبين وان المتعصبين كانوا اقلية فيها وان اكثرية الاعضاء في مجالس الثورة الفرنسية مطبوعون على الحياء والاعتدال والمحايدة وان الخوف هو الذي جعلهم يصوتون قبل الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية مع القساة المتطرفين .
ان اصحاب الاخلاق المحايدة الذين يتبعون في جميع الادوار —

ثورية كانت او غير ثورية - اكثر المحرضات تناقضاً هم الاكثر عدداً في كل زمان ولا فرق بينهم وبين القساة من حيث الخطر لان قوة هؤلاء تعتمد على ضعف اولئك .

يشاهد في جميع الثورات ولا سيما في الثورة الفرنسية اقلية هي مع ضيق عقلاها حازمة تغلب على اكثرية ساحقة متصفة بسمو المدارك وبفقدان الخلق معاً ، ويظهر بجانب الدعاة المتعصبين وبجانب ضعيفي الاخلاق ايام الثورات اناس لا يهمهم سوى الاستفادة منها . وما اكثر من ظهر ايام الثورة الفرنسية من افراد هذا النوع الذين لا غاية لهم سوى الاتفاف من الظروف ليعتقوا ونعد منهم باراس وطاليان وفوشيه وبارير الذين انحصرت سياستهم في خدمة القوي ضد الضعيف .

والواقع ان عدد هؤلاء الطامعين في بداية الثورة المذكورة كان عظيماً وهذا ما دعا كاميل ديمولان ان يكتب عام ١٧٩٢ :
« ان مصدر الثورة الفرنسية هو ما كان عند كل واحد من خلق الاثره وخلق العجب » .

ويتكون من اضافة الملاحظات السابقة الى ما ذكرناه في فصل آخر عن الاطوار النفسية ايام الانقلابات السياسية فكر عام في خلق رجال الثورة الفرنسية وسنطبق الآن ما بيناه سابقاً من المبادئ

على مشاهير الثورة المذكورة •

٢ - نفسية النواب وقت بعثتهم

ان المسير لاعضاء مجلس العهد في باريس والضابط لهم والمحرض اياهم هو تأثير رفقائهم وتأثير البيئة ، ويجب في الحكم عليهم ان نبحت عنهم وجبلهم على غار بهم اي وهم احرار لا رقيب عليهم وهذه هي حال النواب الذين بعثهم المجلس المذكور الى المديريات •

كان هؤلاء النواب ذوي سلطة مطلقة ولم تضايقهم مراقبة وقد ازم الموظفون والقضاة بطاعتهم فكان الواحد منهم ايام بعثته «يسخر الناس ويسجنهم ويضبط اموالهم كما يريد وما شبهه بالباشا في المقاطعة التي ولي امرها» •

ولما عد اولئك النواب أنفسهم من الباشوات صاروا يخرجون الى الناس «محمولين في عجلات يجرها ستة احصنة والحرس يحيط بهم من كل جانب ويجلسون حول موائد فاخرة ذات ثلاثين طبقاً لياً كلوا عليها مع موكب من المهرجين والبطائن والحقراء» وقد «شابهت ابهة كولدربوا في ليون ابهة سلاطين الترك فاصبح لا يقابله احد الا بعد ثلاث طلبات وكان يتقدم قاعة استقباله حاجز لثلاث يتمثل امامه امرء على بعد يقل عن خمس عشرة خطوة» ولا يعسر علينا تصور زهو اولئك الاحكام المطلقين عند دخولهم المدن والحرس محدقة بهم،

اولئك الحكام الذين كانت اشارة منهم تكفي لقطع الرؤوس .
 لم يلبث صغار المحامين العاطلون عن العمل والاطباء المبتذلون
 والحوارنة المعتزلون والاغبياء المجهولون وغيرهم ممن لم يتسم لهم
 ثغر الدهر في الماضي ان صاروا معادلين لاشد من عرفهم التاريخ من
 الجبارة وكانوا بقصصهم الرقاب و باغراقهم الاحياء وقتلهم رمياً بالرصاص
 وهم راكبون متون اهوائهم يشعرون بالارتقاء من مستوى وضع الى
 درجة مشاهير الملوك .

ولم يسبق نيرون وهليو غابال في الظلم والاستبداد نواب
 العهد ابداً لجزر القوانين والعادات اياهما ولو قليلا واما اولئك النواب
 فلم يردعهم رادع . قال تايين :

« نظر فوشيه من نافذته والنظارة في يده الى ذبح ٢١٠ من سكان ليون وكان
 كولو ولا بورت وفوشيه يقصفون ايام القتل بالرصاص وقد نهضوا عند سماعهم
 اطلاق النار هاتفين فرحاً محررين قلائسهم » .

وندكر من بين نواب البعثة السفا كين الكاهن (لوبون)
 الذي خرب اراس وقامبري عند ما اصبح ذا سلطة قوية ، فثله
 ومثل كارييه يثبتان ما يؤول اليه امر الانسان عند ما يتخلص من
 نير التقاليد والقوانين وقد بلغ منه حب سفك الدماء واقتراف المظالم
 ميلاً أدى الى نصبه المقصلة تحت نوافذ بيته ليمتع مع زوجته واعوانه

بمنظر الذبح ، وقد اقام على قائمة المفصلة مقصفاً ليشرب منه الشائرون
 وكان الجلاد يركم في الطريق اجساد القتلى عارية على اوضاع
 مضحكة ليضحك منها الشائرون ، وقد انحصر دفاع الكاهن المذكور
 بقوله لم يفعل ما فعله الا لتنفيذ ما أمر به ، و الامور التي أنب عليها
 مؤخراً وان كانت معلومة لدى مجلس العهد فان هذا المجلس لم
 يعززه عليها .

اشرت آنفاً الى الخيلاء التي اشتملت على هؤلاء النواب الذين
 اصبحوا فجأة ذوي سلطة فاقت على سلطان اشد المستبدين ولكن
 الاشارة الى ذلك لا تكفي لايضاح فظاعتهم ولهذه الفظاعة اسباب
 مختلفة : منها انه لما كان مفوضو مجلس العهد رسلا لايمان شديد فانهم
 كرجال محكمة التفتيش لم يرحموا ضحاياهم وقد اصبحوا بتخلصهم
 من زواجر التقاليد والقوانين قادرين على ارضاء الاعنة لما تركته
 الهمجية الاولى فيهم من الغرائز الوحشية .

نعم ان الحضارة تقيد هذه الغرائز ولكنها لا تميمها ابدأ والحاجة
 الى القتل في نفوس الصيادين دليل دائم على ذلك ، بين الميسو كونيستي
 كانوا صولة هذا الميل الفطري المثيرة في كل حياد عند مطاردته
 فريسته خالق القسوة في السطور الآتية :

« ان حب القتل للقتل ذاته خلق عام وهذا الخلق هو علة

الكلف بالصيد فنحن نستمر على الاتيان بعمل كانت ضرورة العيش
 ترغم اجدادنا الهمج على فعله ولا يوجد ما يبرره في الوقت الحاضر
 ونعجز عن كسر سلاسل العبودية المقيدة لنا منذ القديم وعن نزع
 التلذذ بسفك دماء الحيوانات التي تنسى عاطفة الشفقة عليها وقما
 يستولي علينا حب الصيد فنسقط اكثر الحيوانات دعة وظرافة -
 ومنها الطيور المغردة الناشرة في الكون سحر الربيع - رمية بالارصاص
 او نحقها بحبالنا من غير ان تعكر رعدة رحمة ما تجده من اللذة عند
 مشاهدتها مضرجة بالدماء راقصة من الالم محاولة الفرار على ارجلها
 المكسورة او محرقة اجنحتها المهيضة . وسبب ذلك هو الخلق
 المهيمن المورث عن الاجداد والذي لا يقدر على مقاومته افضل
 الناس .

ولا يتسلط هذا الخلق الموروث السفاح في الاوقات الاعتيادية
 إلا على الحيوانات حذراً من بطش القانون ، فتى بطل عمل هذه
 القوانين لا يلبث ان يتسلط على الانسان ايضاً وهذا هو علة تلذذ
 رجال الهول بذبح الناس وما قاله كاريية عن الفرح الذي كان يجده
 في نفسه عند رؤية وجوه ضحاياه ساعة هلاكهم لكلام ذو معنى ،
 والخلاصة ان الوحشية عند كثير من اهل الحضرة غريزة مزجورة
 ولكنها ليست 'مباداة' .

٣ - دانطون وروبسيير

ان دانطون وروبسيير اكثر رجال الثورة الفرنسية نفوذاً
وسأتكلم قليلاً عن الاول لنفسيته البسيطة المعروفة، كان خطيب
منتديات محرضاً صولة مهيجاً للشعب وهو وان كان قاسياً في
خطبه فان نتائجها كانت تحزنه في الغالب وقد نال درجة رفيعة منذ
البداية ايام وجود روبسيير - خصمه في المستقبل - في الصف
الاخير، نعم جاء وقت اصبح دانطون فيه روح الثورة الفرنسية
ولكنه كان عاطلاً من خلق العناد ومن الثبات في سيره ذا حاجات
لم يوجد عند روبسيير مثلاً، وقد انتصر تعصب هذا الاخير المستمر
على مجهودات الاول المتقطعة غير ان سوق روبسيير الذي هو شاحب
المنظر مفسد قليل الذكاء لدانطون الخطيب المؤثر الى المقصلة امر
لم يخطر ببال احد .

لا يزال امر روبسيير - الذي هو اكثر رجال الثورة الفرنسية
تأثيراً غامضاً - وان بحث عنها اكثر من غيره فن الصعب اكتناه نفوذه
الذي ملك به حق الاحياء والامانة نحو مناهضي الثورة الفرنسية
وزملائه المعاضدين لها معاً .

لا جرم ان أمر روبسيير لا يكتفه بان يقال كما ذكر تالين انه
معجب بنفسه غارق في بحار المجردات او كما وصفه ميشليه بأن مبادءه

علة نجاحه او كما قال عنه معاصره ويليام :
 « ان سر قبضه على زمام الحكم هو اتخاذه اهل النقائص ومقتري الجرائم
 برقة لطمعه » .

ويستحيل ان تكون فصاحته سبب نجاحه اذ انه كان يقرأ
 بصعوبة - ونظارته تحجب عينه - خطبه التي هي كناية عن مجردات
 باردة مبهمه ، وكان ثمة في مجلس العهد خطباء يفوقونه بلاغة كدانطون
 والجير ونديين ولكنه هو الذي ابادهم جميعاً .

اذاً ليس عندنا ايضاح كاشف لسلطة هذا الحاكم المطلق الذي
 لم يكن له نفوذ في المجلس الوطني فاصبح بالتدريج سيد اليعاقبة
 ومجلس العهد ، ولما صار ركنا من اركان لجنة السلامة العامة اضحى
 كما قال بيوفارين : « أهم رجال فرنسا » . لاشك في اعانة الظروف له
 كثيراً فقد نظر اليه الناس كسيد محتاجين اليه وهذا هو علة ارتقائه
 السريع الذي نسعى في بيانه ، واني لأظن انه كان ذا سحر ذاتي لا
 عهد لنا به اليوم ، وبهذا الظن يمكن شرح ما ناله من النجاح عند
 النساء ، فكانت المسالك ايام القائه خطبه « تكتظ بالنساء ويتراوح
 عدد اللواتي يجلسن على مقاعد الاستماع بين السبعمئة والثمانمئة وكن
 يصفقن له هائجات النفس وعند ما يخاطب اليعاقبة كان شهيق الحنو
 والبهتاف يسمع من كل جانب وتكاد الضوضاء تضعضع اركان بهو

الاجتماع » .

وقد ارسلت اليه ارملة حديثة السن اسمها مادام روشالابر
التي 'قدر دخلها باربعين الف فرنك رسائل فاتنة تدعوه فيها الى
الاقتران بها .

وليس خلق روبسبيير سبب استمالة الناس اليه لانه كان سوداوي
المزاج ضعيف الذكاء عاجزاً عن فهم الحقائق غائصاً في بحر من
المجردات ما كراً مداحياً ووسمه البارز هو كثرة إعجابه بنفسه ولم
يفارقه ذلك حتى آخر يوم من حياته ، ولما كان حبراً لايمان جديد
اعتقد بان الله ارسله الى الارض ليوطد عليها دعائم الفضيلة . وقد
كتب اليه « انه هو المسيح الذي وعد الله الناس بارساله لاصلاح
كل شيء » .

كان يدعي بانه من ارباب البيان ولذلك كان ينتهج خطبه طويلاً
وقد أدى حسده الخطباء والادباء امثال كاميل ديمولان الى قتالهم ، وما
اعظم استخفافه بزملائه فلما خلى الى باراس ساعة ترقشه وفرغ من
حلق لحيته بصق نحوه كانه غير حاضر ولم يجبه على اسئلته تكبراً ،
وليس ازدرأوه ابناء الطبقة الوسطى والنواب باقل من ذلك والجمهور
وحده هو صاحب الخطوة عنده قال :

« لا مناص من الخضوع امام الجمهور الحاكم عندما يتصرف بامور الساطنة

وكل ما يفعله الجمهور فضيلة وحقيقة وليس فيه ما يعد ظلاماً أو ضللاً أو جرمًا .
كان رو بسبير مولعاً بالاضطهاد وليس قيامه بأمر الرسالة هو
السبب الوحيد في قطعه كثيراً من الرؤوس بل ان اعتقاده بانه محاط
بالأعداء والمؤتمرين اوجب ذلك ايضاً ، قال الموسيو صورييل : « مهمما
بلغ جبن زملائه امامه فان خوفه منهم اعظم » .

ان حكمه المطلق الذي استمر خمسة اشهر لمثال بارز على ما
لبعض الزعماء من السلطان ، فاذا اهلك جبار قابض على زمام جيش
ايا شأ فليس في ذلك ما يعسر فهمه واما اذا استطاع رجل وحده ان
يرسل عدداً كبيراً من امثاله الى المقصلة فهذا امر لايسهل ايضاحه
وعلى نسبة ايداعه اشهر النواب ككاميل ديولان وهيرت ودانطون
وغيرهم الى المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة كانت قدرته تعظم وقد
سقط اكثر الجيرونديين صيتاً امامه ثم اختلف مع الهيئة الثورية
المربعة ففصل رقاب رؤسائها واقام مقامها هيئة ثورية جديدة منقادة
لأوامره .

أراد ان يتخلص بسرعة ممن لا يروقون في عينه فجعل المجلس
يوافق على قانون الشهر التاسع من السنة الجمهورية ذلك القانون
الذي يسمح بقتل الناس عند الشبهات وبفضله قطع رو بسبير في
باريس ١٣٧٣ رأساً في تسعة واربعين يوماً ، وقد كف زملاؤه

لكن
مهم

عن النوم في بيوتهم فرقاً منه وصار عدد من يحضر الجلسات من النواب لا يزيد على المئة .

سببت زيادة اعتماده على نفسه وعلى جبانة اعضاء مجلس العهد هلاكه فلما اراد ان يحملهم على ان يصوتوا لقانون يجوز سوق النواب الى المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة من غير ان يأذن المجلس بذلك اي بناء على قرار اللجنة التي يدير امورها ائتمر كثير من اعضاء الحزب المونتانياري (الجبلي) والبليني (السبلي) به ليسقطوه ، فاتهمه طاليان — الذي احس بدنو أجله وبانه ليس لديه ما يحسره — بالبغي والجبروت فاراد رو بسبير ان يدافع عن نفسه بتلاوته خطأ بامكث في تهذيبه طويلاً ولكنه ادرك بعده أنه وإن امكن إبادة الناس باسم العقل، فإن العقل لا يقود المجلس ، خفق صراخ المؤتمرين صوته فكفى لانتكاسه تكرير كثير من الاعضاء الحاضرين بتأثير العدوى النفسية كلمة « فليسقط الظالم » وقد أمر المجلس باتهامه حالاً .

ثم رأت الهيئة الثورية انتقاده ولكن مجلس العهد صرح بانه لا يستحق حماية القانون، كتب ويليام :

« كان تأثير كلمة « عدم استحقاق حماية القانون » في الفرنسيين كإثارة كلب الوفاء لان من يقال فيه تلك الكلمة كان يحرم مديناً ويعده الناس مدناً لم يبر بالقراب منه . وهكذا اثرت هذه الكلمة في المدفعية التي تسدد قنابلها الى مجلس العهد فلما سمعت بانها قبالت ضد الهيئة الثورية ادارت افواه مدافعها حالاً » .

أعدم رو بسبيير قصلا في اليوم العاشر من الشهر الحادي عشر
للسنة الجمهورية مع عصابته البالغ عددها ٢١ رجلاً ومنهم سان جوست
ورئيس المحكمة الثورية ورئيس البلدية ثم اعدم في غد ذلك اليوم
سبعون يعقوبياً وفي اليوم الثالث ١٣ يعقوبياً فانقضى بذلك دور
الهول الذي استمر عشرة شهور.

ان انهيار البنيان اليعقوبي في الشهر المذكور لاحدى الحوادث
النفسية الغربية التي وقعت ايام الثورة الفرنسية وما خطر على قلب
احد الموتاناريين الذين اسقطوا رو بسبيير بان دور الهول سينتهي
بهذا السقوط ، نعم قضى طاليان و باراس وفوشيه الخ على رو بسبيير
كما قضوا سابقا على هيبيرت ودانطون والجيرونديين وغيرهم ولكنهم
لما علموا بان الجماعة ارادت بهتافها لاعداء رو بسبيير زوال دور الهول
ساروا كأنهم يريدون ذلك ، ثم ان الحزب البليني (السهلي) - اي
الكثيرة المجلس الساحقة - الذي قتل رو بسبيير كثير آمن اعضاءه
ثار على الدور المذكور الذي هتف له زمنا طويلا رغم مقتنه اياه
وليس من هو اشد هولاً ممن زال عنهم الخوف بعد استيلائه عليهم
فقد اضطر الحزب البليني الحزب الموتاناري والقي في قلوب اعضاءه
الرعب انتقاماً .

لم يصدر تدلل زملاء رو بسبيير في مجلس العهد له عن ميل له

ولكن هذا الخاك المطلق أخافهم كثيراً فكانوا يخفون حقداً شديداً
خلف ما كان يدفعهم الخوف الى اظهاره من علامات الاعجاب والحماسة
ويظهر ذلك من مطالعة ما نشره كثير من النواب بعد اعدامه من
التقارير في الاعداد الصادرة في ١١ و ١٥ و ٢٩ اغسطس سنة ١٧٩٤
من جريدة المونيتور وأخص بالذكر منها التقرير الباحث عن
مؤامرة الحكام الثلاثة روبسيير وقوطون وسان جوست فلم يشتم
عبد سيده بعد سقوطه مثلما شتم روبسيير وعصابته في التقارير
المذكورة، ويستدل منها « ان هؤلاء الغيلان جددوا عهد مجازر
«ماريوس وسيللا» وقد وصف فيها روبسيير بالعاقب الخيف وبانه
لا يحجم عن ان يطلب مثل كاليغولا الى الشعب الفرنسي ان
يعبد حصانه اذا وجد الى ذلك سيللا وبانه كان يبحث عن السلامة
في قتل جميع من يشتبه بهم.

الا انه فات هذه التقارير ان تذكر ان سلطة روبسيير لم
تستند الى جيش قوي كسلطة ماريوس وسيللا التي اشير اليها بل
الى رضا اعضاء مجلس العهد عنه، فلولاجين هؤلاء الشديد لما طالت
سلطة روبسيير يوماً واحداً.

حتاً ان روبسيير مثال لا كبر جبارة التاريخ ولكنه يمتاز
عنهم بكونه جباراً بلا جنود، ويمكن تلخيص مبادئه بان يقال انه كان

متشرباً أكثر من جميع الناس - ما عدا سان جوست على ما يحتمل -
 بالعقيدة اليقينية رغم منطقها الضيق وتصوفها الشديد وتصلبها
 العظيم ، ولا يزال يوجد مادحون له الآن فقد نعتة المسيو هاميل
 « بالشهيد » واقترح بان يقام له تمثال واني لا كنتب بذلك طائعاً
 لاني اعد ان تخليد الآثار الدالة على عمى الجماعات وعلى تذلل المجالس
 امام زعيم يعرف كيف يقودها لا يخلو من فائدة فسوف يذكرنا تمثاله
 بهتاف الاعجاب والحماسة الذي اتى به مجلس العهد ولما تهدده به من
 التدابير قبل اسقاطه بقليل .

٤ - فوكيه تنفيل - مارا - يوفارين الخ

جمعت في بحث واحد بضعة ثوريين اشتهروا بجلهم الى سفك
 الدماء ولهؤلاء عواطف اخرى مشددة في فظاعتهم كالخوف والحقه
 ان ذكر فوكيه تنفيل النائب العام في المحكمة الثورية ان اشد
 الذكريات شؤماً وقد اوردت هذا النائب الذي اشتهر بادى الامر
 بحلمه ثم اصبحت رجلاً سفاحاً تشتم من ذكره النفوس مثلاً في
 مؤلفات اخرى لا بين ما يطرأ على بعض الاخلاق من التحولات ايام
 الثورة . كان معدياً وقت سقوط الملكية منتظراً كل شيء من نشوب
 ثورة اجتماعية ليس عنده ما يخسر فيها وهو من فصيلة الرجال المتأهبين
 لمعاودة الفن في كل حين . قلده مجلس العهد مقاليد اموره فاصبح

في يده مصير ما يقرب من ألفي متهم ومنهم الملكة ماري انطوانيت
والجيرونديون ودانطون وهيرت الخ ، وكان يعدم جميع المتهمين
المرفوعة اسماؤهم اليه ويخون حماته السابقين بدون تردد وكان عند
ما تزول سلطة احدثهم - ككاميل ديمولان او دانطون او غيرهما -
لا يتأخر عن طلب عقابهم .

ان روح فوكيه تنفيل لا نذل روح اظهرتها الثورة الفرنسية
وقد كان في الاوقات الاعتيادية مشغولا بقواعد مهنية وليس له شأن
أكبر من شأن قاض هادي مجهول امره وما اشبه نائبه « جلبر
لياندون » به كما قال المسيو دوريل عنه :

« إنه القى الرعب في قلوب الناس كزميله غير انه أتم مهنته وهو قائم بأعمال
منصب قضائي سام في عهد نابليون » .

ومن حسنات المجتمع المنظم العظيمة تقييده لمثل اصحاب تلك
الاخلاق الخطرة الذين لا يردعهم سوى الزواجر الاجتماعية .

أعدم فوكيه تنفيل وهو لا يعلم علة عقابه الذي لا يوجد ما
يرره من الوجهة الثورية وهل فعل سوى تنفيذ أوامر رؤسائه
بنشاط ؟ انه لا يجوز تشبيهه بأولئك النواب الذين ارسلوا الى الولايات
ولم تكن مراقبتهم في الامكان فقد فحص مفوضو مجلس العهد جميع
أعماله واستصوبوها حتى اليوم الاخير ولو لم يشجعه رؤسائه على

قسوته وعلى طريقته السريعة في الحكم على السجناء لما استمرت سلطته، ومجلس العهد بقضائه على فوكيه تنفيل قضى على دوره الرهيب، حقاً ان المجلس المذكور أدرك ذلك فاعدم فوكيه تنفيل واعدم معه كثيراً من رجال الهول الذين لم يكن فوكيه تنفيل غير موظف منفذ لاوامرهم •

ونذكر بجانب فوكيه تنفيل (دوما) الذي اظهر مثله قسوة عظيمة صادرة عن خوف شديد، كان هذا لا يخرج الامساحاً ويتمتع عن مواجهة الناس ولا يكلم الزائرين الا من كوة وما اكثر سوء ظنه بالناس ومنهم زوجته التي دفعه سوء ظنه بها الى سجنها ثم الى اعدامها •

ونعد من بين الذين اظهرهم دور العهد واشتهروا بهمجيتهم (بيوفارين) الذي هو مثال تام للوحشية الحيوانية •

كان يظل في ساعات الغضب والضيق هادئاً قائماً بعمله الهائل ويحضر بصورة رسمية - مذابح سجن (الأيبي) ويهنيء الجزارين ويعدم برواتب ثم يدخل بيته كأنه راجع من الزهرة، وكان وهو رئيس المنتدى العقوبي ورئيس مجلس العهد وعضو في لجنة السلامة العامة يجر الحير وندوين الى المقصلة وكذلك الملكة وسيدة السابق دانطون الذي قال عنه « إنه ذو مدية تحت لسانه » وقد استصوب ضرب مدينة ليون بالمدافع وإغراق مدينة نانت وهو الذي رتب لجنة (اورانج) العديمة الرحمة وحرص فوكيه تنفيل، وكثيراً ما جاء اسمه على رأس مراسيم

الاعدام التي كان يوقع عليها قبل زملائه غير راحم او متأثر او هائج ساءرا على طريقه عند ما يدهش هؤلاء او يترددون او يتمهلون متفوهاً بكلمات ضخمة هازا ذو آتبه كالاسد ، ولما احقق الخطر برو بسبيرو وسان جوست وقوطون تركهم وانضم الى الحزب المعارض ليضرب رقابهم ولكن لماذا ؟ إن المرء ليحار في الجواب إذا نه لم يطمع بشي ولم يبتغ مالا ولا سلعاً نأ

اظن ان الجواب ليس صعباً فالعطش الى القتل المنتشر كثير آيين بعض المجرمين كما بينا آنفا يوضح لنا سر سلوك يوفارين ، يكثر الاشقياء من القتل للقتل ذاته وهم كالصيادين يصمون الطريدة قضاء لما في نفوسهم من شهوة الاتلاف الغريزية والخوف من الشرطي ومن المقصلة يردع المفطورين على تلك الغرائز السفاكة عن اقتراف الجرائم في الزمنة المعتادة ولكن متى يحين الوقت الذي يرخون فيه لانفسهم أغنتها فانهم لا يتأخرون لحظة عن الاجرام ، هذه هي حال يوفارين وآخرين مثله .

واما نفسية مارا فاكثر غموضا لالأن فيه عدا ميله الى القتل عناصر اخرى كعزة نفسه المكمومة وطمعه وعقائده الخ بل لولعه بالمراتب السنية ولو عابلاً بلغ حد الجنون وتعصبه لبعض المبادئ تعصباً جاوز حد الجمود .

كان ذا مزاج علمية قبل الثورة الفرنسية ولكن لم يعرف أحد ترهاته أذنا صاغية وهو وان حلم في ذلك الوقت بالمناصب والمالي

فانه لم ينل سوى وظيفة وضيفة عند امير اقطاعي كبير ، الا ان الثورة المذكورة فتحت له باب مستقبل غير منتظر ، وبما انه ففهم بالحق على المجتمع السابق الذي جحد فضائله فانه اصبح بعد نشوبها على رأس اشد الطغاة وقد انشأ بعد ان مجد مذابح شهر ايلول جهراً جريدة وشى فيها بجميع الناس طالباً اعدامهم بالحاح .
 وكان مارايتكلم كثير أعن منافع معبوده الشعب غير ان اكثر زملائه احتقروه ولو لم يقتله شارلوت قورداي بخنجر علما تغلبت من ساطور المقصلة حتما .

هـ - مصير رجال العهد الذين ظلوا احياء بعد

انتهاء الثورة الفرنسية

وجد بجانب رجال العهد الذين كانت لهم نفسية ذات صفات خاصة بها رجال آخرون - كبار اس وفوشيه وطاليان وميران دوتيونفيل - ليسوا من ذوي المعتقدات او المبادئ ولا يهمهم سوى الاثراء .

استطاع هؤلاء ان يستفيدوا من البؤس العام فجمعوا اموالا عظيمة ولو كانوا في الازمنة الاعتيادية ولم يظهروا ايام الثورة التي لا يفرق فيها بين الفضيلة والرذيلة لعدوا من الاشقياء المجرمين . نعم ظل القليل من اليعاقبة متعصباً لمذهبه واما اكثرهم فقد تركوه بعد

ان اغتفوا وتشرفوا بصيروتهم من بطانة نابليون ، خذ مثالا (قائلا - سيرس) الذي كان ينسادي لويس السادس عشر وهو في السجن (لويس ثاني) ترأته صار يطالب في عهد نابليون الى جاسائه ان يلتقبوه بـ (صاحب السمو) امام الناس و بـ (سيدنا) بينهم ، وهذا ما يدلنا على مقدار الحسد المنطوي تحت ميول كثير من اليعاقبة الى المساواة .

قال الميوس مادلان :

« اغتنى اكثر اليعاقبة فصاروا مثل (شابو و بازير و ميرلان و باراس و بورصول و طاليان و بارير) اصحاب قصور واطيان ومن لم يثر منهم في البداية فقد أثرى في النهاية . فقد وجد في لجنة السنة الثالثة وحدها رجال اسبح احدهم في المستقبل أميراً و ١٣ منهم كوتات وخمس منهم بارونات وسبع منهم اعضاء في مجلس الشيوخ الامبراطوري وست منهم اعضاء في مجلس الشورى ونعد بجانبهم خمسين دموقراطيا كانوا اعضاء في مجلس العهد فصاروا في أقل من خمس عشرة سنة أرباب صكوك وخزائن وعجلات و اوقاف وإقطاعات وفنادق وقصور ومن هؤلاء الخمسين الدوك اورطان والكونت رينيول وقد مات فوشيه تاركاً خمسة عشر مليوناً . »

هكذا اعيدت امتيازات العهد السابق التي اتمكت حرمتها حسب منفعة الطبقة الوسطى ولكن لم يتم الوصول الى هذه النتيجة الا بتخريب فرنسا واحراق ولايات . متها وتكثير العقوبات بالقتل

وإيقاع كثير من العائلات في الغم الشديد وإغلاق أوروبا وزهوق نفوس مئات الألوف في ساحة الوغى .

نختم هذا الفصل الذي بحثنا فيه عن نفسية كثير من زعماء الثورة الفرنسية بذكر ما قلناه من الأحكام في رجال الدور المذكور: إذا كان علم الأخلاق يقضي على العالم به أن يكون شديداً نحو بعض الأشخاص حكمه فيهم حسب القواعد التي يجب على المجتمعات أن تحترمها لتعيش فانه لا يوجد ما يجعل العالم النفسى شديداً مثل ذلك إذ أن غايته إدراك الأسباب وسرعان ما يزول النقد إزاء هذا الإدراك .

أن الروح البشرية لآلة قصيفة ولذلك قلما تستطيع اللعب التي تلعب على مسرح التاريخ أن تقاوم القوى المحركة لها ولما كانت الوراثة والبيئة والظروف عوامل مهيمنة فانه لا يوجد من يستطيع أن يقول متيقنا ماذا يصبح سيره لو كان في مكان من يحاول أن يفسر أعمالهم من الرجال .



الباب الثالث

النزاع بين المورثات الموروثة

والمبادئ الثورية

الفصل الاول

تقاص الفوضى - حكومة الديركتوار

١ - نفسية دور الديركتوار

بما ان جميع المجالس الثورية تتركب من افراد متماثلين بعض التماثل فانه يسبق الى الذهن ان نفسيتهما متقاربة . يكون الامر طبق ذلك في الادوار الاعتيادية حيث ثبات البيئة يوجب ثبات الاخلاق ولكن متى تتبدل الظروف بسرعة وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنسية فانه لا بد للاخلاق من التبدل لتلتئم معها .

هكذا كان شأن حكومة الديركتوار التي كانت ذات مجلسين اشتملا على كثير من النواب ومجلس ضيق النطاق مركب من خمسة مديرين ، ويشبه تلكما المجالسان النيابيان بضعفهما مجلس العهد لانهما وان لم يسيرامع الفن الشعبية التي قاومها المديرون بيد حديدية فقد كانا يدعنان لاوامر هؤلاء المديرين المطلقة اذعاناً تاماً .

لما اُكل الاستبدادُ اليقوي جميع الناس تخيل المجلس الجديد
ان يعمر ما عم فرنسا من التخريب وان يقيم حكومة دستورية
غير مستبدة ، الا انه يمكن ان نقول بان الاقدار الثورية التي تضع
سير الحوادث احيانا فوق عزيمة الرجال قد جعلت اولئك النواب
رغم صدق نياتهم ان يفعلوا كسابقيهم خلاف ما يريدون ، رجوا ان
يكونوا معتدلين فظهروا بظهور الاشداء ورغبوا ان يقضوا على نفوذ
اليعاقة فاقصدوا بهم وحلموا ان يصلحوا ما خرب فزادوا ضعفاً على
إبالة وتمنوا ان يعم السلام الديني فاضطهدوا الكهنة واعمالوا السيف
في رقابهم باشد مما وقع ايام الهول الاكبر .
وأما نفسية المجلس الصغير المركب من خمسة مديرين فعكس
نفسية مجاسي النواب لأن مواجهته للمصاعب اليومية كانت تدفعه
الى حابها مع ان المجلسين النيابيين اقتصرا على إبداء الرغائب لبعدهما
عن الحقائق .

ان عدم اكترات المديرين بالمبايدي دفعهم الى حب بقائهم
سادة ولذلك لم يتأخروا لحظة عن الاتيان باقسي الاعمال واشدها
مخالفة للقانون وما اكتر المرات التي ابطلوا فيها ما لم يرق في عيونهم
من الانتخابات ، وعند ما شعروا بعجزهم عن تنظيم فرنسا تركوا
الامور تجري كيفما تشاء وهم وان استطاعوا بظلمهم ان يتسلطوا على

البلاد فانهم لم يحسنوا سياستها وحسن السياسة هو اكثر ما كانت تحتاج اليه

اشتهرت حكومة العهد في التاريخ بشدتها وحكومة الديركتوار بضعفها مع ان الواقع يثبت لنا ان الثانية اقوى من الاولى ويتضح ما بين حكومة الديركتوار وحكومة المجالس السابقة من الفروق بما يأتي : ان من الممكن ان تكون الحامسة عظيمة في مجلس يضم ستمئة او سبعمئة عضو كافي ليلة ٤ اغسطس وان تدفعه شدة العزيمة الى اشهار الحرب على جميع الملوك ولكن هذه الاندفاعات لا تكون قوية لعدم استمرارها واما اللجنة المؤلفة من خمسة اعضاء والمتغلب عليها احد اعضائها فتكون ذات عزيمة مستمرة اي ثبات في سيرها. نعم ظهرت حكومة الديركتوار بمظهر العاجز عن الحكم ولكن إرادتها كانت قوية فلم تبال بالقانون ولا ببناء الوطن ولا بالمصلحة العامة وقد اثقلت كاهل فرنسا باستبداد لم تأت بمثله أية حكومة منذ بداية الثورة الفرنسية حتى ولا حكومة الهول الاكبر .

لم تستطع حكومة الديركتوار لحكومة العهد ان تكون سيدة فرنسا رغم طرقها الاستبدادية المماثلة لطرق حكومة العهد ويثبت لنا هذا الامر الذي اشرنا اليه سابقا ما في الضغط المادي من العجز عن قهر القوى الادبية وهنا نكرر ما قلناه بان رائد الانسان الحقيقي هو

مزاجه الادبي الذي وطده الاجداد .

و يصعب ان يقال باننا عاقلون من مثل ذلك المزاج لاعتيادنا العيش في مجتمع منظم واستنادنا الى القوانين وتقاليد مبجلة ، ولا نرى في الغالب من البيئة التي نعيش فيها سوى ما يحصر النفس غافلين عن ان المجتمع لا يقوم الا ببعض الروادع اي بالقوانين والعادات والتقاليد الوازنة لغرائز الانسان الهمجية التي لا تزول منه زوالاً تاماً .

فتاريخ حكومة العهد وحكومة الدير كتوار يدلنا على مايؤول اليه أمر أمة نزع منها مزاجها القديم واصبحت لا دليل لها سوى امور صناعية صادرة عن عقل ضيق .

٢ - حكومة الدير كتوار المستبدة - احياء الهول الاكبر

عزم المديرون على إعادة حروب الفتح التي خرجت منها فرنسا ظافرة في دور العهد لتحويل الانظار وإلهاء الجيش ونهب الاموال من البلدان المجاورة فاستغرقت هذه الحروب جميع ايامهم ورجعت الجيوش ظافرة منها - ولا سيما من ايطاليا - ذات مغايم كثيرة .

وقد ظهر بعض سكان البلاد المفتوحة بمظهر الساذج البسيط فظنوا ان فرنسا ما قامت بهذه الفتوحات الا في سبيل مصلحتهم ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ان الفتح اعقبته ضرائب فادحة ونهب للكنائس وسلب لبيوت المال الخ ، وهذه السياسة أدت الى تحالف

دولي جديد استمر حتى عام ١٨٠١ ضد فرنسا .
صرف المديرون الذين لم يبألوا بأمر البلاد ولم يكونوا اهلا
لتنظيمها قلو بهم الى مكافأة الموآمرات حرصاً على بقاء السلطة في
ايديهم وقد استوعب هذا الامر جميع اوقاتهم لمشاركة الاحزاب على
سيرها فاشتدت الفوضى وصار الناس يتطلبون يداً قوية قادرة على
تثبيت اركان النظام وهكذا احست الامة ومنها المديرون انفسهم
ان النظام الجمهوري قد قرب اجله .

رأى بعض الناس إعادة الملكية وبعض آخر نظام الهول
وآخرون تفويض الامر الى قائد ولم يحش تبديل النظام سوى
مقتني الاموال الوطنية .

اخذ استياء الشعب من حكومة الديركتوار يزداد كل يوم ولما
جدد انتخاب ثلث المجلس النيابي في شهر مارس عام ١٧٩٧ كان اكثر
المنتخبين من المعارضين لها ، واقلق ذلك المديرين فابطلوا انتخابات
تسعة واربعين مديرية وطردها من النواب الجدد بعدة قضائهم
١٥٤ نائباً وحكموا على ٥٣ بالنفي ويوجد بين هؤلاء المنفيين اشهر
رجال الثورة الفرنسية كبورطاليس وكارنو وترونسون
وكودراي الخ .

وقد حكمت بعض المجالس الحربية - من غير روية - على مئة

وستين رجلاً بالاعدام ونفت ٣٣٠ رجلاً الى (الكويان) فمات نصفهم في وقت قصير ولم تلبث ان طردت المهاجرين والكهنة الذين عادوا الى فرنسا ، ولم يكتف المديرون بهذا العمل الاستبدادي الذي دهش له المعتدلون بل ، أتوا بعده بعمل آخر غير انهم لما رأوا ازدياد عدد نواب اليعاقبة بعد الانتخابات الجديدة فسخطوا انتخاب ستين عضواً يعقوبياً .

يدلنا ما تقدم على مزاج اعضاء حكومة الدير كتوار الاستبدادي ويظهر هذا المزاج بأجلى من ذلك عند الاطلاع على تفاصيل تدابيرهم :

لم يكن هؤلاء السادة مجبهم لسفك الدماء أدنى من وحوش دور الهول الا كبر فهم وان لم ينصبوا المقصلة نصباً مستمراً فقد استبدلوا بها نفيّاً قل ان يبقى من يكون عرضة له على قيد الحياة اذ كان المنفيون يساقون الى روشفور في اقفاص من حديد معرضين الى تقلبات الجو ثم يكسسون على السفن .

ولما علم المديرون بالنهضة الكاثوليكية وتخيلوا ان الكهنة يأتمرون بهم نفوا في عام واحد ١٠٤٨ قسيساً واعدوا منهم عدداً كبيراً رمياً بالرصاص وهكذا أحيوا دور الهول الا كبر .
وقد اصاب ظلم حكومة الدير كتوار جميع فروع الادارة ولا

سيما المالية ، فلما احتاجت هذه الحكومة الى ستمئة مليون حملت النواب على التصويت لضريبة مترايدة لم ترجع عليها الا باثنى عشر مليوناً ثم أعادت الكرة فأمرت بعقد قرض اجباري قدره مئة مليون فنشأ عنه اغلاق المصانع وتوقف الاشغال وتسريح الاجراء ، ولم تنل بعد ان مس الناس الضر سوى اربعين مليوناً ، ثم جعلت المجلس يصوت لقانون الرهان كي يتم لها به قهر الولايات ، ويأمر هذا القانون بتنظيم قائمة من الرجال ليكونوا مسؤولين في كل كورة عن ما يقع فيها من الاجرام .

ولا يخفى على اللبيب ما ينشأ عن مثل ذلك النظام من الغيظ والاحقاد ففي عام ١٧٩٩ رفعت ١٤ مديرية راية العصيان واستعدت ٤٦ مديرية للتمرد ولو طال عمر حكومة الديركتوار لانقرط عقد المجتمع الفرنسي انقراطاً تاماً .

تدرجت فرنسا وقتئذ في الانحلال فتداعت اركان الادارة والمالية وصبحت واردات بيت المال — القائمة على اوراق مالية اضاءت تسعة وتسعين جزءاً من قيمتها الاسمية — تافهة وضار الضباط والدائنون لا يصلون الى حقوقهم .

كان منظر فرنسا عند السائحين في ذلك الحين منظر بلاد خربتها الحرب وهجرها سكانها وكان الجولان فيها متعذراً لكثرة

ما انهار من جسورها وسدودها وابنتها واصبح الاشقياء يعيشون
في سبلها المقفرة فصار اجتياح بعض المدير يات لا يخلو من خطر الا
باشترائه تذاكر السلامة من رؤسائهم ، وقد عمّ الخراب الصناعة
والتجارة ايضا فاعلقت في ليون وحدها ابواب ١٣٠٠٠٠ مصنع من
١٥٠٠٠٠ مصنع واضحت ليل والهافر وبوردو ومارسيليا مدناً ممتة
ولم يخل مكان من البؤس والجوع .

ولم يكن الفساد الاخلاقي بأقل من ذلك فكان حب النفاس
والترف والولائم والزينة والرياش سمة لهذا المجتمع الجديد المركب
من الفلاحين ومتعهدي الجيش والماليين الذي اغتنوا من النهب والسلب
وقد خدع مظهر الترف والفرح الظاهري في باريس كثيراً من
المؤرخين الباحثين عن ذلك الدور الذي سار فيه البؤس والبذخ
معاً .

توضح لنا قصة الديركتوار قلة ما في صحائف التاريخ من
الصحة وها هي دار التمثيل تحيي ذكرى ذلك العهد الذي لا يزال
الناس يقلدون أزياءه لاعتقادهم بان الحياة رجعت فيه الى كل شيء
بعد ان انتعشت في دور الهول . والواقع ان نظام الديركتوار لم
يكن اسمى من نظام الهول فكلاهما أديا الى سفك الدماء وقد كان
عاقبة امره ان ألقى في القلوب غيظاً ساق المديرين الذين شعروا

باستحالة بقائهم الى البحث عن سيد مطلق قادر على الحلول مكانهم
وعلى حمايتهم .

٣ - ارتقاء بونابارت

ظهر مما تقدم ان أمر الفوضى والانحلال في آخر عهد
الديركتوار استفحل حتى صار جميع الناس ينتظرون ظهور رجل
قادر على إعادة النظام ، وقد فكر منذ عام ١٧٩٥ كثير من النواب
في إعادة الملكية ، الا ان تصريح لويس الثامن عشر الاخرق الذي
قال فيه بانه سيعيد النظام القديم برمته وسيرد الاملاك الى اصحابها
السابقين وسيجازي انصار الثورة الفرنسية حوّل الانظار عنه .
وبعد ان تعذر ارجاع الملكية بحث الناس عن قائد فوجدوا
بونابارت ، اشتهر بونابارت في معارك ايطاليا فبعد ان جاز جبال
الألب دخل ميلان والبندقية ظافراً وجمع غنائم عظيمة ثم زحف
على فيينا ولما اصبح على خمسة وعشرين فرسخاً منها دعاه امبراطور
النمسا الى الصلح .

لم يكتف هذا القائد الشاب بما نال من شهرة فطمع في زيادتها
فاقنع حكومة الديركتوار بان الاستيلاء على مصر يشامشوكة انكلترا
ثم اجر في شهر مايس عام ١٧٩٨ من طولون . لم تطل اقامة بونابرت
في مصر إذ رجع منها لما استدعاه اصدقائه وقد عم الابتهاج جميع

فرنسا عند ما علم الناس بعودته •

ساعدته فرنسا على الموامرة التي دبرها (سياليس) ومديرين
وبعض الوزراء لاسقاط المجلس النيابي وأنجزت من غير عناء وقد
فرحت جميع الاحزاب فرحا شديداً لتخلصها من ربة العصابات
المشؤومة التي قهرت البلاد منذ زمن بعيد ، نعم عانى البناء فرنسا بعد
ذلك نظاماً استبدادياً ولكنه ليس كالسابق شديد الوطأة •

يؤيد تاريخ اسقاط المجلس النيابي المذكور ما قلناه عن صعوبة
الاعتيان باحكام صحيحة في الحوادث المعلومة التي عاين وقوعها كثير
من الشهود • كان الناس قبل ثلاثين سنة ينظرون الى ذلك الاسقاط
كجناية أدى الى اقترافها طمع رجل معترض بال جيش ، والواقع ان
الزمرة التي طردت من عاند من النواب لم تكن من الجند بل من
حرس المجلس وانما الحكومة المستعينة بفرنسا هي التي فعلته •

٤ - علل دوام الثورة الفرنسية

لو اقتصر دوام الثورة الفرنسية على الوقت اللازم لنيل ما
سعت اليه من المبادئ كالمساواة أمام القانون والسلطة الشعبية
ومراقبة النفقات لما تجاوز بضعة اشهر ، لان جميع ذلك نيل عام ١٧٨٩
ولم يضاف اليه مبدأ آخر ، والحق ان تلك الثورة استمرت طويلاً
فاذا اكتفينا بالمدة التي عينها المؤرخون الرسميون نرى انها دامت

حتى يوم ارتقاء بونا برت اي ما يقرب من عشر سنين .
ولماذا بقي دور الهرج والاضطهاد اكثر من الزمن الضروري
لإقامة المبادئ الجديدة ؟ ينبغي ان لا يبحث عن ذلك في الحروب
مع الدول الأجنبية لان هذه الحروب كانت تنتهي بسرعة لانقسام
الحلفاء وانتصار فرنسا عليها كما انه ينبغي ألا يبحث عنها في محبة أبناء
فرنسا للحكومة الثورية إذ لم يوجد نظام مقتله الناس وأبعضوه مثل
نظام المجالس ، وقد اعرب فريق كبير من الأمة عن سخطه عليه بما
قام به من العصيان وبما أتى به من التصويت المكرر ضده ،

اوضح المتأخرون من المؤرخين كراهة فرنسا للنظام الثوري
بعد ان ظل امرها مجهولاً زمناً طويلاً ولخصت آراؤهم في العبارة
الآتية التي تقتطفها من مؤلف جديد للموسيو مادلان بحث فيه عن
الثورة الفرنسية :

« قبض على زمام فرنسا والثورة والجمهورية فئة قليلة العدد فصارت ثلاثة ارباع
البلاد تمنى ان تنتهي الثورة وان تنتهذ من ايدي هذه الفئة المكروهة ، إلا أنها
ظلت على رأس الأمة التعيسة بما نذرعت به من ألوف الحيل والوسائل . ولما صار
بقاؤها حاكمة لا يتم الا بالارهاب أخذت تقضي على من تظن انه مخالف لها ولو
كان من اشد خدمة الثورة الفرنسية اخلاصاً » .

ان اليعاقبة هم الذين قاموا بامور الحكم حتى آخر عهد حكومة
الديراكتور وقد كانت غايتهم الوحيدة حينئذ ان يحافظوا - مع

السلطة — على ما جمعه من المال بما فعلوه من النهب وسفك الدماء
والذي جعلهم يفوضون نابليون على اسقاط المجلس النيابي هو إقراره
لهم على تلك المنية التي لم يعترف لهم بها لويس الثامن عشر .
ولكن كيف استطاعت حكومة شديدة الاستبداد ثقيلة الوطأة
مثل تلك الحكومة ان تبقى اعواماً كثيرة ؟ لم يتم هذا البقاء بتأثير
الديانة الثورية في النفوس والزام الناس بذلك الحكيم ظلماً وعدواناً
فقط بل — كما بينت سابقاً — لما في استمرار الحكيم المذكور من انتفاع
جزء غير يسير من الشعب ، وهذا رأي اساسي اذ لو بقيت الثورة
الفرنساوية ديانة نظرية لما دامت طويلاً على ما يحتمل ، لم تلبث
هذه الديانة ان خرجت من طورها النظري المطلق فبعد ان جردت
تلك الثورة الملك والاشراف والاكليروس عن سلطتهم منحت
ابناء الطبقة الوسطى وكثيراً من الفلاحين ما كانت الطبقات الممتازة
السابقة مستولية عليه من الوظائف والاموال وجعلتهم بذلك من
اعظم انصارها ، ولما نال جميع من حصلوا على اموال الاشراف
والاكليروس اطمئناً وقصوراً بالجنس الاثمان صاروا يخشون انتزاعها
منهم اذا اعيدت الملكية .

لهذه الاسباب استطاعت تلك الحكومة ان تبقى حتى ظهور قائد
قادر على ارجاع النظام وعدها باقرار ما نشأ عن الثورة الفرنسية

من المكاسب الادبية والمادية .

استقبل بونابرت الذي حقق هذه الاماني بحماسة وقد ادخل تلك المكاسب المادية والادبية في قوانين واناظيم ، ولذلك فان من الخطأ ان يقال بان الثورة الفرنسية انتهت بارتقائه فهو لم يقض عليها بل ثبت امرها .



الفصل الثاني

اعادة النظام - الجمهورية القنصلية

١ - كيف ثبتت القنصلية أمر الثورة الفرنسية

ان تاريخ القنصلية حافل بالوثائق النفسية إذ ثبت لنا أولاً كيف ان عمل الفرد القوي افضل من عمل الجموع . فقد احل بونابرت النظام على الفور مكان الفوضى الدامية التي سادت على الجمهورية منذ عشر سنين وأتم وحده في وقت قصير ما لم تستطع انجازته مجالس الثورة الفرنسية الاربعة رغم ما آتت به من الاستبداد والاضطهاد .

لم يلبث بونابرت ان قضى بعزمه على جميع الهوشات الباريزية وعلى كل تدبير يرمي الى إعادة الملكية فأرجع الى فرنسا التي فرقها الاحقاد والضغائن وحدتها الادبية ، أقام استبداداً فردياً منظماً مقام استبداد الجماعات المشوش فرج الكل من ذلك لان بغيه اخف وطأة من البغي السابق وما استوجبه من العطف في قلوب الناس دليل واضح على قلة شدته .

ولانجاري المؤرخين السابقين في القول بان بونابرت قوض ار كان الجمهورية فقد ابقى منها ما يمكن حفظه وثبت في الانظمة والقوانين اهم المبادي الثورية كالغاء الامتيازات والمساواة امام القانون الخ ، ثم ان الحكومة القنصلية كانت تسمي نفسها بالجمهورية .
ويحتمل انه لولا القنصلية لقامت مكان الديركتوار حكومة ملكية ومحت اكثر مبادي الثورة الفرنسية ، فلنفرض ان بونابرت لم يلعب دوراً تاريخياً فان مؤامرة ملكية تقلب حكومه الديركتوار التي يفتها الناس لامحالة ويصعد على العرش لويس الثامن عشر ، نعم جالس هذا الملك عليه بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ ولكن نابليون قد منح في اثناء ذلك المبادي الثورية - بادخالها في العوائد والقوانين - قوة عظيمة جعلت ذلك الملك العائد ان لا يجرأ على مسها وعلى ارجاع اموال المهاجرين .

يكون الامر خلاف ذلك لو قبض لويس الثامن عشر على زمام الدولة بعد الديركتوار حالا اذ كان يعيد معه استبداد العهد السابق ويجعل الناس يقومون بثورات جديدة للقضاء عليه، وما اسقاط شارل العاشر لسعيه في الرجوع الى النظام السابق بأمر مجهول .
ومن البساطة ان يغضب المرء على استبداد بونا بارت فقد تحمل الناس أنواع الاستبداد في العهد السابق ووضعت الحكومة الجمهورية على رقابهم نيراً استبدادياً أشد واقسى، وليس الاستبداد وقتئذ سوى أمر اعتيادي لا يحتجون عليه الا اذا قام مع القوضى اذ يحشون حينئذ عن سيد قادر على اخادها وقد كان بونا بارت ذلك السيد .

٢ - تنظيم فرنسا في العهد القنصلي

اخذ بونا بارت على عاتقه عبئاً ثقيلاً بتقلده امور الدولة لأن كل شيء كان محتاجاً الى الاصلاح والتجديد، فبعد أن اسقط المجلس النيابي سن في شهر واحد دستوراً نحولاً اياه سلطة كافية لينظم بها البلاد والوظائف . ظل هذا الدستور - المسمى بدستور السنة الثامنة - معمولاً به حتى آخر ايام نابليون وقد نص على وجود سلطة تنفيذية يقوم بأمورها ثلاثة قناصل على ان يكون رأي اثنين منهم استشارياً ورأي القنصل الاول - اي بونا بارت - نافذاً، سوغ الدستور بونا بارت حتى نصب الوزراء واعضاء مجلس الشورى والسفراء والقضاة

والموظفين والبت في أمر الحرب والسلام وأناط به السلطة التشريعية
 حصره في يده أمر اقتراح القوانين امام المجالس الثلاثة اي مجلس
 الشورى ومجلس (التريونا) والمجلس التشريعي ولم يمنح مجلس
 الشيوخ سوى واجب المحافظة على الدستور .

كان بونابارت رغم استبداده يستشير قبل ان يحزم في الامر
 ولا يوقع على مرسوم قبل ان يباحث مجلس الشورى - الذي هو
 رئيسه - فيه وكان هذا المجلس الماركب من العلماء يبي القوانين ثم
 يعرضها على المجلس التشريعي ليبيدي رأيه فيها بحرية تامة، وثق
 نابليون بهذا المجلس وثوقاً تاماً لاشتماله على فقهاء افاضل لا ينطقون
 بشيء الا عن علم، غير انه كان سي الظن بالمجالس الشعبية الكبيرة
 التي ظهرت عيوبها المشؤمة في جميع ايام الثورة الفرنسية .

أراد بونابارت ان يحكم الامة من غير ان يستمد معونة منها
 ولذلك لم يجعل لها نصيباً في الحكم اللهم الا مرة واحدة عرض فيها
 الدستور الجديد ليستفتيها فيه وما رجع الى التصويت العام الا في
 ظروف نادرة ولم يكن اعضاء المجلس التشريعي نواباً عن الامة
 لا تخليهم انفسهم مباشرة .

وعند ما سن الفصل الاول الدستور الذي عزز فيه مركزه
 لم يتخيل انه سينفع في تجديد البلاد وكان اثناء وضعه كادحا من جهة

أخرى في تنظيم أمور الإدارة والمالية والقضاء فربط جميع سلطات الدولة بباريس ثم جعل على رأس كل ولاية واليا ومجلساً عاماً مساعداً لهذا الوالي وعلى رأس كل لواء متصرفاً ومجلساً إدارياً مساعداً لهذا المتصرف وعلى رأس كل كورة رئيساً ومجلساً بلدياً إدارياً مساعداً لهذا الرئيس، وجعل أمر تعيين الجميع حقاً من حقوق وزرائه لآمن حقوق الشعب كما في الدور الجمهوري .

سارت جميع المنظمات على هذا العمل المركزي الذي لا يزال باقياً حتى الآن لأن المركزية - رغم محاذيرها البينة - هي الطريقة الوحيدة التي يجتنب بها الاستبداد المحلي في بلاد منقسمة كفرنسا، وقد أوجب ذلك التنظيم الصادر عن إطلاع تام على النفسية الفرنسية وراحة وطمأنينة لم يكن للبلاد عهد بهما منذ زمن طويل .

الغيت أحكام الإعدام وأعيدت الكنائس للمؤمنين تهتدت للخواطير ثم شرع بونابارت في وضع قانون مدني مستعار أكثره من عادات العهد السابق، فوفق فيه - كما قيل - بين الشرع الحديث والشرع القديم .

وما أتى به الفصل الأول من العمل الجليل في وقت قصير يدلنا على سرعته في بادي الأمر إلى وضع دستور مخول إياه سلطاناً مطلقاً، ولو عهد بانجاز ما أصاح به بونابارت فرنسا من الأعمال إلى

مجالس مؤلفة من المحامين لما تخلصت من الفوضى .
لا شك في ان دستور السنة الثامنة حول الجمهورية الفرنسية
الى ملكية مطلقة ولكن بما ان الملكية وحدها هي الملازمة لمقتضيات
ذلك الزمان فقد دلت على احتياج الناس اليها احتياجاً نفسياً .

٣ - في العوامل النفسية التي أوجبت نجاح القنصلية

لا تلبث العوامل الخارجية المؤثرة على الانسان كالعوامل
الاقتصادية والتاريخية والجغرافية ان تتحول الى عوامل نفسية. ومن
يرد أن يحكم فعليه ان يعلم بها وقد جهلتها جميع المجالس الثورية واطلع
عليها بونابارت .

كانت المجالس - ولا سيما مجلس العهد - مركبة من احزاب
متطاحنة فأدرك نابليون ان تغلبه عليها يتطلب ان لا ينتسب الى احد
منها ، ولما ايقن ان قيمة الامة بما في احزابها من ارباب العقول السامية
سعى في الارتفاع بجميعها فعين الوزراء والولاة والقضاة من حزب
الاحرار والحزب الملكي والحزب اليعقوبي ناظرأ - بدون محاباة -
الى كفائتهم وحدها .

ومع انه لم يرفض مساعدة رجال الدور السابق فانه كان يود
ان يعزب عن ميله الى المحافظة على مبادئ الثورة الفرنسية. وهذا
لم يمنع الملكيين من الانضمام الى النظام الجديد .

ونعد من الجهة النفسية ان اعادة السلم الديني من اهم الاعمال
القنصلية ، إذ كان انقسام فرنسا لاختلافها الديني اشد من انقسامها
لاختلافها السياسي ، نعم قضي على انشقاق مقاطعة (فانده) بتخريب
جزء منها ولكن ذلك لم يحمد ثوران النفوس ، ولما احس بونا بارت
بأن امر تهديد تهديد البابا لم يتأخر ساعة عن مفاوضته ، حقاً المعاهدة
التي عقدها معه لعمل نفسي عظيم لان القوى الادبية لا تقاوم بالعنف
وتؤدي مكافئها الى اخطار كبيرة وقد علم نابليون بمداراته الكهنة
كيف يملكهم وهو يجعله امر تعيينهم وعزلهم من حقوقه بقي سيدهم .
للميثاق البابوي الذي جاء به نابليون مقصد خفي على يعاقبة
الوقت الحاضر ، وقد اوجب إعلاء التعصب بصائرهم عدم ادراكهم
ان فصل الكنيسة عن الحكومة مؤد الى تكوين دولة ضمن دولة
وانهم سيرون انفسهم ازاء طائفة رهيبة يديرها قائد مقيم خارج
فرنسا وعدولها حتما . ان منح الاعداء حرية لا عهد لهم بمثلها لأمر
عظيم الخطر ولذلك لم يرض نابليون ولا ملوك الكاثوليك الذين
ظهروا قبله بان يفصلوا الاكليروس عن الحكومة كما وقع في الايام
الاخيرة .

وما لقيه بونا بارت من المضاعب وهو قنصل اول أشد مما لقيه
بعد تنويجه وقد ذلها بمعرفته الرجال معرفة تامة ، كان عليه ان يعمل

كثيراً قبل ان ينال التاج إذ بقي عدد غير يسير من المديريات مستمراً على الفتنة وظل الاشقياء مثابرين على قطع الطرق وخرّبت حرب العصابات البلاد الجنوبية وكان عليه ان يداري تاليران وفوشيه وقواداً آخرين يحسبون انفسهم من امثاله، سوى نابليون هذه العقبات قبل جلوسه على العرش فصار امبراطوراً ولم ير في البلاد احزاباً امامه وان كانت كثيرة ايام قنصليته وكان عليه ان يوازن بينها .

قام بأعمال شاقة لم تأت بمثلاً سوى حكومات قليلة منذ قرن ولا يتم النجاح بمثلها الا بكياسة وعزم وسياسة ، فلما شعر بوناپارت بأنه ليس ذا قدرة كافية سار على القاعدة القائلة بحكم الناس كما تريد الاكثرية ولكنه عندما صار امبراطوراً اخذ يحكمهم على هواه .

تقدم العهد الذي سخط فيه المؤرخون العمي والشعراء على اسقاط المجلس النيابي وقد بينا ان الحكومة لم تأتمر به وحدها بل ائتمرت به فرنسا التي حررها ذلك الاسقاط من الفوضى وهناتساءل لماذا أتى اذكاء العلماء باحكام غير صحيحة في دور تاريخي واضح مثل الدور المذكور ؟ لا ريب في ان علة ذلك هو نظرهم الى الحوادث من خلال عقائدهم ، وبما ان الحقيقة تتبدل في نفوس المعتقدين فان اكثر الامور وضوحاً تغيب عنهم ولا يكون تاريخ الحوادث عندهم سوى ما يمليه الخيال عليهم .

وإذا اراد العالم النفسي ان يطلع على سر ذلك الدور الذي وصفناه بايجاز فانه لا نستطيع ذلك الا إذا طرح التخرّب جانباً وتحرّر من قيود العواطف الحزبية، هنالك لا يرمي بسهام اللوم ماضياً نشأ عن مقتضيات الزمن المهيمنة، وهذا لا يمنعنا من القول بان نابليون كلف فرنسا ثمناً غالياً لانهاء قصته بغارتين اغارهما الاجنبي عليها . ولغارة ثالثة اوجبها صعود وارتث اسمه على العرش ولا نزال نقاسي شدتها . ان لتلك الحوادث ارتباطاً بمصادرها وهي تدل على ما ينشأ عن تبديل مثل الامة الاعلى من النتائج فالانسان لا يقدر عن الانسلاخ بقعة من ماضيه الا بتخریب مجرى تاريخه تخریباً تاماً .



الفصل الثالث

فيما نشأ عن تصادم التقاليد والمبادئ الثورية

في عصر واحد من النتائج السياسية

١ - في الاسباب النفسية التي أدت الى استمرار

الحركات الثورية في فرنسا

سنرى في البحث الآتي عن تطور المبادئ الثورية منذ عصرانها

انتشرت بين طبقات الامة مقداراً فقد اراً في . مدة خمسين سنة .

رفضتها اكثرية الشعب والطبقة الوسطى طول هذه المدة ولم يقيم

بأسر اذاعتها غير عدد قليل من الدعاة ، الا ان مالها من نفوذ وما فعلته الحكومات من الاغلاط كفى في إيقاد ثورات كثيرة سوف نأخصها بعد ان نبحت عن علمها النفسية .

يثبت تاريخ ما وقع منذ قرن من الانقلابات السياسية ان الناس محكومون بنفسيتهم اكثر من الانظمة التي يلزمون بها فالثورات الكثيرة التي حدثت في فرنسا هي نتيجة نزاع بين حزبي الامة ذوي النفسيتين المتباينتين اللتين احديهما دينية ملكية قائمة على تأثير إرثي والثانية ذات صبغة ثورية تابعة لهذا التأثير ايضا . ظهر النزاع منذ بداية الثورة الفرنسية بين تلكما النفسيتين المتباينتين ظهوراً واضحاً واستمرت الفتن والمؤامرات حتى نهاية دور الدير كتوار رغم ما اتى به من الاضطهاد كما بينا سابقا فقامت ستون مديرية في وجه النظام الجديد ولم تخمد جذوتها الا بمذابح هائلة مكررة .

ان التوفيق بين النظام السابق والمبادئ الجديدة هو اشد ما عانى بونا بارت حله من المشاكل إذ كان يبحث عن انظمة ملائمة للنفسيتين الفاصلتين لفرنسا ، وقد نجح بذلك لا لثرا مه جانب التوفيق ولتسميته اموراً قديمة باسماء جديدة .

ويعد دور نابليون من ادوارنا التاريخية النادرة التي كملت فيها وحدة فرنسا النفسية ، ولكن هذه الوحدة لم تستمر بعد سقوطه إذ

الاحزاب السابقة لم تلبث ان ظهرت ثانية ولا تزال باقية حتى اليوم
وبعضها متمسك باهداب التقاليد والبعض الآخر رافض لها .

واو وقع ذلك الصراع بين معتقدين واخلاء لما دام طويلاً
لتسامح الاخلاء ولكن حدوثه بين معتقدات متباينة اوجب استمراره
فالكنيسة الزمنية لم تلبث ان لبست ثوبا دينياً واصبح مذهبها العقلي
نوعاً من الكهنوتية الضيقة وقد حققنا ان التوفيق بين المعتقدات الدينية
المتباينة امر مستحيل فلم يظهر الكهنة يوم كان الحكم بيدهم بمظهر
المتسامح مع الاحرار كما ان هؤلاء لم يبدووا اقل تساهل مع اولئك بعد
ان قبضوا على زمام الامور .

ويضاف الى تلك التقسيمات القائمة على ما بين المعتقدات من
الفروق تقسيمات اخرى قائمة على مبادئ سياسية مشتقة من المعتقدات
المذكورة .

ظن كثير من ارباب النفوس البسيطة ان السنة الاولى للجمهورية
هي مبدأ تاريخ فرنسا الحديثة غير ان هذا الفكر الصياني اخذ يتضاءل
في هذه الايام فاشد الثوريين تمسكاً يعدلون عنه " معترفين بان
تأثير الماضي هو خلاف تأثير ذلك الدور البربري القائم الذي
استحوذت عليه الاباطيل

(١) يمكن الاستدلال على تطور الافكار الجديد في هذه المسئلة من العبارة

وقد سهل تباعض المعتقدين في كل حزب قلب الحكومات والوزارات عندنا ، ولاتأبى احزابنا التي تبقى اقلية في المجلس النيابي ان تتحالف ضد الحزب الغالب ، فمن الامور المعلومة ان عدداً كبيراً من الاشتراكيين الثوريين في مجلس نوابنا الحاضر لم ينتخبوا الا بمعونة الملكيين الذين ليسوا بأوسع حيلة من الملكيين ايام الثورة الفرنسية الكبرى .

ولم تكن اختلافاتنا الدينية والسياسية وحدها سبب ما هو واقع في فرنسا من الشقاق بل يوجد سبب آخر وهو اتصاف رجالها بنفسية خاصة سميناها بالنفسية الثورية في فصل سابق حيث بينا انه يظهر في كل دور رجال مستعدون للقيام في وجه اي نظام واقع ولو كان محققاً لامالهم .

ويزيد ما عند احزاب فرنسا من عدم التسامح ومن الشوق الى القبض على زمام الحكم اعتقادها السائد بينها منذ الثورة الكبرى بان القوانين تجدد المجتمعات ، فالجموع تنظر مع زعمائها في الوقت الحاضر الى الحكومة — ايأ كان رئيسها — ذات قدرة لاهوتية مثل

الآتية التي اقتطفناها من خطاب القاه المسيو جوريس في مجلس النواب : « ان عظمة الحاضر هي نتيجة لمجبودات عصور الماضي وليست فرنسا الحديثة بنت يوم او دور بل بنت ايام وأدوار وغدو وعشي »

القدرة التي تقمصها الملوك في العهد السابق ، ولم يكن الشعب وحده
وثقاً بما عند الحكومة من السلطان العظيم بل يوجد عند مشرعينا
نظير تلك الثقة .

لم يفقه رجال السياسة عندنا بعد ان الانظمة معلولات لا عال
وانه لا قوة في ذاتها فافهم لما كانوا وارثين لذلك الوهم الثوري
الكبير لا يرون ان الانسان هو ابن ماض لا تقدر على تجديد
قواعده ابداً .

لا ريب في ان الصراع الواقع بين المبادي التي فرقت فرنسا
منذ عصر سيستمر ولا يقدر احد على كشف ما قد يولده من
الانقلابات ، نعم لو علم اهل أثينا قبل الميلاد بان افراقهم سيؤدي
الى استعباد بلاد اليونان لما أتوا به ولكن انى لهم كشف ذلك ؟ قال
المسيو غيرو : *J. Guiraud*

« قلما يبالي جيل بما يعمل وهو وان كان يهيئ المستقبل بعمله فان المستقبل
لا يكون في الغالب الا خلاف ما يريد » .

٢- خلاصة الحركات الثورية التي وقعت في فرنسا

منذ عصر

اوضحنا ما للحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ عصر
من العلل النفسية والان نلخص تاريخ تلك الثورات :

لما قهر الملوك نابليون ارجعوا فرنسا الى حدودها السابقة واجلسوا
لويس الثامن عشر على العرش فنشر هذا الملك الجديد مرسوماً قال
فيه بانه يرضى ان يكون ملكاً دستورياً وان يكون نظام البلاد نيابياً،
ثم اعترف بجميع ما ولدته الثورة الفرنسية من قانون مدني
ومساواة أمام القانون وحرية للعبادة وعدم استرداد الاموال الوطنية
الحل الا انه حصر حق التصويت بمن يدفع ضريبة معينة .

ناهض الملكيون المتطرفون في المجلس هذا الدستور الحر
فارادوا إعادة الاموال الوطنية والامتيازات السابقة ، ولكن لما نشر
لويس الثامن عشر بان تنفيذ هذا العمل الرجعي يشغل ثورة جديدة
اكتفى بفض المجلس النيابي ثم أدت الانتخابات الجديدة الى تعيين نواب
معتدلين فاستطاع الملك ان يثابر على الحكم بتلك المبادئ عالماً ان
ارجاع سكان فرنسا الى قواعد العهد السابق يدفعهم الى العصيان .
ومن دواعي الاسف ان تبوأ العرش بعد وفاته عام ١٨٢٤ شارل
العاشر ، ولما كان هذا الملك محدود العقل عاجزاً عن إدراك ما طرأ
على العالم من التبدل مفتخراً بعدم تغيير افكاره منذ سنة ١٧٨٩ فانه
أعد سلسلة من القوانين الرجعية كتعويض المهاجرين بمليار وإعادة
حق البكرية وامتياز الاكليروس الحل . عارضت اكثرية النواب
ذلك فوضع الملك عام ١٨٣٠ مراسيم حل فيها مجلس النواب وألغى

حرية الصحافة وهيء أمر الرجوع الى نظام العهد السابق فأوجب هذا العمل الاستبدادي تحالف رؤساء جميع الاحزاب فاتفق الجمهوريون والبونابرتيون واحرار الملكيين على ايقاد نار الفتنة في باريس ولم تمض اربعة ايام على نشر تلك المراسيم حتى استولى العصاة على العاصمة وفر شارل العاشر نحو انكلترا، ثم دعى زعماء الفتنة - كتيار وقازيمير بيريه ولافايت - لويس فليب الذي لا عام للشعب بوجوده الى باريس ونادوا به ملكا للفرنساويين .

استند هذا الملك في توطيد دعائم ملكه الى الطبقة الوسطى فوضع قانونا خفض فيه عدد المنتخبين الى مئتي الف وهذا ما اوجب انتخاب نواب من تلك الطبقة موالين للحكومة الجديدة .

وُجد لويس فليب في موقف حرج إذ كان عليه ان يقاوم في آن واحد انصار هنري الخامس حفيد شارل العاشر والبونابرتيين الذين اعترفوا بلويس نابليون رئيسا عليهم والجمهوريين، وقد احدث هؤلاء (من عام ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠) بما لهم من الجمعيات الخفية المشابهة لأندية الثورة الفرنسية فتننا كثيرة وان سهل قمع جميعها، ولم ينصرف انصار هنري الخامس والكنهة عن دسائسهم فحاولت امه ايقاد نار الثورة في مقاطعة (فانده) ولكنها لم تنجح بذلك وصارت مطالب الاكايروس من التشدد بحيث نشأ عنهما عصيان خربت في

اثناؤه اسقفية باريس •

لم يكن الجمهوريون مجزب شديد الخطر لا تتفاق المجلس النيابي مع الملك على مناهضتهم وقد صرح الوزير (كيزو) بأنه يوجد شيان لازمان للحكم وهما « العقل والمدفع » ولا شك ان شيئاً من الوهم تطرق لهذا السياسي الخطير حيث نسب الى العقل ما للمدفع من التأثير •

ولم يكف الجمهوريون ولا سيما الاشتراكيون رغم وجود تلك « الحكومة القوية » - التي لم تكن في الواقع من القوة على شيء - عن المشاغبة فقد سعى (لويس بلان) احد النافذين منهم لالزام الحكومة بايجاد عمل لجميع ابناء الوطن وعلى اثر ذلك انضم الحزب الكاثوليكي وعلى رأسه لاكوردير ومونتالامير الى الاشتراكيين لمقاتلة الحكومة ، وقد أدت حملة الاصلاح الانتخابي عام ١٨٤٨ الى نشوب فتنة جديدة اسقطت لويس فيليب بغتة •

والعلل التي يبرر بها اسقاط هذا الملك اقل من علل اسقاط شارل العاشر كثيراً ، نعم كان لويس فيليب سيئ الظن بالتصويت العام ولكن حكومات الثورة الفرنسية ايضاً اساءت الظن به مرات عديدة . وبما ان حكومة لويس فيليب ليست مطلقة كحكومة الديراكتوار فانها لا تقدم على نقض ما لا يروق في عينها من الانتخابات

لوثم امر التصويت العام .

قامت في دائرة البلدية حكومة مؤقتة لتدير دقة الأمور مكان الملك المخلوع فنادت بالجمهورية وقررت التصويت العام وامرت ان يباشر الشعب انتخاب جمعية وطنية مركبة من تسع مئة عضو . صارت هذه الحكومة منذ البداية هدفاً لدعاية الاشتراكية ولهوشات عديدة فوقعت امور نفسية مثل التي حدثت ايام الثورة الكبرى اي تأسست أندية يسوق زعمائها الشعب من وقت الى آخر على الجمعية الوطنية لاسباب يرفضها العقل الرشيد كما كراه الحكومة على معاضدة عصيان اشتعل في بولونيا .

وانشأت الجمعية المذكورة إرضاء للاشترائيين الذين كانوا يقترحون كل يوم مقترحاً جديداً مصانع وطنية ليقوم فيها العمال باعمال متنوعة ، ضمت هذه المصانع مئة الف عامل كانت الحكومة تنفق عليهم كل يوم مليوناً الا ان طلبهم ان يعطوا رواتب من دون ان يأتوا بشغل جعل تلك الجمعية تقرر اغلاق ما اسسته من المصانع نشأ عن هذا القرار عصيان هائل فرفع خمسون الف عامل راية العصيان وبما ان الفرع استولى على الجمعية الوطنية فانها عهدت بالسلطة التنفيذية الى الجنرال (كافينيك) وقد أدت المعركة التي وقعت بين الحكومة والعصاة الى قتل ثلاثة قواد ، وقبل مطران

رئيس ثم أمرت الجمعية المذكورة بإبعاد ثلاثة آلاف سجين إلى بلاد
الجزائر .

ولم يلبث الفلاحون الذين ظنوا بأن خطر الاشتراكية والطبقة
الوسطى محقق بهم أن انقلبوا على النظام الجمهوري ولكن لما وعدهم
لويس نابليون بإعادة النظام استقبلوه بحماسة وعند ما رشح نفسه
لرئاسة الجمهورية انتخب بخمسة ملايين ونصف مليون صوت .

وسرعان ما وقع الخلاف بين الجمعية الوطنية وبين الأمير
المذكور فاسقطها هذا الأخير وقبض على ثلاثين ألف رجل ونفى
عشرة آلاف رجل وطرد من البلاد مئة نائب . رضيت الأمة بذلك
الاسقاط إذ لما استقيت فيه استحسنته سبعة ملايين ونصف مليون
مصري من بين ثمانية ملايين نسمة ثم صار امبراطوراً بأكثرية أكبر
من تلك في ٢ كانون الأول عام ١٨٥٢ والسبب في إعادة النظام
الامبراطوري هو مقت الناس في فرنسا للمشاعين والاشتراكيين .
كان نظام الامبراطورية استبدادياً في العقد الأول فاصبح
دستورياً في العقد الثاني وقد اسقطت ثورة ٤ ايلول سنة ١٨٧٠
ذلك الامبراطور على اثر تسليمه مدينة (سيدان) بعد ان حكم ثمانية
عشر عاماً .

وندر بعد هذا التاريخ وقوع قن ثورية ونعد أهم فتنة اشتملت

منذ ذلك الحين فتنة شهر مارس سنة ١٨٧١ التي نشأ عنها حرق قسم من مباني باريس الفخمة وقتل عشرين ألف داص .

ولم يعلم المنتخبون بعد ما نال البلاد من المصائب الكثيرة في حرب ١٨٧٠ شطر من بولون وجهتهم فارساوا الى المجلس التأسيسي نوابا اكثرهم من البوربونيين والاورليانيين . ولما لم يتفق هؤلاء النواب على ارجاع النظام الملكي اتخبوا (تيار) رئيسا للجمهورية ثم اقاموا مكانه المرشال (مكماهون) وقد جددت الانتخابات عام ١٨٧٦ فاز الجمهوريون الاكثرية كما حازوها في جميع الانتخابات المقبلة .

تجزأت مجالسنا النيابية بعد التاريخ المذكور الى احزاب كثيرة فأوجب ذلك سقوط وزارات عديدة ، على ان ما وقع بين تلك الاحزاب من الموازنة متع البلاد بسكينة نسبية ولم ينشأ عن اسقاط اربعة رؤساء للجمهورية اشتعال ثورة او هوشة ، نعم ان الفتنة الشعبية التي حدثت عام ١٨٨٨ اوشكت ان تقضي على النظام الجمهوري كي يقبض الجنرال (بولانجيه) على زمام الحكم ولكن مقاومة هذا النظام أدى الى تغلبه على جميع الاحزاب المخالفة .

يوجد لبقاء النظام الجمهوري الحاضر في فرنسا اسباب عديدة اولها : كون الاحزاب المتطاحنة ليست من القوة بحيث يستطيع واحد

منها ان يسحق الآخرين ، ثانياً انه لما كان رئيس الدولة صورة لا سلطة بيدها فانه لا يمكن ان نعزو السيآت التي تقاسي نتائجها اليه وان ندعي بان الامور تتبدل باسقاطه ، ثالثاً انه لما توزعت السلطة بين الوف من الموظفين وتجزأت التبعة فان من الصعب كشف من يجب لومه ، لربما يمكن اسقاط مستبد ولكن كيف يتسنى اسقاط الوف من المستبدين الخافين ؟

يمكن تلخيص ما اوجبه الفتن والثورات من التحولات في فرنسا بالكلمة الآتية وهي : انها اقامت مكان الاستبداد الفردي الذي يسهل القضاء عليه استبداداً جموعياً قوياً يصعب تقويضه ،

ويظهر لنا ان الامم الطامعة بالمساواة والمعتادة ان تؤاخذ حكوماتها على جميع الحوادث لا تطبق الاستبداد الفردي وانما تحمل استبداد الجموع وان كان اشد واقسى .

وبما ان جميع ثوراتنا لم تؤد الا الى قيام استبداد جموعي وتقويته فانه يمكن اعتبار هذا الاستبداد مثل العرق اللاتيني الاعلى ، حقاً انه نظام الامم اللاتينية الصحيح وهو الذي وقع عليه الاجماع وما الجمهورية والملكية والامبراطورية الإعناوين باطلة واشباح ماثلة .

الجزء الثالث

تطور المبادئ الثورية في الوقت الحاضر

الفصل الاول

تقدم العقائد الديمقراطية منذ الثورة الفرنسية

١ - انتشار المبادئ الديمقراطية البطيء

بعد الثورة الفرنسية

تشاب المبادئ التي ساغتها النفوس على تأثيرها احياناً طويلة ، ولم تشذ المبادئ التي اعلنتها الثورة الفرنسية عن هذا الناموس . كان دوام تلك الثورة حكومة قصيرة جداً ولكن تأثير مبادئها طال كثيراً لان هذه المبادئ لما اصبحت معتقداً ذا صبغة دينية حولت وجهة مشاعر كثير من الاجيال وافكارهم تحويلاً اساسياً . استمرت الثورة المذكورة ولا تزال مستمرة برغم بضع فترات وقعت ، اذ لم يقتصر تأثير نابليون على قلب العالم وتغيير خارطة اوربا وتجديد اعمال الاسكندر فحسب بل كان لحقوق الشعوب الجديدة التي كونتها ثورتنا الكبرى وبثمتها نابليون في انظيم وقوانين تأثير عظيم في كل مكان ، ومع ان اعمال هذا الفاتح الحرية لم تلبث

ان اخفقت فان المباديء الثورية التي أعان على انتشارها عاشت

بعده •

وما وقع بعد الدور الامبراطوري من الحوادث التي ادت الى إقامة الملكية انسى الناس في بادئ الامر شيئاً من مباديء الثورة الفرنسية وقد رأينا ان انتشار هذه المباديء كان بعد تلك الحوادث يقع على مهل حتى جاز لنا ان نقول بان الشعب اضاع ذكرها ولم تترك أثراً الا في نفوس عدد يسير من النظريين، وبما ان هؤلاء وارثون لنفسية العاقبة البسيطة معتقدون بان القوانين تحدد المجتمعات قانعون بان الامبراطورية قطعت عمل الثورة فانهم ارادوا استئناف هذا العمل •

اخذوا يذيعون مبادئهم بما يكتبونه حتى يتمكنوا من ذلك الاستئناف وقد نشأ عن تقليد رجال تلك الثورة عدم بحسبهم عما اذا كانت خططهم الاصلاحية ملائمة لطبيعة البشر ام لا، وهما هم اقاموا مثل اولئك الرجال مجتمعاً وهميائين بان تطبيق احلامهم يحدد النوع الانساني •

والنظريون في كل جيل وان لم يقدرُوا على البناء فقد اثبتوا انهم على التخریب من التمارين، قال نابليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة : •

« لو وجدت ملكية من الصوان لاستطاع النظريون ان يحولوها الى غبار »
ونرى بين هؤلاء الخياليين - كسان سيمون وفورييه و بترس
ليرو ولويس بلان و كينيه - ان (اوغوست كونت) وحده هو
الذي ادرك انه يجب ان يقع تطور الافكار والعادات قبل التنظيم

السياسي .

لا تجبذ خطط النظريين الاصلاحية في الوقت الحاضر ذبوع
المبادي الديموقراطية بل تعيق سيرها اذ ليس للشوعية نتيجة سوى
تخويف ارباب المال والطبقات العاملة ، وقد رأينا في الفصل السابق
ان الخوف منها كان عاملاً اساسياً في إعادة النظام الامبراطوري .
ومع ان ما افه كتاب النصف الاول من القرن التاسع عشر لا
يستحق ان يجادل فيه فان من المفيد النظر اليه لاثباته ما للمبادي
الدينية والادبية المزدرة الآن من الشأن في ذلك الوقت ، فالمصلحون
قد سعوا دائماً في الاتيان بمعتقدات دينية ادبية لعلمهم ان المجتمع
الجديد لا يقوم بدونها .

والى ماذا يستندون في تكوين تلك المعتقدات ؟ الى العقل ، إذ
طالما يتم صنع الآلات المعقدة بالعقل فلم لا يستعينون به في إيجاد
معتقدات دينية او اخلاقية ؟ لم يخطر على قلب احد منهم ان المعتقدات
المذكورة لا تقوم على اساس عقلي ابداً حتى ان ذلك خفي على

(اوغوست كونت) ذاته ، وقد اسس هذا الاخير ديناً وضعياً لم
يعتقه سوى بضعة اشخاص حتى الآن ويأسر هذا الدين بتعيين كهنة
يديرهم جبر جديد غير الجبر الاعظم للمذهب الكاثوليكي .
لم ينشأ عن جميع هذه الافكار السياسية والدينية والاخلاقية
غير تحويل وجهة الجموع عن المبادئ الديموقراطية ، على ان المبادئ
المذكورة آخذة في الانتشار السريع لا بتأثير النظريين بل بتأثير
طرق الحياة الجديدة ، فقد اوجبت مكتشفات العلم تقدم الصناعة
وتأسيس مصانع عظيمة ولما تغلبت مقتضيات الاقتصاد على عزائم
الحكومات والشعوب شيئاً فشيئاً فانها فسحت المجال لذيوع المذهب
الاشتراكي ولا سيما المذهب النقابي اي اظهري الافكار الديموقراطية
في الوقت الحاضر .

٢ - في ما لمبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة

من النصيب المتفاوت

صه لهن

يمكن اجمال ميراث الثورة الفرنسية بثلاثة الفاظ : الحرية
والمساواة والاخاء وقد رأينا ان تأثير مبدأ المساواة كان عظيماً على
خلاف تأثير المبدأين الآخرين .

ومع ان معنى هذه الالفاظ واضح فقد اختلف في فهمها
حسب الظروف والاشخاص ، ومن الامور المعروفة انه نشأ عن تفسير الناس

ذوي صلاحية مختلفة للالفاظ الواحد تفسيراً متبايناً حروب تاريخية كثيرة .

كانت كلمة الحرية عند رجال العهد تدل على حقهم بالاستبداد المطابق وتدل الآن عند الشاب المتعلم على تحرير النفس من كل احترام لما يضغط عليها من تقاليد وقوانين وأفضليات الخ ، وتدل عند اليعاقبة في الوقت الحاضر على حقهم باضطهاد خصومهم .

يذكر الخطباء السياسيون كلمة الحرية من وقت الى آخر في خطبهم ولكنهم عدلوا عن ذكر كلمة الاخاء على الاطلاق إذ يدعون اليوم الى تطاحن الطبقات لا الى التوفيق بينها وما وجد حقد يفرق بين طبقات الامة واحزابها السياسية مثل الحقد الذي يتفشون سموه وبينما يترزع مبدأ الحرية ويتقلص ظل مبدأ الاخاء فالتاريخي مبدأ المساواة ينمو وقد بقي هذا المبدأ رغم ما وقع في فرنسا من الانقلابات السياسية منذ قرن وبلغ من الاتساع مبلغاً صار به اساساً لحياتنا السياسية والاجتماعية وقوانيننا وعاداتنا وتقاليدنا ولو من الجهة النظرية على القليل .

ان المبدأ المذكور لميراث الثورة الفرنسية الصحيحة وما الحاجة الى المساواة امام القانون وفي المناصب والأموال إلا مدار الاشتراكية اي طور الديموقراطية الاخير . وكلما تعم هذه الحاجة يعظم

سلطانها وان خالفت سنن الحياة والاقتصاد ، وهي صورة جديدة
لما بين العقل والمشاعر من الصراع الذي قلما يخرج العقل منه ظافراً
٣ - ديمقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية

يمكن رد جميع المبادئ التي قلبت العالم الى ناموسين : التطور
البطني والتكيف حسب اختلاف النفوس .

ويشبه المذهب ذوات الحياة فلا يعيش الا اذا تطور وبما ان
الكتب لا تذكر هذه التطورات فان ما تقرره هو طور الماضي اي
صورة الموت هي التي ترسم فيها لاصورة الحياة ، ولا يدل ما تقصه
احد المذاهب في الغالب إلا على ما هو مهمل .

لقد اثبت في كتاب آخر كيف تتحول النظم واللغات والفنون
عند ما تنتقل من أمة الى أخرى وبينت درجة اختلاف سنن هذه
التحولات عن ما يرد في الكتب والذي يجعالي الآن اشير الى ذلك
هو انني اريد أن أوضح علة عدم مبالاتي في البحث عن الديموقراطية
بما يجيء في مذاهبها من النصوص وكوني اقتصر على التنقيب عن
عناصرها النفسية وعن صدها عند طبقات الناس الذين يتمذهبون بها
يتطور المبدأ الاول بسرعة عند اولي النفوس المختلفة ولا يلبث
ان يصبح عنواناً لأمور كثيرة التباين ، وينطبق هذا الرأي على
المعتقدات الدينية والسياسية فمتى يبحث عن الديموقراطية مثلاً ينبغي

ان يحتمل ما تدل عليه هذه الكلمة عند الامم المختلفة وان يقتضى عما اذا كان يرجد في الامة الواحدة فرق بين ديمقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية .

يسهل علينا عند وضعنا الملاحظة المذكورة محل الاعتبار ان نحقق ان ما يرد في الكتب والجرائد من الافكار الديمقراطية هو عبارة عن نظريات خالصة يضعها الكتاب ولا يعلم الشعب من امرها شيئاً ولا يفيد تطبيقها ، فاذا حاز العامل نظرياً حق اختراق الخواجز التي تفصله عن الطبقات القائدة بالمسابقات والفحوص فان امل وصوله الى ذلك عملياً ضعيف جداً .

وليس لديموقراطية الكتاب غاية سوى ايجاد صفوة من الناس تتكون منها طبقة الامة القائدة ، وليس عندي ما اقوله اذا صح تكوين هذه الصفوة إذ يصدق حينئذ عليها ما قاله نابليون من :

« ان سير الحكومة القويم يكون باستخدامها الارسطوقراطية على شكل ديمقراطي »

غير اننا نأسف لتأدية هذه الديمقراطية الى إقامة حقوق الية مطابقة خاصة بجماعة مستبدة قصيرة النظر مكان ما للملوك من الحقوق الالهية فالحرية لا تكون بإحلال استبداد محل استبداد .

واما الديمقراطية الشعبية فلا ترمي كالسابقة الى صنع فريق

من القادة ولما تغلبت عليها روح المساواة وحب تحسين احوال العمال فانها ترفض مبدأ الاخاء ولا تبالي بالحرية وهي لا تخيل شكلاً آخر للحكومات غير الشكل الاستبدادي ويبدو لنا ذلك من هتافها لجميع الحكومات المستبدة التي ظهرت منذ نشوب الثورة الفرنسية ومن الطريقة القهرية التي تسير عليها نقابات العمال .

ويظهر للعمال هذا الفرق العميق بين ديمقراطيتهم وديموقراطية رجال الادب اكثر مما يظهر لهؤلاء ولا يوجد ما هو متماثل بين نفسية الطرفين ولذلك لا يتكلمان بلغة واحدة فيصرح المنتسبون الى النقابات بان الاتفاق لا يمكن ان يسود بينهم وبين الساسة وارباب المال .

حقاً ان الاتفاق بينهما لا يكون وهذا هو السبب في عدم ظهور مفكرين عظام يدافعون عن الديمقراطية الشعبية منذ زمان افلاطون حتى الآن ، وقد وقع ذلك في نفس (إميل فاكيه) فقال :

« لم يكن المفكرون في القرن التاسع عشر ديمقراطيين وقد اقتطني ذلك عند ما وضعت كتابي المسمى بالساسة وعلماء الاخلاق في العصر التاسع عشر إذ كنت احب العثور على من هو ديمقراطي لاستعين بما ألقاه على البحث عن المذهب الديمقراطي » .

لا شك في ان هذا الكاتب العلامة كان يجد بين المشتغلين

بالسياسة كثيراً من الديمقراطيين لو اراد ذلك ولكن قلما يعد هؤلاء من المفكرين .

٤ — التفاوت الطبيعي والتسوية الديمقراطية

ان مشكلة التوفيق بين التسوية الديمقراطية والتفاوت الطبيعي لمن اشد مشاكل الوقت الحاضر صعوبة وليست امانى الديمقراطية بجهولة لدينا فلنبحث عن جواب الطبيعة على هذه الاماني :

اصطدمت المبادئ الديمقراطية التي زعزعت العالم منذ عصور البطولة اليونانية حتى الان بما نشأ عن الطبيعة من التفاوت والمؤلفون الذين قالوا مع (هلفيسوس) بان التفاوت بين الناس صادر عن التربية قليلو العدد . لا تعرف الطبيعة المساواة وقد وزعت امور الدهاء والحسن والصحة والقوة والذكاء وكل صفة يفضل صاحبها على امثاله توزيعاً مختلفاً ، وبما ان النظريات لا تقدر على تبديل هذا الاختلاف فان المذاهب الديمقراطية ستتظل محصورة في مجال الالفاظ حتى اليوم الذي ترضى فيه نواميس الوراثة بتوحيد قابليات الناس .

وهل يجوز ان نفرض ان المجتمعات قد تستطيع بصفة صناعية ان تأتي بالتسوية التي رفضتها الطبيعة ؟ استمر بعض النظريين طويلاً على القول بان التربية قادرة على احداث تسوية عامة ولكن

التجارب التي وقعت في اعوام عديدة أثبتت ضعف زعمهم
على انه يستحيل على الاشتراكية المنتصرة ان تقيم دعاء المساواة
بل تقضي على جميع الافضل الناس ولا يصعب استطلاع مصير امة
اهلكت صفوتها في زمان تتقدم فيه الامم المجاورة لها بما عندها من
خبرة الرجال .

وليس امر الطبيعة مقتصراً على عدم اقرارها بالمساواة بل انها
اوجبت تقدم العالم بما أدت اليه من التفاوت المزايد وهذه التفاوت
هو الذي اوجد من خلايا الادوار الجيولوجية اناساً غيرت مكتشفاتهم
وجه الارض .

ويشاهد مثل ذلك الحادث في المجتمعات فالطوار الدموقراطية
التي تصطفي الراقيين من الطبقات الشعبية تؤدي في نهاية الامر الى
ايحاد اريستوقراطية ذهنية مخالفة لما يحلم به النظرييون المتعالمون
بخفض جميع عناصر المجتمع الراقية الى مستوى عناصره الدنيا .

و يوجد بجانب السنن الطبيعية المعادية لنظريات المساواة طرق
التقدم في الوقت الحاضر ، فلما كان تقدم العلم والصناعة فيه يتطلب
مجهودات ذهنية عظيمة فانه لا ينشأ عن ذلك غير ازدياد التفاوت
النفسى واختلاف احوال المعاش .

والناس يشاهدون الآن الامر الآتي المؤثر وهو : كما ودت

القوانين والنظمات ان تساوي بين الافراد فان تقدم الحضارة يؤول الى تفاوتهم على نسبة ذلك ، كان الفرق الذهني بين الامير الاقطاعي والفلاح ضئيلا في العهد السابق ولكنه اصبح عظيما بين العامل والمهندس في هذه الايام وهو آخذ في الازدياد .

صارت الكفاءة عاملا اساسيا للرفي فاربابها من كل طبقة يصعدون والعاقلون منها يقفون او ينزلون . وما ذا تفعل القوانين بمقتضيات الزمن التي لا مفر منها ؟

ومن العبث ان يدعي فاقد والكفاءة بانهم اصحاب القوة لكثرة عددهم إذ لما حرم العمال من أدمغة عالية تفيدهم بما تجود به من الابحاث فان القضاء على اصحابها يوقعهم في الفاقة والفوضى .

ان ما خيرة الناس من الشأن العظيم في المدينت الحديثة واضح لا يحتاج الى اثبات ، فيوجد عند الهم المتمدنة والامم المتبربرة طبقة وسطى متماثلة وانما الذي يجعل تلك أعلى من هذه هو ما عند الاولى من صفوة لا يوجد نظيرها عند الثانية ، وقد ادركت الولايات المتحدة ذلك فاغلقت ابوابها في وجوه عمال الصين الذين يتصفون بكفاءة مثل التي عند عمال اميركا ويزاحمونهم باشتغالهم بأجور بخسة .

يزداد النفور بين العامة وبين الخاصة كل يوم ومع انه لم تشد الحاجة الى الخاصة في وقت اشتدادها في زماننا فان احتمالها لم يصعب

في دور مثل ما هو في الدور الحاضر .
 ونعد الحقد الشديد على الصفوة من امتن اركان الاشتراكية
 وينسى انصارها ان مبتكرات العلم والفن والصناعة هي سر قوة البلاد
 وسعادة من فيها من ملايين العمال وانهم مدينون لاصحاب العقول
 السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات . فلو ان معجزة جعلت الناس
 يعمنقون الاشتراكية قبل عصر وقضت على صفات الخاطرة والامعان
 والاستنباط وكل باعث للعمل لأدى ذلك الى التوقف وفقر العامل،
 والباعث الى القول بالمساواة في البؤس هو ما يغلي في صدور بعض
 سخفاء العقول من الشهوة والحسد ولن يعدل البشر عن تقدم الحضارة
 إرضاء لمثل تلك الاهواء الدنيئة .

==
 ١٥ ص

الفصل الثاني

نتائج التطور الديموقراطي

١- تأثير المبادئ التي لا قيمة عقلية لها

في التطور الاجتماعي

بيننا في الفصل السابق ان السنن الطبيعية لا تتنم مع الاماني
 الديموقراطية ومن الامور المعالومة ان لا تأثير لهذه الحقيقة في المبادئ

الراسخة في النفوس فالانسان لا يبالي بما في المعتقد المسير اياه من القيمة الحقيقية والفيلسوف الذي بحث عن هذا المعتقد وان وجب عليه ان يجادل في قيمته العقلية فانه ينبغي ان ينتقب ايضاً عن تأثيره في النفوس .

وتبدو أهمية هذا التقسيم للعيان عند تطبيقه على تفسير جميع المعتقدات التي ورد ذكرها في التاريخ فمع ان المشتري ومولوخ وفيشنو وغيرهم من الآلهة عبارة عن خيالات من الجهة العقلية فإن شأنهم عظيم في حياة الامم . يطبق التقسيم المذكور على المعتقدات التي سادت في القرون الوسطى واحتل ظهور آلاف من الناس امام الهياكل . ان هذه المعتقدات وهمية ايضاً ولكن كان لها تأثير عظيم كتأثير الحقائق ، ومن هو في شك من ذلك فليقايِس بين تغلب الدولة الرومانية وبين تغلب الكنيسة : كان تغلب الرومان ملموساً واقعاً لا ريب فيه وكان تغلب الكنيسة قائماً على اساس وهمية الا انه اكتسب ما للاول من السلطان القوي فبهالت الامم المتبربرة في تلك القرون المظلمة ما لا تقوم حضارة على غيره من الروادع الاجتماعية والروح القومية ويثبت ما نالته الكنيسة من السلطان قدرة بعض الأوهام على ايجاد مشاعر مخالفة لمنافع الفرد والمجتمعات كالرهبانية والحروب الصليبية وحروب الدين الخ .

واذا طبقنا الملحوظات السابقة على المبادئ الديمقراطية

والاشتراكية يظهر لنا انه لا يهتم في نجاح هذه المبادي عدم قيامها على اساس متين وانها يكفيها ان تبسط سلطانها على القلوب ، نعم قد تكون ذات نتائج مشؤمة ولكن لا عمل لنا في ذلك .

ومن الخطا ان يكلف دعاة المذاهب الجديدة انفسهم عناء البحث عن اساس عقلي يفسرون به ايمانهم اذ يكون اقناعهم الجمع اذا اقتصروا على الاتيان بضروب التوكيد وبث الآمال ، وما مقام قوتهم الا في النفسية الدينية الملازمة لقلب الانسان والتي لم تغير سوى المواضيع على تعاقب الاجيال . ولذلك فاننا لا نبحت من الوجهة الفلسفية عن غير نتائج التطور الديموقراطي الذي نشاهد سرعة سيره . قلنا عند ما تكلمنا عن الكنيسة في القرون الوسطى انها قدرت على التأثير في نفوس الناس ومتى نحقق شيئا من نتائج المذاهب الديموقراطية فاننا نرى ان سلطانها ليس اقل من سلطان الكنيسة في تلك الأحيين .

٢ - الروح المعنوية والنفسية التي كوتها المعتقدات

الديموقراطية

لم يقتصر ميراث الاجيال الحديثة على المبادي الثورية بل اشتمل على النفسية التي اوجبت انتصار هذه المبادي .

لقد وصفنا هذه النفسية - عند البحث عن الروح المعنوية -

فأثبتنا انها تميل الى إلزام الناس قهراً باوهامها التي عدتها حقائق ولم تلبث الروح اليعقوبية ان عمت فرنسا وجميع البلدان اللاتينية فاستحوذت فيها على جميع الاحزاب السياسية ومنها الحزب المحافظ ولا فرق في ذلك بين ابناء الطبقة الوسطى وبين افراد الشعب .

ان نتيجة انتشار تلك الروح هي إلزام الناس قسراً بالمبادئ السياسية والانظيم والقوانين وهذا هو سر كون المذهب النقابي - الذي هو سلمي منظم في البلاد الاخرى - لم يلبث ان نهج عندنا نهجاً متشدداً فوضوياً متجلياً في شكل اضطرابات وحرائق وتخريبات .

واذا استولى الخوف على الحكومات ولم تكبح جماح الروح اليعقوبية فان هذه الروح تفسد اصحاب العقول الصغيرة ، فلما صوت ثلث المندوبين في مؤتمر المعدنين الاخير لسياسة التخريب خطب احد كتاب المؤتمر فقال :

« اهدي الى كل من يطبق من العمال سياسة التخريب سلامي الاخوي واعجائي القايي » .

وتوجب هذه الذهنية العامة ازدياد الفوضى في البلاد واذا لم تكن فرنسا الآن في ثورة مستمرة فذلك - كما بينت آنفاً - لما هو واقع بين احزابها من التوازن ، نعم ان كل حزب من الاحزاب

المدكورة مفعم بمحمد مهالك على الآخرين ولكن لم يملك واحد منهم
قوة كافية لاختضاع الباقين .

ولقد سرى عدم التسامح العقبوبى سرية جعل حكمانا انفسهم
يتدعون بأشد الوسائل الثورية نحو خصوصهم فاضطهدوهم وجردوهم
من اموالهم من دون ان تحتج الاحزاب ، وما اشبه سير حكمانا في
الوقت الحاضر بسير الفاتحين في العصور القديمة حيث لا امل للمغالوب
إذا ليس عدم التسامح خاصاً بالعوام بل ، يشاهد ايضاً عند اولي
الامر والنهي ، وقد لاحظ (ميشليه) منذ زمن طويل ان ما يأتي
به المتعلمون من الاضطهاد يكون اشد من اضطهاد العامة في بعض
الاحيان ، لا ريب في انهم لا يكسرون المصاييح ولكن سرعان ما
يسهل عليهم ضرب الرقاب ، فالمتعلمون والاساتذة والمحامون الذين
ظن بان ما نالوه من التهذيب المدرسي قد ائلين طباعهم هم الذين اقترفوا
اشد المظالم ايام الثورة الفرنسية ولم ياطف التعاليم طباع الناشئة
في الوقت الحاضر اكثر من ذي قبل وهذا يظهر من تصفح الجرائد
والكتب التي محررها اساتذة الجامعات ، هنالك يتساءل المطالع كيف
اشتعل الحقد في قلوب هؤلاء الذين حالقهم الطالع الحسن .

يصعب تصديقهم لو يدعون بأن محبة الغير آخذة من نفوسهم
مأخذها ، الا ان الاميركيين غير ذلك إذا قيل ان روحهم الدينية

الضيقة وشوقهم الى الشهرة والمكانة عند الناس هما سببا ما يحجرونه من رسائل الدعاية ، وقد استشهدت في احدى مؤلفاتي السابقة بعبارات وردت في كتاب وضعه احد اساتذة مدرسة فرنسا (قولييج دو فرانس) محرضاً فيها الشعب على قبض اموال الطبقة الوسطى التي يلغنها فاستنتجت انه اذا اضطرت ثورة جديدة فانه يسهل عليها ان تجد بين مؤلني تلك الرسائل اعواناً مثل مارا وروبسبير وكارييه .

والديانة اليعقوبية - ولا سيما بعد مظهرها الاشتراكي - ما لالهة السابقة من السلطان على ارباب العقول المحدودة ، ولما اعمى الايمان بصائر هؤلاء فانهم يظنون ان رائد هم العقل مع ان شهواتهم وأوهامهم هي المسيرة اياهم ، وعليه فقد نشأ عن تطور المباني الديمقراطية - عدا ما اشرنا اليه من الاعمال السياسية - نتائج عظيمة مؤثرة في نفوس ابناء هذا الزمن .

وإذا نفد ما في حقيقة المذاهب الدينية السابقة فلا زال حقيقة المباني الديمقراطية ملئى ورى انه يخرج منها كل يوم شيء جديد ونعد الحق على الافضليات من اهم ما خرج منها ، وقد عم الحق على كل من يجتاز المستوى الوسط بموقعه الاجتماعي او ببروته او بذكائه جميع الطبقات من عوام وخواص فكان من نتائج شيوع الحسد والغيبة والميل الى الهجو والسخرية والجفاء وارتكاب الدنيا

وإنكار الصدق والزهارة والذكاء ، ومن يدقق في احاديث المتعلمين والشعب يرى أنها صبت في قالب الحاجة الى انتقاص الرجال والخط من قدرهم وما نجى اعظم الموتى من ذلك فلم تؤلف كتب اكثر من التي استصغرت فيها قيمة المشاهير الذين عدوا في الماضي اثنى ميراث حوته البلاد .

يظهر ان الحسد والحقد قد لازما مبادئ الديموقراطية في كل زمان ولكن لم يكثر شيوعهما في وقت كثرته اليوم وما خفي ذلك على المدققين قال الموسيو بوردو :

« توجد غريزة سافلة ثورية عاطاة من الادب لا غاية لها سوى خفض البشرية الى الدرك الاسفل وتعد كل أفضائية - ولو عالمية - شتيمة للمجتمع وهذا الميل اللئيم الى المساواة هو الذي كان مشتعلًا في قلوب اليعاقبة السفاكين عند ما قطعوا اعناق أمثال لافوازييه وشينيه » .

وليس الحقد على الافضليات الذي يعد أهم العوامل في انتشار الاشتراكية الآن هو كل ما تتصف به الروح الجديدة الناتجة عن المبادئ الديموقراطية بل يوجد نتائج مهمة كالاولى وان لم تصدر مثلها مباشرة ونعد منها : تقدم المذهب الحكومي وتناقض ما عند الطبقة الوسطى من النفوذ والقوة وازدياد تأثير الملايين وتنازع الطبقات واضمحلال الروادع الاجتماعية القديمة وانحطاط الآداب ،

وما هو واقع من التردد والفوضى يُبرز جميع هذه النتائج للعيان
فالأبن يعصى أباه والموظف يعصى مستصنعه والجندي ضابطه وهكذا
ساد السخط والحقد والحسد في الرقت الحاضر على كل مكان .

مثل الحركة الاجتماعية في ازدياد سرعتها كمثل الحركة الميكانيكية
ولذلك سنرى تفاقم امرها من يوم الى آخر ويتجلى هذا التفاقم بما
يقع كل يوم من الحوادث كاعتصاب المعدنين وموظفي البريد وانفجار
المدرعات الخ . قال الموسيو (دولانيسان) احد وزراء بحريتنا السابقين
بمناسبة انحطام مدرعة (الليبرته) التي قيمتها خمسون مليوناً وهلك
به في دقيقة واحدة مئتا رجل :

« ان المرض الذي يقرض اسطولنا هو كالذي يقوض جيشنا وادارتنا
ودواويننا ونظامنا النيابي ونظامنا الحكومي ومجتمعنا برمته ، وهذا المرض هو
الفوضى اي ارتباك النفوس وجميع الامور ارتباكاً تجز به الاعمال بما يخالف
العقل ويسير به كل امريء خلافاً لمقتضى الواجب والادب » .

وقال الموسيو (فليكس روسيل) رئيس المجلس البلدي الباريسي
في خطاب ألقاه بمناسبة نكبة مدرعة (الليبرته) التي عقبته نكبة مدرعة
(رينا) ايضاً : « ليست بحريتنا علة دائن بل ان هذه العلة اعم وتلخص
بثلاث كلمات : عدم التبعة وقلة النظام والفوضى » .

وتدل هذه الشواهد المذكور فيها امور لا يحيطها احد على ان

اشد مدافعي النظام الجمهوري يعترفون بتدرجنا في الانحلال الاجتماعي
شاعرين بعجزهم عن تلافيه ، وعلة هذا العجز صدور ذلك الانحلال
عن مؤثرات نفسية أقوى من عزائنا .

٣ - التصويت العام ومنتخبوه

ان التصويت العام هو احد المبادئ الديموقراطية الجوهرية
الفتاة فيه يتجلى مبدأ المساواة بتساوي الغني والفقير والعالم والجاهل
والوزير وأحقر اجرائه امام صندوق الانتخاب ساعة من الزمن .
خافت جميع الحكومات - ومنها حكومات الثورة الفرنسية -
امر التصويت العام ، ومن ينعم النظر فيه يرأى أول وهلة امكان
الاعتراض عليه ، فبدأ يقول بقدرة العوام على انتخاب رجال صالحين
للحكم اي بقدرة اناس قليلي المعرفة والتدريب محدودي النظر على
نيابهم بكثرة العدد أهلية يحسنون بها التمييز بين المرشحين مما لا
رتاح اليه النفوس .

ويمكن تبرير التصويت العام من الوجهة العقلية بان تقول مع
باسكال :

« ان الطريقة المثلى هي الرجوع الى الاكثرية لان الاكثرية امر منظور
قادر على الزام الناس بطاعته ، ولكن هذا ليس رأي الجهابذة » .

وبما انه يتعذر ان يحل في الوقت الحاضر اي نظام مكان التصويت

العام وجب الرضى به والسعي للالتام معه ، ولا يفيد الاحتجاج عليه والقول مع الملكة (ماري كارولين) ايام محاربتها نابليون : « بانه لا يوجد ما هو امقت من حكم الناس في هذا العصر المتمدن حيث ينقب كل سكاف عن عورات الحكومة ويسخر منها ! »

والحق ان كل اعتراض وجه الى التصويت العام ليس له من القوة كما يبدو لاول نظرة ، فلما ثبتت عندنا صحة نواميس روح الجماعات فانتا نشك ان تطبيق التصويت المحدود يؤدي الى انتخاب رجال افضل من الذين يتم انتخابهم بالتصويت العام . تدلنا تلك النواميس على ان التصويت الموصوف بالعام ليس إلا وهماً إذ لما كان رأي الجماعة هو رأي زعمائها - اللهم الا في الظروف النادرة - فان التصويت المذكور هو في الواقع اضيق تصويت . وهنا كل الخطر ، فالزعماء القابضون على زمام هذا التصويت هم صنائع لجن محلية صغيرة مشابهة لاندية الثورة الفرنسية والكبرى وهم الذين ينتخبون النائب ومتى يكمل انتخاب هذا الاخير فانه يصبح واسطة محلية مطلقة على ان ينظر الى مصالح تلك اللجن ، وذلك ما ينسيه منفعة البلاد العامة .

تحتاج اللجن الى عباد مطيعين ولذلك لا تنتخب لمنصب النيابة رجالاً ذوي ذكاء سام وأدب عال بل تصوت لانس ذوي اخلاق

هيئة لا موقع اجتماعاً لهم ، ويخضع النائب لتلك اللجن التي لولاهما لما اشتهر امره خضوعاً تاماً فيقول ما تقول ويصوت لما تشير اليه ، ويمكن تلخيص ما يدعو اليه خياله السياسي بكلمة « طمع بدم » على انه قد يقع - ولكن نادراً - ان يستأثر نواب بما لهم من الشهرة او المنزلة او الثروة باصوات الشعب من غير ان تتدخل اللجن المحلية الوقيحة بذلك .

إذا خُلم التصويت العام في بلاد ديمقراطية مثل فرنسا - أمر ظاهري وهذا هو السر في وضع كثير من القوانين التي لا منفعة للامة فيها كالقانون القائل باتباع خطوط الغرب الحديدية والقوانين التي شنت ضد اليسوعيين ولا تعبر هذه الامور من غير ما املته اللجن المحلية المتعصبة على النواب من المطالبين .

و يبدو تأثير اللجن المذكورة للعيان عند الاطلاع على اضطراب اكثر النواب اعتماداً الى الدفاع عن الفوضويين الذين يخرّبون دور الصناعة وعلى اتفاقهم مع القائلين بعدم التجنيد وعلى رضائهم بانحس المطالبات طمعاً في تجديد اخطابهم . فهكذا تتأصل في نفوس النواب عواطف وطبائع وعادات ديمقراطية دنيئة .

٤ - الحاجة الى الاصلاح

ان الميل الى الاصلاحات بوضع المراسيم لمن أشد ما تتصف

به الروح اليقينية شؤماً ومن اعظم ما ورثناه عن الثورة الفرنسية
خطراً وهو احد العوامل الاساسية التي ادت الى ما وقع في فرنسا
من الانقلابات منذ عصر .

والصعوبة التي يلقاها الناس في تعيين عمل الامراض التي تقاسيها
سبب نفسي من اسباب التعطش الى الاصلاحات ، وما في الانسان
من الحاجة الى الايضاح يخل له عالا وهمية تسهل مداواتها .

لقد اتينا منذ اربعين سنة باصلاحات جدير ان يدعى كل واحد
منها ثورة صغيرة ولكننا بالرغم منها لا نزال اقل الامم تطوراً في
اوروبا ، وقد تكون تلك الاصلاحات سبب هذا التطور البطيء .
يتجلى هذا البطء عند مقايضة ما عند الامم من عناصر الحياة
الاجتماعية اي ما عندها من تجارة وصناعة إلخ . إذ يظهر لنا ان تقدم
كثير من الامم ولا سيما الامة الالمانية عظيم مع اننا نمشي الهويناء ،
شاخ نظامنا الاداري والصناعي والتجاري كثيراً واصبح غير ملائم
لمقتضيات الوقت الحديث ، فصناعتنا صارت قليلة اليعن وبحريتنا
التجارية مشرقة على السقوط وهانحن لا نقدر على مزاحمة المصنوعات
الاجنبية في مستعمراتنا رغم معونة الحكومة المالية وقد بين المسيو
(كروني) وزير التجارة السابق هذا السقوط المحزن في كتاب
وضعه حديثاً فاتبع فيه رأي الناس المغلوطين القائل بان النظامات قادرة

على معالجة السقوط المذكور ، يشاطر جميع المشتغين بالسياسة هذا الرأي ولذلك قل تقدمنا فكل حزب مقتنع بان الاصلاحات تداوي الامراض وتسوق هذه القناعة الاحزاب الى القيام بمنازعات تجعل فرنسا اكثر بلاد العالم انقساماً وطعمة للفوضى .

لا يزال الناس لغافلين عندنا عن الحقيقة الدالة على ان قيمة الامة بافراها ومناهجهم لا بانظمتها فليست الاصلاحات الشافية هي الاصلاحات الثورية بل التي تتراكم مع الزمن ويتم الانقلابات الاجتماعية الكبيرة مثل الانقلابات الجيولوجية بما يتجمع كل يوم من العوامل الصغيرة ، وقد اثبت لنا تاريخ المانيا الاقتصادي منذ اربعين سنة صحة هذا الناموس .

وما اكثر الحوادث العظيمة الشأن - كالوقائع الحربية - التابعة لناموس تجمع العوامل الصغيرة رغم وقوعها في الظاهر خفاء نعم قد تنتهي المعركة الفاصلة احياناً في يوم واحد ولكن النجاح فيها لا يتم الا بما يؤتى به سابقاً من الجهود الدقيقة المتراكمة ببطء وقد جربنا ذلك عام ١٨٧٠ وجربه الروس اخيراً ، فع ان امير البحر (طوغو) اباد الاسطول الروسي في واقعة (طوشيا) التي توتف عليها صير اليابان فان الوقفاً من المؤثرات الصغيرة البعيدة اوجبت هذا الظفر ، وليست المؤثرات التي نشأ عنها انكسار الروس

اقل من ذلك ونعد منها : نظامهم القرطاسي المعقد المؤدي الى عدم
التبعية مثل نظامنا وعددهم الحرية التي يري لها رغم اتباعها بذهب
يعادل وزنها ونظام الجوائز لجميع الموظفين وقلة المبالاة بمنافع البلاد
ومما يحزن القلوب ان الجزئيات التي تتكون عظمة الامة من
مجموعها هي من الخفاء بحيث لا تؤثر في الجمهور ولا تصالح لترويج
منافع السياسيين الانتخابية ، وهذا ما يجعل هؤلاء لا يابهون لها
تاركين البلاد التي القت اليهم مقاليد امورها تتدرج في الانحلال
المؤدي الى الانقراض .

هـ - الفروق الاجتماعية بين البلاد الديمقراطية

والمباديء الديمقراطية في البلدان المختلفة

صه هنا

X

عد الناس ايام كان البشر منقسماً الى قبائل ومتفاوتاً بالانساب
ان الفروق الاجتماعية صادرة عن سنة طبيعية لا مفر منها ، ولكن
عند ما قضى على التقسيمات الاجتماعية القديمة ظهر ان الفرق بين
الطبقات امر صناعي لا يطاق ، وبما ان الحاجة الى المساواة شيء
نظري فان الامم الديمقراطية لم تلبث ان اوجدت مراتب صناعية
يستطيع نائلها ان يتحل بها لنفسه افضلية على غيره ، وما فشا الطمع
في الاقارب والاوزمة في زمان مثل ما هو اليوم .

ولا تأثير للاقارب والاوزمة في البلدان الديمقراطية الحقبة

كالولايات المتحدة وانما يتفاوت الناس فيها بالمال ، وقد يقع - ولكن على القلة - ان فتيات ثريات يقترن فيهما بدوي الالقب الارسطوقراطية الاوروبية وهكذا يفعلن بغرائزنهن ما يجعل امة فتاة كالولايات المتحدة تنال ماضياً ضرورياً لثبات مزاجها الادبي .

واذا نظرنا الى الاريسطوقراطية التي نشاهد تولدها في اميركا من حيث العموم نرى انها لم تقم على الالقب والوسمة بل على المال ولهذا لا تلقى في القلوب حسداً كبيراً فكل امرئ ، يطمع ان ينال منه قسطاً كافياً في يوم من الايام .

كان تو كفيل يجهل عند ما ذكر رغبة الاميركيين في المساواة في كتابه الباحث عن الديموقراطية انه سينشأ عن هذه المساواة المنتظرة تقسيم الناس الى طبقات حسب ما يملكونه من الدولارات ولا بد من حدوث ذلك في اوروبا يوماً ما .

ولا يوجد في الوقت الحاضر ما يسمح لنا ان نعد فرنسا بلاداً دموقراطية اللهم الا اذا استثنينا ما تلوكة الافواه من الكلمات وهنا نرى انفسنا حيال ضرورة البحث عن ما ينطوي تحت كلمة الديموقراطية من الافكار التي تختلف باختلاف البلدان .

وعندنا انه لا يوجد بلاد دموقراطية بكل معنى الكلمة غير انكلترا واميركا ، والدموقراطية وان تجلت في هذين البلدين بشكلين

مختلفين فانه يشاهد فيها مبادي واحدة ولا سيما مبدأ التسامح المطلق مع جميع الآراء والافكار ، ولا عهد لهما بالاضطهادات الدينية ؛ وبما انه جاز لكل امري ان يتخذ فيها المهنة التي تروق في عينه مهما كان عمره من غير ان يقوم اي حاجز في وجهه فان افضليات الناس تبرز فيهما باجلى مظهر .

يعتقد الناس في مثل البلدين المذكورين انهم متساوون لعالمهم بانه لا يوجد ما يمنعهم من الوصول الى ذرى متكافئة ، فالعامل فيهما يعلم بانه يستطيع ان يكون عريفاً مهندساً ولما وجب على المهندس ان يبدأ بالصعود من اسفل الدرجات - لان يصعد كما يقع في فرنسا الى اعلاها دفعة واحدة - فانه لا يعتبر نفسه من جوهر غير جوهر بقية الناس ، وهذا هو السر في كون الحق - الشديد الشيوع عندنا - لم ينتشر في انكلترا واميركا الا قليلاً .

لا محل للدموقراطية الفرنسية الا في الخطب وما في فرنسا من انظمة المسابقات والفحوص التي يضطر المرء وهو شاب الى معاناتها يسد في وجهه ابواب المهن ويكون في صميم الامة طبقات متعادلة متباينة .

إذا فالدموقراطيات اللاتينية نظرية وقد حل الاستبداد الحكومي عندنا مكان الاستبداد الملكي ولم يكن أقل قسوة منه وقامت

الاريسطوقراطية المالية مكان اريسطوقراطية النسب وليست امتيازاتها اخف وطأة من الثانية .
ان الفرق بين الملكية والدموقراطية اشد في الشكل منه في الاصل والفرق الحقيقي بين نتائجهما تابع لما عند الناس من النفسية المتحولة ولا فائدة فيما يوثق به من المجادلات في قيمة الاناظم المختلفة إذ لا فضيلة في ذاتها وانما قيمتها بقيمة الرؤوسين ، وتكون الامة على شيء عظيم من الرقي إذا علمت بان منزلتها بمجموع ما يأتي به افرادها من الجهود لا بما تأتي به حكوماتها .



الفصل الثالث

فيما للمعتقدات الديموقراطية من المظاهر الجديدة

١ - النزاع بين رأس المال والعمل

بينما يخطط مشروعاتنا في الاصلاح والتشريع خبط عشواء يسير تطور العالم الطبيعي في مجراه رويداً رويداً فتولد منافع جديدة ويعظم ما بين الامم من المزاومات الاقتصادية ويأتي العمال بضروب الفتن وتتكون من جميع الوجوه مشاكل مخيفة لاتحلبها خطب رجال السياسة .

وأشد هذه المشاكل الجديدة تعقداً ما هو واقع بين العمل ورأس المال من النزاع • ولا يخلو بلد من ذلك حتى البلاد ذات التقاليد كأنكلترا، فقد عدل العمال عن احترام العقود واخذوا يعتصبون لاسباب تافهة وبلغت البطالة والعوز مبلغاً يقلق البال وسرت عدوى الاعتصاب الى اميركا فاعاقت جميع صناعاتها ولكن استفحال الداء فيها أدى الى ايجاد الدواء، فنظم رؤساء الصناعات بينهم موثقات كبيرة اصبحت من القوة بحيث تقدر على إلزام العمال بطرقها التحكيمية •

ومما يزيد مشكلة العمال تعقداً في فرنسا اضطرارها الى ادخال عدد كبير من عمال الاجانب لتناقص عدد مواليدها^(١) وينتج عن هذا التناقص ايضاً صعوبة الاقتتال مع الامم المزاحمة التي سوف تلجؤوا عدم كفاية مزارعها لا طعام سكانها الى الاستيلاء على البلدان

(١) سكان الدول المعظمة :

عام ١٧٨٩	عام ١٩٠٦	
٢٨ مليوناً	١٢٩ مليوناً	روسيا
« ٢٨	« ٥٧	المانيا
« ١٨	« ٤٤	النمسا
« ١٢	« ٤٠	انكلترا
« ٢٦	« ٣٩	فرنسا

القليلة السكان سائرة على اقدم ناموس تاريخي .
وسيشهد الاقتتال بين العمال والمستصنعين اكثر من ذي قبل عند
ما يتفاقم النزاع الاقتصادي بين الآسيويين ذوي الحاجات الضعيفة
والقادرين على الانتاج بالجنس الاثمان وبين الاوروبيين اولي الحوائج
العظيمة ، وقد اثمرت الى اهمية هذا الامر قبل خمس وعشرين سنة .
جاء في كتاب للجنرال (هاملتون) الملاحق الحربي في الجيش الياباني
الذي اخبر بانتصار اليابان قبل وقوع الحرب الروسية اليابانية -
واعاد طبعته الجنرال (لانغوا) ما يأتي :

« ان الصيني كابدني في (مانشوريا) قادر على إبادة العامل الايض في
الحاضر واجلائه عن وجه الارض ، ولا يفكر الاشتراكيون الذين يشيرون
بالمساواة فيما ستؤدي اليه نظرياتهم من النتائج ، فهل النوع الايض صائر الى
الانقراض ؟ اني على ما في من العجز والتقصير ارى ان مصيره يتوقف على عدم
اصغائنا الى الخطب القائلة بان الحرب والتأهب اليها امر مضر لا فائدة فيه .

« واني انصح العمال ان ينظروا بعين البصيرة الى شؤون العالم في هذا الوقت
فيبدروا في قلوب اولادهم ، الحرب ويرضوا بما ينشأ عن الروح العسكرية
من الحن والاعباء وان لا يفشلوا في محاربة العمال الجدد المزاحمين . ولا يمنع
الآسيويين عن الهجرة وحفض الاجور بما يأتونه من انواع المزاحمة عن الإقامة
بين ظهرا اينما غير الحسام . فإذا لم ينتبه الاميركيون والاوروبيون الى ان بقاء منزلتهم
المتأخرة متوقف على ما عندهم من قوة السلاح فان آسيا لا تلبث ان تتقمهمهم .»

ومن الامور المألوفة ان هجرة الصينيين واليابانيين الى اميركا

اصبحت بما اوجبته من المزاحمة للعمال البيض كارثة وطنية ، وقد اخذ اولئك المهاجرون الى اوروبا ايضاً ولكن هذه الهجرة لم يتسع نطاقها بعد ، على انه يوجد المهاجري الصين مستعمرات مهمة في بعض المدن الاوروبية كلندن وكارديف وليفربول الخ . وقد اوجب وجودهم فيها حدوث قلق كبير لانه نشأ عن اشتغالهم باثمان بخسة خفض الاجور .

تخص تلك المشاكل المستقبل وما في الساعة الحاضرة من المشاكل المتعلقة بحل الاهتمام بغيرها عديم الفائدة الآن .

٢ - تطور طبقة العمال والحركة النقابية

ربما كان تطور العمال الحديث الناشئ عن الحركة النقابية اكبر المشاكل الديمقراطية الحاضرة شأنًا ، وقد انتشر المذهب النقابي المتكون من تجمع المنافع المتماثلة في جميع البلدان حتى اصبح كونياً ، ومن النقابات مالها ميزانيات معادلة لميزانيات الحكومات الصغيرة ونورد على سبيل المثال ان نقابات المانية بلغ دخلها واحد وثمانين مليوناً ، ويدل شيوع الحركة النقابية في جميع البلدان على انها ليست كالاشرائية بدعة خيالية بل نتيجة لمقتضيات الاقتصاد ، ولاقاربة بين المذهب النقابي والاشرائية من حيث الغاية ووسائل العمل والمنادى ، وبما اني اوضحت ذلك في كتابي المسمى بروح

السياسة فانتى اكتفى بتلخيص الفرق بينهما في بضعة سطور:
ترمي الاشتراكية الى الاستيلاء على جميع الصناعات وايداع
ادارتها الى الحكومة على ان توزع الحكومة منتجاتها بين ابناء الوطن
على السواء واما النقابية فانها بالعكس تسعى في ابطال تدخل
الحكومة وتود تقسيم المجتمع الى طوائف مهنية مستقلة .

ومع ان النقابيين يسخرون من الاشتراكيين ويصارعونهم
فان هؤلاء لم يألوا جهداً في كتم هذا الصراع ولكنه اصبحت من
الظهور بحيث يتعذر اخفاؤه وسوف يخسرون قريباً ما لهم من النفوذ
السياسي ، والسبب في توسع النقابية على حساب الاشتراكية هو
تأليفها بين الحاجات المتولدة عن الاختصاص الصناعي في الوقت الحاضر
حقاً اننا نرى ظهور المذهب النقابي في بلاد مختلفة ولم ينل
هذا المذهب نجاحاً في فرنسا كما في البلدان الاخرى لان لبسه ثوباً
ثورياً فيها أدى الى سقوطه مؤقتاً بين ايدي فوضويين لا يباليون بأي
نظام ولا يفعلون غير اتخاذ المذهب المذكور آلة لتقويض دعائم المجتمع
الحاضر ، وهكذا فان الاشتراكيين والنقابيين والفوضويين يتعاونون
عندنا - رغم اختلاف مبادئهم - على محق الطبقات المسيرة للامة
ونهب اموالها .

لا تتفرع المبادئ النقابية عن مبادئ الثورة الفرنسية ابداً

وكثيراً ما تناقضها من بعض الوجوه مناقضة تامة فالمذهب النقابي يأمر بالرجوع الى أنظمة اليّة قريبة من أنظمة الطوائف المهتية التي قضت عليها الثورة المذكورة وهو من نوع المواثقات التي حرّمت تلك الثورة تأسيسها ويرفض النظام المركزي الذي أقامته . ولا يهتم المذهب النقابي أمر واحد من المبادئ الديمقراطية الثلاثة اي الحرية والمساواة والاخاء ، بل تطالب النقابات اعضائها بالطاعة المطلقة المبطلّة لكل حرية .

ليس عند النقابات من القوة ما يكفي لبغي بعضها على بعض ولذلك فانها تتقابل كالاخوة ولكن لا بد من تطاحن منافعها المتباينة كما حدث ايام العهد النقابي في الجمهوريات الايطالية - جمهورية فلورنسا وجمهورية سيان - عند ما تنال ما تصبو اليه من القوة فتنسى وقتئذ ما تبديه اليوم من الاخاء ويحل مكان المساواة استبداد نقابي . يظهر ان ذلك الوقت قريب إذ السلطة النقابية تعظم بسرعة ولا ترى أمامها سوى حكومات عزلاء لا تدافع عن نفسها بل تخضع لجميع مطالب النقابات ، وهذا أمر فاسد لانه وان لاءم الساعة الحاضرة فانه يشغل كاهل المستقبل كثيراً .

استعادت الحكومة الانكليزية اخيراً بهذه الطريقة في نزاعها مع نقابة المعدنين التي اندرت انبكترا بايقاف حياتها الصناعية اذا لم

يحدد اصغر اجرة يعطاها المنتسبون اليها من دون ان يحدد اصغر
عمل يقومون به ، ومع انه لا يوجد ما يبرر قبول هذا الطلب فان
الحكومة رضيت بان تقترح على البرلمان ان يضع قانوناً مستحسناً
اياه ، وما القاه المستر بلفور في هذا الموضوع من الكلام الرزين
امام مجلس العوام جدير بامعان النظر واليك اياه :

« لم تر بلادنا ذات التاريخ الطويل الحافل بجلال الحوادث نفسها ازاء
خطر داهم مثل الخطر الحاضر . ومصدر هذا المنظر الغريب المشؤم هو تلك
النقابة التي تهدد صناعة مجتمعنا وتجارتها بالفلج وان كانت حياة هذا المجتمع قائمة على
ما فيه من مصانع ومتاجر ».

لا حد لسلطة المعدنين تحت ظل القانون الحاضر ، فهل كان
لنا عهد بمثل ذلك ؟ وهل ظهر في بلادنا امير اقطاعي اشد بغياً من
هؤلاء ؟ وهل وجدت موثقة امير كية سخرت من المصلحة العامة
مستعينة بما حولها القانون اياه من الحقوق نظير اولئك ؟ ان ما في
قوانيننا ونظامنا الاجتماعي وفي الصلابة المتبادلة بين صناعاتنا ومهننا
من الكمال يلقينا - اكثر من كل جيل سابق - الى الخطر العظيم
المهدق بالمجتمع في هذا الزمن ، اننا نشاهد الآن المظهر الاول لقوة
العناصر التي سوف تغمر جميع المجتمع اذالم يحذر منها ، ويدل بعض
الدلالة الطور الذي تدعن به الحكومات لمطلوبات المعدنين على
انتصار اولئك الذين يقومون في وجه المجتمع .

ابا
///

٣ — لماذا تحول بعض الحكومات الديمقراطية

الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية

يسوق ما نشأ عن المبادئ الديمقراطية من الفوضى والمنازعات الاجتماعية بعض الحكومات الى تطور مفاجيء سينتهي بجعل سلطتها رسمية فقط ويقع هذا التطور الذي سنلخص نتائجه بتأثير ضرورات مهيمنة ناطمة لسير الامور .

ان حكومة البلاد الديمقراطية تتكون من نواب تم انتخابهم على طريقة التصويت العام فهم الذين يسنون القوانين ويعينون الوزراء من بينهم ويسقطونهم ولا يمضي وقت قصير على استلام الوزراء زمام الامور حتى يبدلوا اذ ان اكثرية النواب المطلقة تكفي للحكم بذلك . ولما كان من يحل مكانهم من الوزراء ينتسبون الى حزب آخر فانهم يحكمون بمبادئ مخالفة لمبادئ سلفهم .

والذي يظهر لاول وهلة ان القرار والديمومة لا يكونان في بلاد تجاذبها مؤثرات متباينة كثيرة ولكننا نرى رغم هذا التذبذب ان اسر حكومة ديمقراطية مثل الحكومة الفرنسية مستقيمة على قدر الامكان فكيف تفسر هذه الحادثة ؟ ان تفسيرها لشيء بسيط نجمله بقولنا ان الوزراء وان ظهر انهم يحكمون فانه ليس بيدهم من الحكم سوى شيء يسير ويخضع سلطتهم فيما يلقونه من الخطب التي قل

من يصنمي اليها وفي بضمة تدابير فاسدة، غير انه يوجد خلف سلطة الوزراء السطحية العاطلة من القوة والديمومة والتي هي العوبة بيد المشتغلين بالسياسة سلطة خفية آخذة في النمو وهي سلطة الادارات ولهذه السلطة ذات التقاليد والمراتب والمتصفة بالديمومة قوة اعترف الوزراء بعجزهم عن مناهضتها ^(١) وقد بلغ تجزأ التبعة في الادارات مبلغاً جعل الوزراء لا يرون امامهم من هو ذو شخصية كبيرة ويقوم امام عزائمهم الموقته ما يعترض به عليهم من الانظمة والعادات والاحكام فيوجب سوء علمهم بهذه الامور عدم اقدامهم على خرقها .

لا محالة من تناقص ما للحكومات الديمقراطية من السلطة ومن نواميس التاريخ الثابتة انه متى تعظم شوكة احدى الطبقات - كطبقة الاشراف والاكليروس او الجيش او الشعب - فانها لا تلبث ان تستعبد الاخرى وعلى هذه الصورة صارت الجيوش الرومانية تعين الامبراطرة وتسقطهم ، ولقي الملوك مصاعب شديدة في مكافحة الاكليروس ، وابتاع المجلس النيابي السلطة ايام الثورة الفرنسية ثم حل مكان الملك .

ونرى ان طائفة الموظفين ستكون دليلاً جديداً على صحة

(١) اشار الوزير (كروبي) في كتاب نشره حديثاً الى هذا الجزء اشارة كافية

فيبين ان الدواوين تشل عزائم اولي العزم من الوزراء فيعدلون عن مناهضتها .

هذا الناموس فيها هي اخذت بعد ان عظم امرها ترفع صوتها وتهدد
وتعتصب ، مثال ذلك اعتصاب موظفي البريد وموظفي سكك
الحكومة ، وهكذا فانه يتكون من السلطة الادارية دولة صغيرة في
وسط الدولة الكبيرة ولا بد من استئثارها بالسلطة الحقيقية اذا
استمرت على تطورها الحاضر ، فتكون نتيجة جميع ما قمنا به من الثورات
انتقال السلطة من الملوكة الى طائفة من الموظفين خفية مستبدة غير مسئولة.

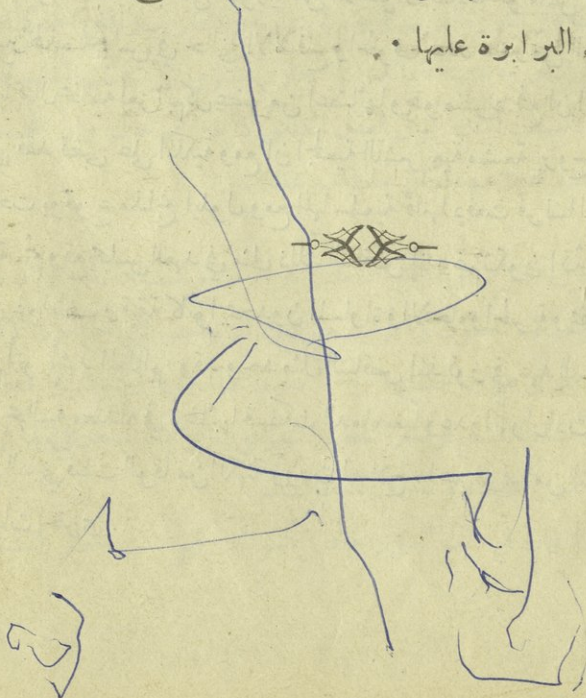


يستحيل اكتشاف عاقبة المعارك التي تنذرنا بالافول ، وينبغي
ان الانتقاء او التطير بل ان نقول بان الضرورة لا تلبث ان توازن
بين الامور فالعالم يجد في سيره من غير ان يبالي بما نلقيه من الخطب
ولا شك في توصلنا الى الالتئام مع تقلبات البيئة المحيطة بنا عاجلا
كان ذلك ام آجلا وانما الصعوبة كلها في الانتهاء الى هذا الالتئام
من دون ان يحدث اصطدام كبير ثم مقارمة او هام الخياليين الذين
خربوا العالم مرات عديدة لما عجزوا عن تجديده .

ذهبت آثينا وروما وفلورنسا وغيرها من المدن التي اضاءت
التاريخ ضحية هؤلاء النظريين المهلكين الذين كانت نتائج تأثيرهم
واحدة : فوضى فحكم مطلق فانقراض .

ولا تنفع هذه الدروس المتأمرين الكثيرون العددي في الوقت

الحاضر إذ لا يزالون عمياً عن العلم بان الفتن التي اثارها اطماعهم تنذرهم
بالوآء ، بذر اولئك في نفوس الجماعات آمالاً يتعذر تحقيقها وحر كوا
شهواتها وقوضوا الروادع التي اقيمت في عصور طويلة لئلا يجرأ مثاليهم .
ان مقاتلة الجموع العمياء لصفوة الرجال من الامور التي جرت سنة
التاريخ عليها وما اكثر المدينيات التي قضى عليها انتصار الحكومات الشعبية .
فالخواص يبنون والعامّة تهدم ومتى يضعف اولئك يظهر تأثير هذه المفسد .
لم تتقدم الحضارات العظيمة الا بالتغلب على السوق ولم ينشأ
عن الاستبداد الديموقراطي فوضى وحكم مطلق فغارات اجنبية ثم
فقد استقلال في بلاد اليونان وحدها بل ان الاستبداد الفردي قد
عقب استبداد الجماعات في كل زمان فهو الذي زعزع عظمة روما
وأدى الى قضاء البرابرة عليها .



الخلاصة

بحثنا في هذا المؤلف عن الثورات الرئيسية التي زلزلت بنيان التاريخ ولكننا فصلنا خاصة أمر الثورة الفرنسية التي هي أهم من الجميع لقلبها أوروبا مدة عشرين سنة رأساً على عقب ولأن صدها لا يزال يرن في الأذان.

إن هذه الثورة مصدر وثائق نفسية لا ينضب معينه ولا يوجد دور تاريخي جمع تجارب كثيرة في وقت قصير مثل دورها .

وقد وجدنا في كل صحيفة من صحائف هذه الفاجعة مجالا لتطبيق ما بيناه في نصابنا المختلفة من المبادئ الدالة على ما عند الجموع من الروح الموقنة وعند الشعوب من الروح الثابتة وعلى تأثير المعتقدات وشأن الموراث الدينية والعاطفية والجمعية واصطدام انواع المنطق المختلفة.

يبدو لنا عليه المجالس الثورية من الاحوال بصحة نواميس روح الجماعات . فالسير لهذه المجالس في حالتها الاندفاع والخوف عدد صغير من الزعماء وكثيراً ما تأتي بأعمال مخالفة لعزائم كل عضو من اعضائها وهو منفرد . فمع ان المجلس التأسيسي ملكي فقد قضى على الملكية ومع ان الجمعية التشريعية مشبعة بروح الانسانية فانها سمحت بوقوع مذابح ايلول ومع انها سلمية فانها دفعت فرنسا الى القيام بحرب هائلة . ثم وقع مجلس العهد في مثل ذلك التناقض إذ رغم تكون اثريته من فلاسفة ذوي عواطف رقيقة كانوا يجدون المساواة والاخاء والحرية ويمقتون الاضطهاد فانهم أتوا بأشد المظالم ، وقد وجد مثل التناقض المذكور في عهد الديركتوار ايضاً كانت مجالسه معتدلة في رغائبها فسفكت الدماء بغياً وعدواناً وارتدت توطيد دعائم السلم الديني ففتت الوفاً من الكهنة وودت اصلاح ما عم فرنسا من التخريب فقامت بتجربات اخرى .

إذا وجد اختلاف تام بين عزائم رجال الثورة الفرنسية وهم منفردون وبين عزائمهم وهم مجتمعون في المجالس ، وعلة ذلك اطاعتهم قوى خفية لا سلطان لهم عليها فهم وان اعتقدوا بانهم خاضعون لسلطان العقل المطلق فانهم كانوا يعانون ما لم يدركوا أمره من المؤثرات الدينية والعاطفية والجمعية .

تقدم الذكاء بتعاقب الاحيال ففتح للانسان آفاقاً عجيبة ، واما الخلق الذي هو اساس روحه والحرك الحقيقي لاعماله فلم يتبدل منه شيء ، واذا تنكر لحظة فانه لا يلبث ان يظهر كما كان . ولذلك وجب النظر الى الطبيعة البشرية كأمر واقع لا يتغير . لم يرض القائمون بالثورة الفرنسية بذلك فحاربوا الاول مرة تحويل الناس والمجتمعات باسم العقل ، ولم يتيسر لاي مشروع كما تيسر لمشروعهم من وسائل النجاح ، لان قوتهم كانت اعظم من قوة جميع الجبابرة وقتما ارادوا انجازهم ، ولكن رغم تلك القوة ورغم انتصار الجيوش ورغم ما سنوه من القوانين الصارمة ورغم استئثارهم بالسلطة فان الثورة الفرنسية لم تؤد الى غير التخريب واقامة الحكم المطلق ليست هذه التجربة عديمة الفائدة اذ التجارب ضرورية لتتقيد الامم . فلو لا الثورة المذكورة لصعب اثبات كون العقل المطلق لا يغير الرجال وان المجتمع لا يتجدد كما يريد المشرعون مهما كان سلطانهم عظيماً .

لم تلبث الثورة الفرنسية التي اشعلت نارها منافع الطبقة الثانية ان اصبحت شعبية فخارت الغريزة المعقول واتهمكت حرمات الزواجر التي اخرجت الانسان من طور الهمجية الى طور الحضارة . وقد حاول المصاحون ان ينشروا مذاهبهم باستنادهم الى مبدأ السلطة الشعبية وصار الشعب الذي يقوده الزعماء يتدخل في مذاكرات المجالس النيابية بدون انقطاع ويقترف أشد الظالم .

ان تاريخ الجماعات في ذلك الدور حافل بالفوائد . فهو يثبت خطأ المشتغلين

بالسياسة الذين يعززون الى الروح الشعبية جميع الفضائل .

وتدلنا حوادث الثورة الفرنسية ان الشعب يرجع مسرعاً الى همجية القرون الحالية اذا تفلت من الزواجر الاجتماعية التي هي اساس كل مدينة وترك يسير حسب ما توحى اليه غرائزه . ففي كل انتصار يتم للثورة الشعبية عود الى التوحش ولو استمرت ثورة (الكومون) التي وقعت عام ١٨٧١ لاحت دور اهلول الاكبر ، ولما لم يكن عندها من القوة ما يكفي لاهلاك كثير من الناس اقتصررت على حرق أهم مباني باريس .

ليست تلك الثورة سوى اصطدام قوى نفسية تخاصمت من القيود الزاجرة لها وقد نشأ عن اقتتال الغرائز الشعبية والمعتقدات العنقوبية والمؤثرات الارثية والشهوات والمطامع التي لا حد لها تضرب فرنسا بالدماء واشرافها على الدمار . يلوح للناظر من بعيد ان الثورة المذكورة تتكون من مجموع هذه العناصر مع انه لا يوجد ما هو متجانس فيها . وينبغي تحليلها للوقوف على حقيقة تلك النازلة واستجلاء سر المحرضات التي حركت نفوس ابطالها ، وتوازن انواع المنطق المختلفة - اي المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجماعات - في الازمنة الاعتيادية تقريباً واما في ايام الفتن فانها تتصادم وينتقل الانسان من حال الى حال .

لم ننكر في هذا الكتاب ما جادت به الثورة الفرنسية على حقوق الامم ولكننا قلنا مع كثير من المؤرخين بان مار بجنه تلقاء كثير من اعمال التخريب لا بد من نيله مع سير الحضارة بلا عناء ، وما اعظم ما اصابنا من خسارة ماديته وانحلال ادبي لاكتساب زمن قصير ! ولا يتم اصلاح هذه الامور الطارئة على ساسلة التاريخ الا رويداً رويداً ولم يتحقق هذا الاصلاح حتى الآن .

يظهر ان الشبيبة الحديثة تفضل العمل عن الفكر ، وهي تستخف بمجادلات الفلاسفة العقيمة ولا ترى فائدة في الاراء الفارغة التي تدور حول امور لا يزال

جوهرها مجبولاً ، حقاً ان العمل امر محمود اذ هو سبب كل تقدم ولكنه لا يفيد الا اذا وضع في محله ، فمع ان زعماء الثورة الفر نساوية من الرجال العاملين فانهم نكبوا بالاوهام التي تسلطت عليهم .

ان العمل مضر اذا احتقر الحقائق وسعى في تحويل مجرى الامور بعنف اذ لا شبه بين تجربة يكون موضوعها المجتمع وبين تجربة موضوعها ما في احد الاختبرات من الآلات . وما اتينا به من الانقلابات يدلنا على شدة ما ينشأ عن الاغلاط الاجتماعية من المصائب .

يود كثير من المتهوسين الذين استحوذت عليهم الاوهام ان يعيدوا دور الثورة الفر نساوية مع اتيان هذه الثورة تجربة حاسمة وسترجع الاشتراكية التي هي خلاصة هذا الامل بالناس الى الوراء لابطالها اهم عوامل السير فيهم . وهي باقامتها تبعة الجماعات وقوة استنباطها مقام تبعة الفرد وقوة استنباطها تسقطهم الى أدنى الدرجات . وليست الساعة الحاضرة ملائمة لمثل هذه التجارب ، اذ ترى ان الامم تمنع في التسليح كل يوم اكثر من ذي قبل رغم خوض الحيايين في بحار الاوهام وتهيبهم شهوات الجموع ومطامعها ، والكل شاعر بانه لا مكان للامم الضعيفة في مزاحمة العالم . تنمو في اوروبا الوسطى دولة حربية مخيفة طامعة في سيادة العالم لتتال اسواقاً تنفق فيها سلعها ومهاجر تسكن فيها من لا تقدر على اطعامه من ابناءها المتزايد العدد . فاذا داومنا على خرق الاتحاد بما يقع عندنا من النزاع الداخلي ومن تنافس الاحزاب ومن الاضطهاد الديني ومن وضع قوانين مقيدة لتقدم الصناعة فان شأننا في العالم ينتهي ونفسح المجال الى امم ملتحمة الاجزاء عالة كيف تلتئم مع مقتضيات الطبيعة من دون ان تحاول تذليلها ، نعم ان الحال يعيد الماضي وان التاريخ حافل بتفرغات وقعت بعثة ولكن الحوادث في مجموعها مسيرة بنواميس ازلية .



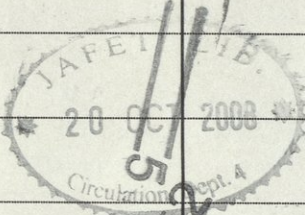
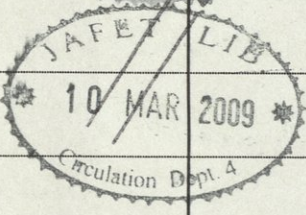
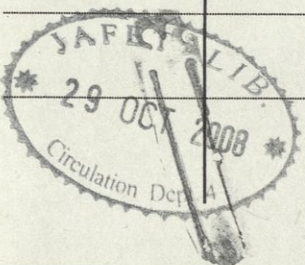
فهرست

صفحة

مقدمة الطبعة الاخيرة للمؤلف	٦
مقدمة المؤلف	١٢
الجزء الاول - العناصر النفسية لاجركات الثورية	
الباب الاول	
صفات الثورات	
الفصل الاول - الثورات العلمية والثورات السياسية	٢٣
الفصل الثاني - الثورات الدينية	٣٥
الفصل الثالث - شأن الحكومات في الثورات	٥٠
الفصل الرابع - شأن الامة في الثورات	٦١
الباب الثاني	
مظاهر النفسية السائدة ايام الثورات	
الفصل الاول - تقلبات الخلق ايام الثورات	٧٥
الفصل الثاني - النفسية الدينية والنفسية المعنوية	٨٧
الفصل الثالث - النفسية الثورية والنفسية المجرمة	٩٩
الفصل الرابع - روح الجموع الثورية	١٠٤

f

DATE DUE

323.2:L44ra

لوبيون، غوستاف

روح الثورات والثورة الفرنسية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01014996

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

